أنتل سرب

المسافر
و نور القمر

رواية

ترجمة: نافع معلا

دار

المسافر ونور القمر

أنتل سرب

رواية

ترجمها عن الهنغارية:

نافع معلا

المسافر ونور القمر - رواية Utas és holdvilág

تأليف: أنتل سرب Antal Szerb

ترجمها عن الهنغارية: نافع معلا

تصميم الغلاف: تمام عزّام

ISBN: 8 - 96 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2019

الفصل الأول: شهر العسل

متمرّداً أبتدع قواعد وقوانين.

وماذا يأتي بعدها؟

إنني أنتظر جزائي،

فالعالم يقبلني، وينبذني.

فيللون (Villon)

- ١ -

لم تحصل المشكلة على متن القطار. لكنّها بدأت مع الأزقّة في مدينة البندقية، ما إن انطلق بهما القارب السريع إلى الداخل مفارقاً القنال الكبير ليسلك الطريق الأقصر، وانكشفت له الأزقّة يميناً وشمالاً، ولكنّه لم يُعِرها ذلك الاكتراث الكبير بعد، لأن طبيعة البندقية هي التي كانت تستأثر بكلّ اهتمامه بادئ الأمر: المياه بين المباني، الجنادل، الخليج، صفاء اللون الأحمر الطوبيّ للمدينة. ثم إن ميهاي للمرّة الأولى هنا في إيطاليا يمضي شهر العسل وهو في السادسة والثلاثين من العمر. كثير الترحال، طاف في العديد من البلدان، منها إنكلترا، ومنها فرنسا التي أمضى فيها سنوات عدّة، غير أنه تفادى السفر إلى إيطاليا، لشعوره بأن الوقت لم يحِن بعدُ للمجيء إليها وزيارة معالمها. زِد على ذلك أنه قد أبعدَ إيطاليا أيضاً، إضافة إلى ما أبعده من حساباته، وصنّفها، بوصفها توالداً للذريات المتعاقبة، بين

العناصر الخطيرة، حتى إنه كان يخشاها، كما يخشى ضوء الشمس الباهر، ورائحة الأزهار، والنساء الفاتنات الجمال.

لو لم يتزوّج، ولم يعتزم أن يعيش حياة زوجية أصولية مستقرّة تبدأ بقضاء شهر عسل في إيطاليا، لربّما ماطل في رحلته الإيطالية حتى وافته المنيّة. حتى إنه لم يقم برحلته الآن بقصد زيارة إيطاليا، بل من أجل شهر العسل، وهو أمرٌ مختلف تماماً. وعلى أيّ حال، صار الآن بوسعه أن يأتي بعد أن أصبح متزوّجاً. بات الآن لا يهدِّده ذلك الخطر الذي يدعى إيطاليا. مرّت الأيام سلميّة يسودها الوئام وتتخلّلها البهجة المأمولة في شهر العسل، وتتالت سلسلة لا يشوبها التوتّر في أثناء التجوال لمشاهدة المدينة. وكما يليق بشخصين على درجة من الثقافة ويتمتّعان بقدرٍ كبير من النقد الذاتي، حاول كلٌّ من ميهاي وأرجي أن يجد حلاً وسطاً بين الخيلاء واللاخيلاء. لم يرهقا نفسيهما كثيراً باتّباع توجيهات دليل باديكر السياحي، ولم يكترثا إلا قليلاً بأن يكونا في عداد أولئك الذين يعودون إلى المنزل ويقولون بتفاخر: «المتاحف... لم نكن طبعاً في المتاحف!»، وينظر كلٌّ منهم فخوراً في الآخر.

كانا في المسرح ذات مساء، وما إن عادا بعد ذلك وصارا في صالة الفندق، حتى شعر ميهاي بالرغبة الشديدة في احتساء شرابٍ ما. لم يعرف بدقّة أيّ نوعٍ من الشراب يتوق إليه، لكنّه فضّل النبيذ الحلو. خطر له مذاق نبيذ ساموسي الكلاسيكيّ المميّز. كم تذوّقه في باريس! ولكن البندقية تشبه اليونان بطريقةٍ أو بأخرى، فمن اليسير إذاً الحصول هنا على نبيذ ساموسي، وإلا فلا ضير في نبيذ مافرو دافين، لأنه لم يكن على معرفة بالنبيذ الإيطالي ما دام لم يختبره بعد. طلب إلى أرجي أن تصعد إلى الغرفة، وسيلحق بها حالاً، بعد أن يحتسي شيئاً.

«حقاً كأس واحدة فحسب» قال، متظاهراً بالجدّية، لأن أرجي لوَحت بجدّية مقنعة، ورزانة، كما يليق بعروسٍ شابّة.

بابتعاده عن القناة الكبيرة (كانال غراند)، التي يقع فندقهما على ضفتها، قادته خطواته إلى شوارع محيطة بفرازيريا يطوف فيها كثيرٌ من الإيطاليين حتى في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، بما يشبه طريق النمل الذي يميّز مكان هذه المدينة. يسير الناس هنا في طريقٍ واحد كالنمل فتظلّ بقيّة الشوارع خالية. أصرّ ميهاي على طريق النمل، لأنه فكّر أن البارات وأماكن بيع المشروب تنتشر على طول الشوارع المكتظّة، وليس في عتمة الشوارع الخالية غير الآمنة. عثر على العديد من الأماكن التي تقدّم المشروبات، لكنه لم يجد في أيٍّ منها ما يرضي مزاجه. ما من مكان إلا وكانت تشوبه شائبة ما. زبائن أحد الأمكنة في منتهى الأناقة، وزبائن الآخر في منتهى البساطة، ولم يعثر في أيٍّ منها على ضالّته من المشروب الذي بحث عنه. وشيئاً فشيئاً شعر أنه لن يجد ما يرضيه إلا في مكانٍ وحيد في البندقية، ولكي يكتشفه عليه أن يعتمد على فطرته. وهكذا فقد ولج داخل الأزقّة.

أزقّة ضيقة تفرّعت إلى أزقّة أضيق، وأنّى اتجه ضاقت أكثر فأكثر، واشتدّت ظلمةً، وإذا ما فتح ذراعيه تمكّن من ملامسة صفّي البيوت. تلك البيوت المنصتة ذات النوافذ الكبيرة التي، كما ظنّ، تهجع وراءها الحياة الإيطالية الغامضة والثرّة. صفوف متقاربة إلى درجة تجعل التجوال الليلي في هذه الأزقة زلّة من الزلّات. أيّ سحرٍ غريب، وأيّ انتشاءٍ عجيب استحوذا عليه هنا بين الأزقة! لمَ ينتابه إحساسٌ بأنه حلّ أخيراً في وطنه؟ لعلّ الطفل هو من حلُم بمثل هذا، الطفل الذي أقام في الڤيلات ذات الحدائق الشاسعة، لكنّه يخاف الأماكن المتسعة. أو لعلّ المراهق

هو الذي رغب العيش في أماكن ضيّقة يحمل كلّ مترٍ مربّع فيها معناه الفريد، وبعض الخطوات تعني انتهاكاً للحدود. تنقضي عقود إلى جانب طاولة عتيقة، وتمضي حيوات بشرية في كرسيّ.

ظلّ يطوف في الأزقة حتى تلمّس طلوع الفجر، وشعر أنه بلغ طوق مدينة البندقية، وصار على الضفة «الجديدة» من حيث يمكن رؤية جزيرة المقبرة، والجزر الغامضة الأبعد، ومن بينها جزيرة سان فرانسيسكو في ديسرتو، التي كانت ذات يوم مخيّماً للمجذومين، ومنازل مورانو في البعيد البعيد. هنا قطن البندقيّون الفقراء الذين لم تصل إليهم حركة السياحة، ولم ينتفعوا منها إلا ما ندر، وهنا كان المستشفى، ومن هنا انطلقت الجنادل التي تنقل الموتى. لم يستيقظ بعدُ إلا قلّةٌ من البشر مضوا إلى أعمالهم. كان العالم قاحلاً وأشبه بحال المرء حين يظلّ ساهراً حتى الصباح.

عثر على جندولٍ يقلّه إلى الفندق.

كانت أرجي قد أرهقتها حالة القلق منذ ساعات، ولم يخطر لها إلا عند الساعة الواحدة والنصف أن بوسعها إبلاغ شرطة البندقية، وقد قامت بذلك بعونٍ من البوّاب الليلي، لكن عبثاً بالطبع. كان ميهاي ما يزال كالسائر في نومه، وكان شديد التعب، فلم يستطع أن يعطي إجابات معقولة عن أسئلة أرجي. قال:

- الأزقّة.. كان ينبغي أن أتجوّل ليلاً في الأزقة. هذا من مستلزمات الرحلة. اعتاد آخرون أن يقوموا بذلك.

- لكن لمَ لم تخبرني، أو لم تصطحبني معك؟

لم يجد ميهاي ما يقوله. أبدى امتعاضاً واندسّ في سريره كي يخلد للنوم، وقد تجاذبته أسوأ الأحاسيس. فكّر: ألهذا الحدّ يعجز هذا الزواج عن استيعابي؟ ألهذا الحدّ لا فائدة تُرجى من أيّ تفسيرٍ أو شرح؟ وللحقيقة، حتى أنا لم أستوعبه.

- ٢ -

لكن أرجي لم تنم. ظلّت طويلاً مستلقية مقطّبة الجبين، شابكةً ذراعيها تحت رأسها، واستغرقت في التفكير. النساء على العموم أكثر تحمّلاً للسهر والتفكير. لم يفاجئ أرجي أن يسلك ميهاي مثل هذا السلوك، أو أن يتلفّظ بما تعجز عن فهمه. لقد نجحت لفترة من الزمن أن تخفي عجزها عن فهمه. وتحلّت بالحكمة فلم تمطره بالأسئلة، وقامت بكلّ ما يجعلها تبدو كأنها حريصة بطبيعتها على كلّ ما يربطها بميهاي. أدركت أن هذه الخصلة الزائفة الصموت التي يظنّها ميهاي حكمة نسائية فطرية موروثة هي الوسيلة المثلى للحفاظ عليه. كان ميهاي مترّعاً بالمخاوف، وكان دور أرجي أن تزرع فيه الطمأنينة. لكن لكلّ شيء حدوده، إضافة إلى كونهما أصبحا زوجين، ويقضيان الآن رحلة شهر العسل بكلّ معنى الكلمة، فمن الشذوذ إذاً أمام هذه الحقيقة أن يظل ساهراً طوال الليل بعيداً عنها. خطرت لها للحظة ما تراود النساء عادة من أفكار: لعلّ ميهاي أمضى ليلةً بصحبة امرأة أخرى، لكنها سرعان ما نفت مثل هذا الظن المستحيل. وبصرف النظر عن هذه البذاءة المطلقة، أدركت جيداً مقدار ما يتمتّع به ميهاي من حياءٍ وحذر إزاء كلّ امرأةٍ مجهولة، وكم يخشى الأمراض، ويحرص على النقود، وإلى أيّ درجةٍ متدنّية تهمّه النساء.

ومع ذلك، كم كان سيهدّئ من روعها، ويبعث فيها الطمأنينة، لو تعرف أن ميهاي كان مع امرأة حقاً! كان هذا الشكّ سيتلاشى، وتتلاشى معه هذه الظلمة الجوفاء المطلقة، وتنتفي الظنون: أين، وكيف أمضى ميهاي ليلته؟ تذكّرت زوجها الأول، زولتان باتاكي، الذي تخلّت عنه لأجل ميهاي. كانت أرجي تعرف، ودائماً في الوقت نفسه، من كان يصادق من الفتيات ضاربات الآلة الكاتبة. في حين كان زولتان يتحاذق على نحو منغّض ومُخجِل، وكلّما ازداد حرصه مع مرور الوقت على أن يخفي سرّاً ما، ازدادت أرجي علماً بكلّ أمر. لكن ميهاي كان يفعل العكس. كان رفيع الوجدان، وشفّافاً يسعى إلى إيضاح كلّ حركة من حركاته، وكان شغوفاً، كلّ همّه أن تعرفه أرجي تمام المعرفة، وكلّما زاد من إيضاحاته، وشفافيته أضحت المسألة أكثر تعقيداً. أدركت أرجي منذ زمنٍ طويل أنها لا تفهم ميهاي، لأن لميهاي أسراره الغامضة التي لا يفصح عنها حتى لنفسه. إضافة إلى أن ميهاي لا يفهم أرجي، لأن من طبيعته ألا يكترث بما يخفيه الآخرون، فلا تهمّه دخيلة أيّ إنسان آخر سوى نفسه.

ومع ذلك فقد تزوّجا بعد أن توصّل ميهاي إلى نتيجةٍ قاطعة، وكان على يقين من أن أحدهما يفهم الآخر كلّ الفهم، وأن زواجهما مبنيّ على دعائم عقلانية وطيدة، وليس على تربةٍ واهية من العواطف الزائلة. إلى متى يمكن الحفاظ على هذا الخيال؟

- ٣ -

بعد بضعة أيام وصلا مساءً إلى راڤينا. وفي اليوم التالي استيقظ ميهاي باكراً، ارتدى ثيابه، ومضى. أراد أن يشاهد، وحده، الموزاييك البيزنطي الذائع الصيت، وأهمّ المعالم التي

تشتهر بها راڤينا، بعد أن بات يدرك الآن أن هناك الكثير من الأمور الخاصة التي لا يمكن أن تشاطره أرجي القيام بها. وهذه منها: كانت أرجي تفوقه ثقافةً، واستجابةً، في تاريخ الفن، وكانت قد زارت إيطاليا وطافت فيها، الأمر الذي حفّزه ليوكل إليها في العموم، تحديد ما سيشاهدانه، ويصغي لرأيها في ما يشاهدان، لأنه لا يكترث باللوحات إلا نادراً، ومن قبيل المصادفة، وبلمح البرق، ولوحة واحدة من بين كلّ ألف لوحة. أما الموزاييك الراڤيني فأمرٌ آخر... آثار تتعلّق بماضيه الخاص.

في فترةٍ من الفترات شاهد هذه الآثار برفقة أرفين، وتاماش أولبيوش، وإيڤا، أخت تاماش الصغرى، في كتابٍ فرنسيّ ضخم. كان ذلك في منزل أولبيوش، وفي أمسية من أماسي عيد الميلاد. شاهدها بتوتّر وخشية لا سبيل لتفسيرها. كان والد تاماش أولبيوش يذرع الغرفة المجاورة وحيداً جيئةً وذهاباً. وكانوا هم يشاهدون اللوحات مستندين بمرافقهم على الطاولة، وكانت خلفيات اللوحات الذهبية تومض على وجوههم وكأنها منبع يشعّ الضوء، في أعماق منجم. وكان ثمّة في اللوحات البيزنطية، ما أيقظ الرهبة الهاجعة في أقصى أعماق أرواحهم. تلفّعوا بمعاطفهم عند الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً، وانطلقوا بقلوب متجمّدة هلعة إلى قدّاس منتصف الليل. أغمي آنذاك على إيڤا، وكانت هذه أولى الحالات التي تلحق أذىً بأعصابهم. ومنذ تلك اللحظة، على مدى شهرٍ بطوله، كانت راڤينا تمثّل لهم كلّ شيء، وقد بقيت راڤينا حتى هذا اليوم تمثّل في نفس ميهاي نوعاً من أنواع الخوف الغامض العصيّ على التفسير.

تذكّر كلّ ذلك وهو يقف في كاتدرائية سان فيتاي أمام الفسيفساء، وأنغامها الخضراء البديعة التي جعلته كثافتها الشديدة يشعر بالدوار، فاستند على أحد الأعمدة. لكن حالته

هذه لم تدُم إلا لحظاتٍ عاد بعدها إلى اتخاذ هيئة الرجل الرصين، وثبت عليها ولم يعد يكترث بما تبقى من فسيفساء.

رجع إلى الفندق، وانتظر أرجي أن تهيِّئ نفسها ليبدأا معاً مناقشةً بارعة لكلّ ما شاهده. لم يذكر ميهاي، بالطبع، أنه كان صباح اليوم في سان فيتالي، بل تسلّل بشيء من الحياء إلى داخل الكنيسة، خشية أن يفضحه شيء ما.

في مساء اليوم التالي جلسا أمام مطعم البيتزا. تناولت أرجي البوظة، وجرّب ميهاي نوعاً مجهولاً من أنواع النبيذ المزّ الذي لم ينل رضاه، وراح يفكّر بطريقةٍ يتخلّص فيها من مذاقه.

قالت أرجي: «رائحة كريحة. الرائحة نفسها أينما اتجهت في هذه المدينة. هكذا أتصوّر الهجوم بالغاز».

فقال ميهاي: «لا داعي للاستغراب. لهذه المدينة رائحة الجثث. راڤينا مدينة منحطّة، تخفس باستمرار منذ آلاف السنين. كما يرد في دليل باديكر. مرّت بثلاثة عصورٍ مضيئة، كان آخرها في القرن الثامن الميلادي».

فقالت أرجي بدعابةٍ وهي تبتسم:

- يا لك من حمار! لا تفكّر إلا بالجثث ورائحة الجثث، في حين أنّ هذه الرائحة الكريهة تأتي من الحياة نفسها. مصدرها الحياة الطيّبة. هذه الرائحة يسبّبها مصنع السماد، الذي تتعيّش منه راڤينا بأسرها.

- هل تعيش راڤينا من صناعة السماد، وهي المدينة التي أقيم فيها ضريحا كلٍّ من دانتي وتيودور الأكبر؟ تعتبر مدينة

البندقية محدثة النعمة إذا ما قورنت بها.

- أجل، يا صديقي!

- حماقة!

في هذه اللحظة، وصلت دراجة نارية بصوت هادر إلى أمام مطعم البيتزا، يركبها شخص يتقنّع بنظّارة، ويرتدي زيّاً يميّز راكبي الدراجات النارية. قفز عنها كما يترجّل عن ظهر جواد، وجال بعينيه في المكان حتى لمح ميهاي وزوجته، فجاءهما على الفور، يقود دراجته النارية كجوادٍ إلى جانبه. وحين صار على مقربة من الطاولة رفع نظارتيه، كما يرفع قناعاً عن وجهه، وقال:

- مرحباً يا ميهاي. أبحث عنك.

كان الأمر مباغتاً، فعرف ميهاي أنه يانوش سبتنكي، وما كان بوسعه أن ينطق بشيء آخر سوى أن يسأله:

- كيف عرفت أنني هنا؟

- من الفندق في البندقية. قالوا إنك في راڤينا. وأين للمرء أن يكون في راڤينا بعد العشاء سوى في مطعم بيتزا؟ لم يكن أمراً شاقاً. من البندقية إلى هنا مباشرة. سأجلس قليلاً.

قال ميهاي بامتعاض:

- إم... سأقدّمك لزوجتي. أرجي! هذا هو السيد يانوش سبتنكي زميل الدراسة الذي... أظنّ أنني لم أحدّثك عنه حتى الآن.

كان ميهاي يتحدّث بعصبية، ثم شعر بالحياء.

رمق يانوش أرجي بنظرة مشوبة بكراهية. انحنى، وصافحها، ثم تجاهل بعد ذلك وجود تلك المرأة. لم ينبس بكلمة سوى أن أوصى على الليموناضة.

بعد وقتٍ طويل بادر ميهاي بقول:

- هات، حدِّثني! لا بدّ أن هناك سبباً يجعلك تقصدني هنا في إيطاليا.

- سأخبرك في ما بعد. أردت أن أراك بالدرجة الأولى لأني سمعت أنك تزوّجت.

- ظننت أنك ما زلت غاضباً مني.. كان لقاؤنا الأخير في السفارة المجرية في لندن، وأنت حينذاك غادرت القاعة -وحين لاحظ أن يانوش لا يردّ، استأنف كلامه- أما الآن فليس هناك من سببٍ يدعوك للغضب. يغضب المرء. كلّ امرئٍ معرَّضٌ للغضب، لكنّه ما يلبث أن ينسى بمرور عقود من الزمن.

- تتحدّث وكأنك تعرف سبب استيائي منك.

- طبعاً أعرف! - قال ميهاي واكتسى وجهه حمرةً.

- قُل، إن كنت تعرف! - قال سبتنكي بنبرة مجابهة.

- لا أرغب في ذلك هنا... أمام زوجتي.

- لا يزعجني الأمر. تشجَّع وقُل. ماذا تعتقد؟ لمَ لم أتكلّم معك في لندن؟

- لأنني ظننت أنك سرقت ساعتي الذهبية. لكني الآن صرت أعرف من الذي أقدم على سرقتها.

- ترى كم أنك حمار. أنا سرقت ساعتك الذهبية!

- أنت إذاً من سرقها حقاً؟!

- طبعاً أنا.

تململت أرجي في مكانها، وقد تملّكها الاضطراب، فقد قرأت على وجه يانوش، ولاحظت على يديه، أنه من أولئك الأشخاص الذين اعتادوا سرقة ساعة يدوية كل فترة، فتوتّرت، واحتضنت حقيبتها التي تحتوي جوازي السفر والشيكات السياحية. لقد فاجأها وأزعجها كثيراً أن يُقدم ميهاي، اللّبِق في العادة، على ذكر قضية الساعة، لكن هذا الصمت المرين الآن، كان غير محتمل، هذا الصمت، حين يقول أحدهما للآخر إنك سرقت الساعة الذهبية، ثم ينصتان. نهضت، وقالت:

- سأعود إلى الفندق. لدى السيّدين ما يتكلّمان به.

رمقها ميهاي بنظرة غاضبة قائلاً:

- ابقي هنا. أنت زوجتي، وصار كلّ شيء يخصّك.

ثم التفت نحو يانوش سبتنكي، وصرخ:

- لمَ إذاً لم تمدّ لي يدك في لندن؟

- تدرك السبب جيّداً. لو أنك لا تعرف، لما كنت الآن بهذه الحدّة. تعلم جيداً أنني محِقّ.

- تكلَّمْ بطريقة معقولة!

- هذا هو مفهومك للأمور. لا أن تفهم الآخرين كما تلمس منهم، لا أن تعثر على أولئك الذين اختفوا من أمامك، أولئك الذين لم تبحث عنهم. لهذا السبب غضبت منك.

صمت ميهاي للحظات.

- لكنك أردت ان تقابلني... نحن أصلاً نلتقي في لندن.

- أجل. لكننا نلتقي مصادفة. هذا لا يهمّ. على أيّ حال، أنت تعرف أن الموضوع ليس بخصوصي.

- إن كان بخصوص آخرين... لم يكن مجدياً أن أبحث عنهم.

- لكنك لم تبحث عنهم، أليس كذلك؟ ربما ما كان عليك سوى أن تمدّ يد المساعدة. ما زال لديك الفرصة، اسمعني! أظنّ أنني وجدت أرفين.

تبدّل وجه ميهاي على الفور. وأتاح الغضب والصدمة مكانهما للفضول المتهلّل، المرحِّب.

- لا تقُلها! أين هو؟

- لا أدري بعد بدقّة، لكنه في إيطاليا، في أحد أديرة أومبريا أو توسكانا. رأيته في روما سائراً في موكب مع العديد من الرُّهبان. لم أذهب إليه، فلم أشأ أن أربك الطقوس. لكن قسّاً أعرفه هناك أخبرني أن هؤلاء الرهبان من أحد الأديرة. هذا ما أردت أن أقوله لك. وما دمت الآن في إيطاليا، أرجو أن تساعدني في العثور عليه.

- أجل. شكراً. لكنني لا أدري ما إن كنت سأساعدك. لا أدري ما الوسيلة، ثم إنني الآن في رحلة شهر عسل، فلن أتمكن من زيارة كلّ أديرة أومبريا وتوسكانا. كما أنني لست على يقين من أن أرفين راغب في لقائي. لو كان يريد أن يراني، لكان أخبرني عن مكان وجوده. والآن ارحل، يا يانوش سبتنكي! آمل أن أراك بعد سنوات!

- سأذهب. زوجتك امرأة كريهة.

- لم أسألك رأيك.

نهض يانوش سبتنكي إلى درّاجته.

«ادفع ثمن الليموناضة». صاح، وغاب في الظلمة التي أغرقت المكان.

بقي الزوجان حيث هما، وظلّا صامتين طويلاً. كانت أرجي كدِرة، لكنها في الوقت نفسه وجدت الحالة مدعاةً للضحك. زملاء الدراسة، إذا ما التقوا مصادفةً. يبدو أن ميهاي يفهم بعمق هذه الأمور المتعلّقة بفترة الدراسة. لا بدّ من سؤاله ذات يوم مَن يكون أرفين، ويانوش هذان... كم هما كريهان! لم تكن أرجي على العموم تحبّ الشبّان وأنصاف المؤهلين.

لكن ما نكّد عليها، كان شيئاً مختلفاً تماماً. لقد ضايقها بالطبع أنها لم تنل إعجاب يانوش سبتنكي بقدرٍ كافٍ. ليس لما يتمتّع به من رأي أحد مثل هذا الشخص، مثل هذا الوجود المشكوك فيه، لكن مع ذلك فليس ثمّة، بالنسبة لامرأة، شيءٌ أكثر أهمية من آراء أصدقاء زوجها، الرجال في غاية المقدرة على التأثير إذا كان الأمر يتعلّق بامرأة. صحيح أن يانوش سبتنكي هذا

ليس صديقاً لميهاي، أو ليس صديقه بالمعنى التقليدي للكلمة، لكنهما كما يبدو على علاقة وطيدة. وعلى أيّ حال، فإن بوسع أقذر الرجال أن يؤثر في رجل آخر، حيال مسائل كهذه.

- فليأخذه الشيطان! لمَ لم أعجبه؟!

ثم إنّ أرجي أصلاً ليست معتادة على مثل ذلك. كانت امرأة لافتة، أنيقة، جميلة، ثريّة، وجدها الرجال جذّابةً، أو محبّبة على الأقل. كانت تدرك أن أحاديث كلّ الرجال عن أرجي وقيمتها، قد لعب دوراً مهمّاً جدّاً في تعلُّق ميهاي بها، حتى إنها كثيراً ما خالجها الظن بأنّ ميهاي لا ينظر إليها بعينه هو، بل بعيون الآخرين. كأنما يقول لنفسه: «كم كنت سأحبّ أرجي هذه، لو أني كنت مثل الآخرين!»، والآن، يأتي هذا القوّاد، ولا تحظى هي بإعجابه، والطامّة الكبرى أنه لم يحتمل إلا أن يصرّح بذلك.

- قل لي أرجوك، لمَ لمْ أنل إعجاب صديقك النشّال؟

ابتسم ميهاي.

- رجاءً. لستِ أنتِ من لمْ تنالي إعجابه. ما لم يعجبه هو أنكِ زوجتي.

- لماذا؟

- لأنه يفكّر أنني ارتكبت خيانة. خنتُ شبابي، خنتُ فترة شبابنا المشتركة. أهملت أولئك الذين.. وأنشأتُ علاقاتٍ أخرى في حياتي. لكن.. والآن ستقولين لي: لديك بعض الأصدقاء الجميلين. وأنا سأجيبك بأنّ سبتنكي ليس صديقي، لكن هذه الإجابة ستبدو تملّصاً من السؤال. لكن.. كيف سأعبّر لك.. مثل

هؤلاء البشر حاضرون في حياتنا.. وسرقة الساعة كانت تمريناً طفولياً. بعدئذ صار سبتنكي محتالاً مرموقاً حصل على الكثير من المال، وعرض عليّ مبالغ مختلفة من النقود التي لم أتمكّن من سدادها له، لأني لم أعرف أين يتسكّع، وأُودِعَ السجن أيضاً، وكتب لي من مدينة بايا أن أرسل له خمسة بنغوات(*). وكان يظهر بين حينٍ وآخر، ويتحدّث بأمور مزعجة. أريد أن أقول إن مثل هؤلاء البشر حاضرون في حياتنا. إن لم تكوني تعرفين ذلك، ها قد أخبرتك. لكن قولي رجاءً، هل يمكننا الحصول هنا على زجاجة نبيذ نحتسيها في غرفتنا؟ لقد سئمت الحياة العامة بين الناس في مطعم البيتزا.

- ستحصل عليها في فندقنا، إنه مطعم كذلك.

- أليس فضيحة أن نحتسي النبيذ في غرفتنا؟! هل الأمر مسموح؟

- ميهاي! خوفك هذا ستصطحبه إلى القبر. كم يخيفك النُّدُل وعمّال الفنادق!

- شرحت لك الأمر في السابق. قلت لكِ إنهم أكثر الناس انضباطاً في العالم. وأنا لا أريد أن أفعل شيئاً مخالفاً للقواعد، وخاصة في الخارج.

- حسناً. لكن لمَ يتحتّم عليك أن تُكثِر من الشراب؟

- يجب أن أشرب. لا بدّ من ذلك، لكي أروي لك كيف لقي تاماش أولبيوش حتفه.

يتحتّم عليّ أن أحكي لك ما حصل من أحداثٍ ماضية لأهميتها البالغة. أحداث وقعت في ماضٍ بعيد جداً. وما دمت لا تعلمين بها، ستبقين إذاً، لا مؤاخذة، مجرّد دخيلة في حياتي.

في فترة الثانوية كان التجوال أهمّ تسلياتي. دعينا نطلق عليه تسكّعاً، تسرّباً من المدرسة. نتحدّث عن مراهق، وهذه أدقّ كلمة. اكتشفت سائر أنحاء بودابست ناحيةً ناحيةً. وكان لكلّ ناحية على حدة، لكلّ جانب من شارع، وقعه الخاص في نفسي. على أيّ حال، ما زال بوسعي أن أمضي وقتاً ممتعاً في مشاهدة المنازل، كما كنت في ما مضى. لم أشِخ. البيوت تقول لي الكثير الكثير. تعني لي كما كانت الطبيعة، أو كلّ ما كانوا يسمّونه طبيعة، تعني للشعراء في السابق. وكانت القلعة في بودا أكثر ما أحببت. لم أملّ أزقّتها القديمة. حتى في تلك الفترة، كانت الأشياء القديمة أكثر جاذبية لي من الحديثة. كانت تتمتّع في نظري بواقعٍ أعمق تأصّلت فيه حياة الكثيرين من البشر وأبقاها الماضي حيّة. مثال على ذلك قلعة ديڤا العالية التي عاشت فيها زوجة كاليمان البنّاء(**).

ألا ترين كم أجيد التعبير عن نفسي؟ ربّما من تأثير نبيذ سانغيوفيسي الفاخر.

رأيت تاماش أولبيوش في القلعة مرّاتٍ عدة، لأنه كان يسكن هناك. وهو أمرٌ كان بحدّ ذاته مشوباً بالرومانسية في نظري، لكن ما أعجبني فيه أيضاً، كان حزن وجهه الأميريّ الكسير، وأشياء عدّة أخرى. كان لطيفاً للغاية، ملابسه داكنة، لم يصادق زملاء صفّه، وأنا من بينهم.

والآن عليّ أن أتكلّم عن نفسي مجدّداً. لقد عرفتِني على الدوام ذلك الفتى الجسماني العريض المنكبين، الجادّ، صاحب الوجه

الهادئ الصقيل الذي يسمّيه البودابستيّون: الوجه القصديري. وتعرفين أنني نعسان في أغلب الأوقات. لكنّي، من فضلك، كنت شخصاً مختلفاً في فترة الثانوية. أريتُك صورتي الفوتوغرافية آنذاك، ولاحظت كم كان وجهي نحيلاً، توّاقاً، قلقاً، ذا مسحة متأملة حالمة. أظنّني كنت بشعاً بما فيه الكفاية، لكني مع ذلك، أحبّ وجهي ذاك أكثر. تخيّلي -يا رعاك الله- ما يناسب ذلك الوجه من جسد مراهق، تخيّلي صبيّاً نحيلاً، مُنحنيَ الظهر لسرعة النمو، شخصاً جائعاً فارع الطول.

على هذا الأساس لك أن تتخيّلي أنني لم أكن فتىً معافى لا جسدياً، ولا روحياً. كنت مصاباً بفقر الدم، يلفّني ما لا يحصى من أنواع الكآبات الرهيبة، وفي سنّ السادسة عشرة، بعد إصابتي بذات الرئة، كانت تراودني نوباتٌ من الهلوسة. وحين كنت أقرأ، غالباً ما كنت أشعر أن أحداً يقف وراء ظهري وينظر ماذا أقرأ في الكتاب، فكنت ألتفت إلى الخلف لأتيقّن أن لا أحد هناك. وفي الليل كنت أفيق مرعوباً لوقوف أحدهم قرب سريري، ينظر إليّ. بالطبع لم يكن هناك أحد. وكنت أخجل من نفسي على الدوام. وأصبحت حالتي في الأسرة لا تطاق بسبب خجلي الدائم. كنت أكتسي بالحمرة في فترة الغداء، وفي فترة ما، صارت أتفه الأمور تجعلني أشعر أنني لتوّي سأنفجر بالبكاء. عندئذٍ أغادر الغرفة. تعلمين مدى اللطافة التي يتمتع بها والداي. لك أن تتخيّلي حالة الغضب والذهول التي حلّت بهما، وكم كان شقيقي الأكبر وأديت يحتقرانني. حتى وصل بي الأمر أن أكذب وأقول إنّ عليّ حضور حصة لغة فرنسية خاصة في المدرسة، فتسنّى لي بذلك أن أتناول غدائي أبكر من الجميع. وشيئاً فشيئاً، لاحقاً، صاروا يضعون وجبتي من العشاء جانباً. ثم من جملة ما لحق بي من أعراض مرضية: الهوَة. أجل الهوَة. كنت، بين حينٍ وآخر، أحسُّ بأن الأرض تنشقّ إلى جانبي،

وأنني أقف على طرف دوّامة رهيبة. لكن لا تأخذي كلمة هوّة بمعناها الحرفي، لأني لم أرَ قطّ هذه الهوّة، ولم يمثُل أمامي شبحٌ لها، كلّ ما هنالك أنني عرفت أن هناك هوّة. بل عرفت أيضاً أنه لا وجود لها هناك إلا في تصوّري. تدركين مدى تعقيد هذه الأمور. الحقيقة الأكيدة هي أنني حين استحوذ عليّ إحساس الهوّة - الدوّامة لم أجرؤ على التحرّك، ولم أقوَ على التلفُّظ بكلمة، وكنت أظنّ أنها نهايتي.

لكنّه إحساسٌ لم يستمرّ طويلاً، ولم يكن كثيفاً في تكراره. وذات مرّة في حصة الجغرافيا، وكان أمراً شديد الإزعاج، انشقّت الأرض إلى جانبي حين دُعيت للإجابة. لكنّي لم أتزحزح من مكاني وبقيت حيث أنا. ظلّ المعلّم يناديني لبعض الوقت، وحين رأى أنني لا أتحرّك، نهض وجاء إليّ.

«ما خطبك؟» سألني، فلم أُجبه طبعاً. رمقني لحظة وعاد إلى المنبر ودعا تلميذاً آخر. كان يتمتّع بروحٍ بابوية رقيقة، فلم ينبس بحرف واحد عن الحادثة. فيما راح زملائي يثرثرون كثيراً حولها. ظنّوا أنني لم أخرج إلى المنبر بدافع المشاغبة، والتحدّي، وأن المعلّم قد خشيني، فصرت شهيراً وذاع صيتي في سائر المدرسة. وبعد أسبوع قام معلّم الجغرافيا باستدعاء يانوش سبتنكي للتسميع. هو يانوش سبتنكي الذي رأيته هذا اليوم. تقنّع سبتنكي بوجهه المغامر إلى أقصى حدّ، وظلّ جالساً في مكانه. نهض المعلّم وذهب إلى سبتنكي، وكال له صفعة شديدة. ومن ذلك اليوم صار سبتنكي على قناعة بأنني أمتلك إيحاءً تأثيرياً هائلاً.

لكن، لنتكلّم الآن عن تاماش أولبيوش. حين هطل الثلج للمرة الأولى في ذلك العام، كنت أترقّب بفارغ الصبر أن ينتهي دوام

المدرسة، وأتناول غدائي، لكي أسارع حالاً للصعود إلى القلعة، لأن الثلج شغفي العظيم، وأرجاء المدينة مختلفة تماماً في الثلج الذي يجعل المرء يتوه بين الشوارع المعروفة. تسكّعت طويلاً، ثم خرجت إلى ممشى القلعة، وحدّقت نحو جبال بودا. وفجأةً، انشقّت الأرض بالقرب مني. كانت الهوّة معقولة هذه المرة، لأنني أقف أساساً على مرتفع، إضافة إلى مروري من قبل بهذه الحالة، فلم أرتعد بدرجة كبيرة، بل إن شيئاً من البرود قد اعتراني، وشعرت أن الأرض ستلتئم من جديد، وستزول الهوّة. انتظرت قليلاً، ليس بوسعي أن أحدّد كم انتظرت من الوقت، لأن المرء في مثل هذه الحالات يفقد إحساسه بالزمن، كما يحصل في الأحلام، أو عند ممارسة الحب. لكن المؤكّد أن هذه الهوّة دامت أكثر من سابقاتها. عمَّ الظلام، وما تزال الهوّة قائمة. قلت لنفسي: «هوّة عنيدة هذا اليوم». وعندئذٍ لاحظت مذعوراً أن الهوّة تتنامى، وأنني لا أبعد عن حافتها إلا نحو عشرة سنتمترات، وأنها تقترب شيئاً فشيئاً من قدميّ. دقائق قليلة على نهايتي، سأسقط فيها. تشبّثت متشنّجاً بالسياج.

وصلت الهوّة إلي، انزلقت الأرض من تحت قدميّ، وتأرجحت في الفراغ، ممسكاً بالسياج الحديدي. قلت لنفسي: «ما إن تكلّ يداي حتى أهوي». ثم سلّمت أمري وبدأت أصلّي مستعدّاً للموت.

واستعدت وعيي، وكان تاماش أولبيوش يقف إلى جانبي.

«ما خطبك؟!». سألني، ووضع يده على كتفي.

اختفت الهوّة في تلك اللحظة، وكدت أن أقع أرضاً لو لم يمسك بي تاماش. أسندني على مقعد، وانتظر حتى أستريح. وحين تحسّنَتْ حالتي رويت له قصة الهوّة للمرة الأولى في حياتي. لا

أستطيع أن أقول لك كيف حصل الأمر. خلال لحظات صار تاماش أفضل أصدقائي. ذلك الصديق الذي يحلم به الصبيان المراهقون ليس بأقلّ كثافة، لكن بأعمق، وأكثر جدّية من أحلامهم بالحبيبة الأولى.

في تلك الآونة كنّا نلتقي يومياً. لم يرغب تاماش بالقدوم لزيارتي، لأنه لا يحبّ أن يقدّم نفسه في بيتنا، في حين لم يمضِ وقتٌ طويل حتى دعاني لزيارته. وهكذا دخلت إلى منزل أولبيوش.

سكن والداه في الأعلى، في منزلٍ متداعٍ جدّ قديم. لم يكن المنزل متداعياً وعتيقاً إلا من الخارج، لكنه من الداخل كان في منتهى الجمال والدفء شأن هذه الفنادق الإيطالية القديمة. إلا أنه لاعتبارات مختلفة، كان شبحيّاً بغُرَفه الكبيرة وأثاثه الخشبي. كان أشبه بمتحف. لأن أبا تاماش أولبيوش كان عالم آثارٍ ومدير متحف. أما جدُّه لأبيه فكان ذات يوم ساعاتياً، كان حانوته في المنزل نفسه. لكنّه الآن بات يتسلّى من باب الاجتهاد الخاص بالساعات القديمة، وبما اخترعه هو من أنواع الألعاب الساعاتية.

ولم تكن أمُّه على قيد الحياة. وكان تاماش وشقيقته الصغرى يمقتان والدهما، واتّهماه بأنه قضى على أمهما بكآبته الباردة، حين كانت في ريعان صباها. وهذه أولى المعايشات التي أذهلتني في بيت أولبيوش، منذ أول زيارة له. قالت لي إيڤا عن أبيها إن عينيه كخرزتين، وكانت محقّة تماماً، وقال تاماش بنبرة طبيعية إلى أقصى الحدود: «لأن أبي، كما تعلم، مخلوقٌ بشع جداً». وكان محقّاً أيضاً.

أنا، كما تعلمين، ترعرعت ضمن أسرة متفاهمة، وكنت أحبّ والديّ وأخويّ كثيراً، وبلغت محبّتي لأبي حدّ العبادة، وما كان في تصوّري أن البنين لا يحبّون الآباء، أو أن يُقدم الأبناء على الحكم على آبائهم كما يحكمون على الغرباء. وكان ذلك أول شغبٍ بدائيّ كبير واجهته في حياتي. وكان هذا الشغب محبّباً إلى قلبي بطريقةٍ غريبة. وما كان في تصوّري قطّ أن أتمرّد على أبي.

لم يكن بوسع تاماش أولبيوش أن يحتمل أباه، لكنه في الوقت نفسه كان يكنّ حباً شديداً لجدّه، وشقيقته الصغرى. لقد أحبّ أخته حتى بدا ذلك تمرّداً. أنا كذلك أحببت أخي وأختي، ولم أتشاجر معهما احتراماً للتماسك الأسري، الذي أخذت به على محمل الجدّ، على قدر ما أتاحت طبيعتي الغريبة القلقة. لكن العادة عندنا أن من غير اللائق أن يُظهر الأشقاء محبّتهم كلٌّ منهم للآخر، وكنا نعتبر أيّ مظهر من مظاهر الرقّة في ما بيننا شيئاً مضحكاً، بل مدعاةً للخجل. أظنّه أمراً يشمل أغلب العائلات. في عيد الميلاد لم يقدّم أحدنا هديةً للآخر، وإذا ما خرج أحدنا من البيت، أو عاد إليه، لا يُلقي التحية على الآخرين. وفي أثناء سفرنا كنا لا نرسل بطاقات التقدير البريدية إلا لوالدينا، ونذيّلها هكذا: «تحيّاتي لبيتر، ولاتسي ولأديت، وتيڤادار». أما عائلة أولبيوش فكان لها شأنٌ مختلف تماماً. كان لكلٍّ من الشقيقين مجاملاته الزخرفية حيال الآخر، ويودّع كلٌّ منهما الآخر بالقبلات، حتى لو خرج أحدهما لساعةٍ واحدة فقط. وكما علمت لاحقاً أن كلّاً منهما كان يغار على الآخر، وهو السبب الذي جعلهما لا يصادقان الآخرين.

كانا معاً ليل نهار. أقول حتى في الليل لأنهما أقاما في غرفة واحدة. وهو الأمر الأكثر غرابةً في نظري، لأن أختي أديت قد

فُصِلت عنا، نحن الصبيان، في سنّ الثانية عشرة. ومنذ ذلك الحين صار لديها جناحٌ أنثويّ يقصدها إليه صديقات وأصدقاء لا نعرفهم يقدّمون تسليات متنوّعة تُضحكنا من الأعماق. لكن أكثر ما شغل مخيّلتي المراهقة أن إيڤا وتاماش يقيمان معاً في غرفة واحدة. لقد تصوّرته سبباً يلغي فارق الجنس بينهما. ونظرت إليهما على أنهما خُنثيّين. كنت أحدّث تاماش بنعومةٍ كما هو مألوف مع الفتيات. أمّا أمام إيڤا فلم أشعر بتلك الحيرة المقرفة التي كنت أحسّها أمام صديقات شقيقتي أديت، المخلوقات المعترَف بهنّ رسمياً فتيات.

لم آلَف، إلا بمشقّة، حكايات الجدّ الذي كان يدخل بأغرب الملابس والقبعات إلى غرفة الأخوين، في أوج السهرة، وهما يمارسان فرحهما التقليدي الصاخب. لم أفهم في بداية الأمر ما يرويه، لأن العجوز كان يتكلّم الألمانية، بلهجة مقاطعة رايناڤيدك، لأنه جاء مهاجراً إلى المجر قادماً من كولن. لكنّني اكتشفت بعد مدّةٍ مذاق حكاياته. كان العجوز معجم بودابست القديمة الحيّ. وكان بالنسبة لي -أنا صديق العائلة- فوزاً بالجائزة الكبرى. استطاع أن يقصّ حكايات كلّ البيوت، وأصحابها، في منطقة القلعة، فاستحالت تلك المنازل، بعد أن كنت أعرفها بالرؤية فقط، شيئاً فشيئاً، إلى معارف شخصية حميمة لي.

أنا، أيضاً، مقتُّ أباهما، لم أذكر أننا تبادلنا الحديث ولو مرّة واحدة. كلّما رآني، غمغم شيئاً واستدار. كان تناول العشاء مع الأب معاناةً شاقّة بالنسبة للأخوين، في غرفة الطعام الواسعة. لم يجرؤ أيٌّ منهما أن ينبس بحرفٍ خلال العشاء. بل كانا يلزمان مكانيهما، ويقوم الأب بالسير جيئة وذهاباً في الغرفة المضاءة بمصباحٍ وحيد. حين يصل الأب إلى نهاية الغرفة

ويغيب في العتمة، يجدان فرصة للتكلّم معاً، فيرجع الأب ويسألهما بعدائية: عمَّ تتحدثان؟ لكنّه، لحسن الحظ، لم يكن في البيت لوقتٍ طويل. كان يرتاد الحانات الصغيرة وحيداً، ويجترع «البالينكا» حتى الثمالة كأسوأ البشر.

حين تعارفنا، كان تاماش يعمل على دراسة في التاريخ الديني. كانت الدراسة تحكي عن تساليه في سنّ الطفولة. لكنه عمل على موضوعه متّبعاً منهج تاريخ الدين المقارن. كانت دراسة مميّزة جداً لسببين: أولهما لأنها عمل في التاريخ الديني، وثانيهما، لأنها عمل في منتهى الجدّية بصفتها دراسة بحدّ ذاتها.

كان تاماش مثلي شغوفاً بالأمور القديمة، ولا شيء عنده يدعو للعجب: تراث أبويّ من جهة، ومنزلهم أشبه بمتحف من جهة أخرى. كان القِدَم من الأمور الطبيعية بالنسبة لتاماش، والمعاصر هو الغريب الذي يدعو للعجب. كان توّاقاً على الدوام لزيارة إيطاليا، حيث كلّ شيء قديم هناك، ويناسب تطلّعاته.

وها أنذا أجلس الآن هنا، وهو لم يلحق بي مطلقاً. شغفي بالأمور القديمة لا يتعدّى كونها متعةً سلبية، ورغبة فكرية بعد معرفة. في حين كان شغف تاماش فعلاً فنتازيّاً نشطاً.

يشخّص التاريخ على الدوام.

عليكِ أن تتصوّري أن حياة الأخوين كانت مسرحاً دائماً في منزل ألبيوش. commedia dell arte(***). كانت أتفه الأمور كافية ليقوم تاماش وإيڤا بتمثيل شيء، أو باللعب، على حدّ تعبيرهما. حكى الجدُّ عن بارونةٍ في القلعة كانت مغرمة بسائقها، وسرعان ما اتخذت إيڤا شخصية البارونة، وتاماش

شخصية السائق. وحين روى كيف أقدم الخدم الرومان على قتل ميلاث رئيس المحكمة العليا، تحوّلت إيڤا إلى رئيس المحكمة، وتاماش إلى الخدم الرومان، واستطالت المشاهد إلى مسرحيات تاريخية مأساوية أكثر تعقيداً. لقد مثّلا الوقائع بفصولٍ طويلة، كما تتطلّب commedia dell arte، وبأزياءٍ بسيطة من قطعة واحدة أو قطعتين من الملابس جاءا بهما من مستودع الجدّ المذهل الذي لا ينفد، وبدأا حوارهما الباروكي غير المسهَب، وصولاً إلى الشروع بالقتل، أو الانتحار. وإذا ما عدت بذاكرتي، فقد كانت مسرحياتهما كلّها تتّخذ منحىً واحداً، بحيث تصل نهايتها إلى تمثيل صور الموت العنيف. لا يمرّ يومٌ إلا ويقوم تاماش أو إيڤا بخنق الآخر، أو تسميمه، أو طعنه، أو قلْيه بالزيت.

لم يتصوّرا مستقبلهما إلا مرتبطاً بالمسرح، حين يدور الحديث عن مستقبلهما. تهيّأ تاماش ليكون كاتباً مسرحياً، وتهيّأت إيڤا لتكون ممثلةً عظيمة. لكنّ كلمة التهيّؤ ليست دقيقة تماماً، لأن تاماش لم يكتب الدراما، ولم يخطر لإيڤا حتى في أحلامها أن عليها ارتياد معهد التمثيل. لكنهما كانا يرتادان المسرح باهتمام أكثر. المسرح القومي فقط. كان تاماش يَقرف خشبة المسرح البسيطة، قرفَه من العمارة المعاصرة. كان ميّالاً لحضور المسرحيات الكلاسيكية، المليئة بالاغتيال، والانتحار.

ولكي يذهبا لحضور المسرح، كانا في حاجةٍ إلى النقود. ولم يكن والدهما، على حدّ علمي، يعطيهما مصروفاً. كانا يحصلان على القليل منه من الطبّاخة العجوز على حساب الاقتصاد المنزلي، أو من جدّهما الذي كان يجني المال من مصادر مجهولة هنا وهناك، وأظنّ من عمله ساعاتياً. لكن كل ذلك لم يكن كافياً لأخوين لإرضاء رغباتهما المسرحية.

كان على إيڤا أن تتدبّر أمر النقود. ولم يكن التلفّظ بكلمة نقود مسموحاً أمام تاماش. وكانت إيڤا على قدر المسؤولية. كانت واسعة الحيلة إذا تعلّق الأمر بالحصول على المال. كان بوسعها أن تبيع بثمنٍ باهظ كلّ ما يمكن بيعه من أغراضهما. وبين آونة وأخرى كانت تبيع من مقتنيات المنزل المتحفية، لكنّه كان أمراً محفوفاً بالمخاطر، بسبب أبيهما، وحتى بسبب تاماش لأنه كان حريصاً أشدّ الحرص على عدم فقدان أيّ غرضٍ قديم أليف.
وكانت إيڤا أحياناً تجري مبادلات عند الخضريّ، أو في محلّ الحلويات، أو في الصيدلية، وإن لم تُفلِح في أيٍّ منها بعض الأحيان، كانت تلجأ إلى السرقة. سرقت من الخادمة، وبجرأة قاتلة سرقت من أبيها، مستغلّةً حالة سكره. هذه كانت مصادر الدخل الأكثر ضمانة، والأكثر حفاظاً على النزاهة لاعتبارات معيّنة. لكنها نجحت ذات مرة في انتشال عشرة كورونات من صندوق الحلواني، كانت محطّ افتخارها. ومما لا شكّ فيه أنها احتفظت ببعض الحالات فلم تتكلّم عنها. وسرقتني أيضاً.
وحين لاحظت ذلك لاحقاً، واحتججت على فعلتها، فرضت عليّ ضريبةً مالية بدلاً من السرقة. فكان عليّ أن أدعم الأسرة ببعض المال أسبوعياً، من دون علم تاماش طبعاً.

هنا قاطعته أرجي: «جنون أخلاقي!».

أردف ميهاي:

- أجل، تماماً. مثل هذه المصطلحات مطمئنة جداً، وتمنح شيئاً من التبرئة. ليست نشّالة، بل مريضة عقلياً. لكن إيڤا لم تكن مريضةً عقلية ولا نشّالة. كل ما هنالك أنها لم تمتلك حسّاً أخلاقياً إزاء الأمور المتعلّقة بالمال. كان الأخوان أولبيوش خارج العالم، وخارج نظامه الاجتماعي والاقتصادي إلى حدّ

كبير، ولا فكرة لديهما كيف يجوز الحصول على المال، وكيف لا يجوز. لا وجود للمال بنظرهما. كلّ ما كانا يدركانه أن بوسعهما حضور المسرح مقابل هذه الأقراص الفضية، والقطع الورقية غير الجميلة جداً. وتلك المفاهيم مثل الميثولوجيا التجريدية الهائلة للمال، وأساس المشاعر الأخلاقية والدينية للإنسان المعاصر، وشعائر ضحيّة إله المال: «العمل النزيه»، التقتير، الرفاه، كلّها كانت مفاهيم مجهولة بالنسبة إليهما. أمورٌ كهذه تولد مع الإنسان، لكنها لم تولد معهما. عندئذٍ ينبغي أن يتلقّنها المرء في المنزل، مثلي أنا. لكن كلّ ما تعلّماه كان مقتصراً على ما رواه الجدّ عمّا دار في منازل القلعة.

ليس بمقدورك أن تتصوّري كم كانا يفتقران إلى الأسس، والقواعد، وإلى أيّ حدٍّ يشمئزّان من كلّ ما هو حقيقة ملموسة. لم يمسكا جريدة، ولا فكرة لديهما عما يحدث في العالم، ولم يكترثا حتى باندلاع الحرب العالمية. وتبيّن ذات مرة في أثناء استظهار الدرس في المدرسة أنّ تاماش لم يسمع بإشتفان تيسا(****). وحين سقطت برزميسل، وهي مدينة بولونية، ظنّ تاماش أن الحديث يدور عن جنرالٍ روسي، وعبّر بأدبٍ عن سعادته، وأوشكوا أن يوسعوه ضرباً. وحين تناقش الصبيان الأكثر ذكاء عن أدي أندره، وبابيتش(*****) كانت نظرة تاماش أن كلاً من طرفي النقاش يتكلّم عن جنرال. وحتى وقتٍ طويل ظنّ تاماش أن أدي جنرال.

كان الشبّان الأذكياء، والمعلّمون كافة، يعتبرون تاماش غبيّاً. وظلّت عبقريّته الخاصة، ومعرفته التاريخية، مجهولتين في المدرسة، ولم يؤسفه الأمر بتاتاً.

وبغضّ النظر عن كلّ اعتبارات أخرى، فقد اتخذا مكاناً خارج نظام الحياة المعتاد. ذات مرة عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، تذكّرت إيڤا أنها في الأسبوع الماضي قذفت بدفتر اللغة الفرنسية على جبل شقاب، فنهض الأخوان، وارتديا ملابسهما، وصعدا إلى جبل شقاب وتجوّلا حتى الصباح. وتغيّبَ تاماش ذلك اليوم عن المدرسة برباطة جأش ملكيّة. اختلقت له إيڤا وثيقة بتوقيع الجدّ أولبيوش. لم تكن إيڤا ترتاد المدرسة، ولم يكن لديها ما تنشغل به، لكنها كانت تجيد التنقّل وحدها كقطّة.

لا يزعجهما من أحد أن يقصدهما بزيارة في أيّ وقتٍ كان. يستأنفان حياتهما كأنما لا أحد هناك. حتى الزيارات الليلية مرحّب بها، غير أنني في مرحلتي الثانوية لم يتسنَّ لي ذلك بسبب الانضباط المتّبع في بيتنا، إلا بعد حضور عرضٍ مسرحيّ، ولوقتٍ قصير. وكنتُ أتخيّل أن النوم عندهما ممتع. بعد امتحانات الشهادة الثانوية غالباً ما بقيت هناك حتى الليل. قرأت لاحقاً في مقالة إنكليزية شهيرة أن السّمة الأساسية للكلث(******) هي التمرّد على طغيان الحقائق. من وجهة النظر هذه يكون الأخوان أولبيوش كلتيَّين. على هامش الحديث أقول إن تاماش وأنا صرخنا مهلّلين للكلت وهلّلنا لحكاية غرال، ولحكاية بارسيفال. لعلّي انسجمت معهما لأنهما مثلي. وجدت نفسي بينهما. اكتشفت لمَ شعرت أنني غريب وخجول في بيت الأهل. لأن الحقائق كانت طاغية، وفرضت سيطرتها هناك. استبدّت.

عند الأخوين أولبيوش عثرت على منزلي. قصدتهما كلّ يوم، وأمضيت معهما كلّ أوقات فراغي.

حين انخرطت في أجواء منزل أولبيوش، زال خجلي الدائم، وزالت معه أعراض العصبية. جاءتني الهوّة - الدوّامة للمرّة الأخيرة حين انتشلني منها تاماش أولبيوش، وصرت أنام بطمأنينة، ومنحتني الحياة ما انتظرته منها. وتعافيت جسدياً، وصَفَث ملامح وجهي. كانت تلك أسعد فترات حياتي، وإذا عملَت رائحةٌ ما، أو إضاءة ما، على إيقاظ ذكراها في نفسي، فإن فرحاً قصيّاً مدوّخاً يسري في جسدي حتى هذه اللحظة. الفرح الوحيد الذي عرفته.

وبالطبع لم يمنحاني هذا الفرح بالمجان. ولكي أشعر أنني وجدت بيتي في منزل أولبيوش. كان عليّ أن أنفصل عن عالم الحقائق والأمر الواقع. إما هذا، وإما ذاك: من المستحيل ممارسة حياة مزدوجة. تخلّيت عن مطالعة الجرائد، وابتعدت عن أصدقائي الأذكياء. وشيئاً فشيئاً صاروا ينظرون إليّ ويرونني شخصاً معتوهاً كتاماش، وآلمني ذلك كثيراً، لأني كنت مزهوّاً، وأعرّف عن نفسي أنني شابٌّ ذكيّ. ولكن لا نفع. كان عليّ أن أنفصل تماماً عن عاداتي العائلية، وصرت أكلّم والديّ وإخوتي برزانة، كما تعلّمت من تاماش. إن ذلك الانفصال الذي حصل بيننا آنذاك، لم أستطع أن أزيله مهما حاولت، ومن تلك الفترة أيضاً يخِزني ضميري، تجاه أسرتي. وحاولت في ما بعد أن أصحّح هذا الجفاء بالطاعة، لكنها حكاية أخرى.

لاحظ أفراد أسرتي ذاهلين التبدّلات التي طرأت على سلوكي، فعقدوا اجتماعاً عائلياً طارئاً في بيت عمّي، وقرّروا أنني في حاجة إلى امرأة. وفاتحني عمّي بالأمر مرتبكاً، وقد استخدم العديد من التعابير الموحية. أصغيت له باهتمام، لكنّي لم أُبدِ أيّ قدرٍ من الاستعداد، خاصة أننا -تاماش، وأرفين، ويانوش سبتنكي، وأنا- قد قطعنا عهداً أننا لا نطول امرأة، لأننا سنكون

فرسان غرال الجدد. وهكذا تنحّى موضوع المرأة جانباً، وتقبّل والدي حالتي كما أنا عليه. وصارت أمي تحذّر جميع المستخدمين المنزليين، والمعارف الجدد الذين يزورونا في البيت، أن يراعوا كوني لست شخصاً كعامة الناس. مع أنه -منذ سنوات عديدة- يتعذّر الإشارة حتى بالميكروسكوب إلى وجود أيّ شيء غير عادي يميّزني.

لست أدري ما هو ذلك التبدّل الذي لمسه والداي بمثل ذلك القلق. صحيح أن الأخوين أولبيوش تطلّبا من المرء أن يتكيّف معهما، وأنا تكيّفت بكلّ حميمية، وكنت سعيداً للأمر. تخلّيت عن التربية الصالحة. أعدت النظر في آرائي، وصرت أشمئزّ من بعض الأمور التي كانت تعجبني في ما سبق، مثل الجندية، وأمجاد ساحة المعركة، وزملاء الصف، والأطعمة ذات النكهات المجريّة، وكلّ ما قالوا عنه في المدرسة «خفيف الظل» أو «مستقيم». تخلّيت عن كرة القدم التي شغفت بها! وكانت المبارزة هي الرياضة الوحيدة المسموح بممارستها، فأوليناها -نحن الثلاثة- أكبر الاهتمام. قرأت كثيراً لأُجاري تاماش. وفي ذلك الوقت بدأ اهتمامي بالتاريخ الديني الذي تخلّيت عنه في ما بعد، في فترة الرشد والاستقرار.

ومع ذلك أنّبني ضميري تجاه الأخوين أولبيوش. شعرت أنني أخدعهما. فما كان عندهما حرية طبيعية، كان بالنسبة لي تمرّداً ثقيلاً منغّصاً. أنا مواطن مدنيّ بدرجة كبيرة، وهكذا نشأت في البيت كما تعرفين. كنت في حاجة شديدة إلى التنفّس، وصار قراري أن أنفض رماد السجائر على الأرض، إذ من المتعذّر على الأخوين أولبيوش أن يتخيّلا الأمر على شاكلة أخرى. وحين كنت أتّخذ أحياناً قراراً بطولياً بأن أرافق تاماش إلى المدرسة، كانت تنتابني آلام معديّة لا تفارقني طوال اليوم. طبيعتي:

الاستيقاظ باكراً، نعسان في المساء، وعند الظهر، ووقت العشاء أبلغ من الجوع حدّاً يجعلني أحبّ أن آكل من الطبق قبل أن أتناول حساء المعكرونة. أحبّ النظام وأخاف رجال الشرطة كثيراً. أما خصالي هذه، والكائن المواطن المحبّ للنظام الذي يتصرّف بما يمليه ضميره، فكان عليّ أن أبقيهما طيّ الكتمان أمام الأخوين أولبيوش. لا ريب في أنهما عرفا ذلك، وقد أبديا رأيهما في الأمر. لكنهما كانا يتغاضيان، ولا يكلّمانني بالأمر إذا بدر مني بين حينٍ وآخر ما يشير إلى النظام والتقتير.

أكثر الأمور مشقّةً بدأت حين تحتّم عليّ أن أشاطرهما ألعابهما. لا أتمتّع بأيّ موهبة تمثيلية، خجول جداً، أوشكت أن أفارق الحياة حين ناولاني عباءة الجدّ الحمراء لأشارك في إحدى مسرحيات «بورجيا» بدور البابا شاندور السادس. لكنني تعلّمتها في ما بعد. غير أنه لم يكن بمقدوري أن أرتجل نصوصاً باروكية جميلة، كما يفعلان. لكنني في مقابل ذلك برهنت أنني أجيد دور الضحية بامتياز. كان من الأسهل تسميمي، أو حتى حرقي بالزيت، وفي كثير من الأحيان لم ألعبْ إلا دور الجماهير التي تسقط ضحايا ضراوة إيقان الرهيب، وكان عليّ عندئذٍ أن ألهث، وأموت خمساً وعشرين مرة متتالية، وبطرقٍ مختلفة، وقد لاقت التقنية التي اتبعتها في لهاثي نجاحاً باهراً. وأجد من الضروري أن أخبرك -وإن كان يشقّ علي التكلّم بهذا الأمر حتى بعد هذه الكمية من النبيذ- فأنت زوجتي وينبغي أن تعلمي به: كنت أحبّ كثيراً أن أكون الضحية. كنت أفكر بذلك منذ الصباح، وأنتظره طوال اليوم، أجل.

- لمَ أحببتَ أن تكون الضحية؟ - سألت أرجي.

- همم... لأسباب شهوانية، إن كنت تفهمين ما أفكر فيه. في وقت لاحق اكتشفت تلك القصص التي يمكنني أن أكون فيها الضحية كما يروق لي. وعلى سبيل المثال (بدأت السينما توجّه الفانتازيا في ذلك الوقت): لنقل إنّ إيڤا فتاة من الأباتشي، كما تتحدّث الأفلام في ذلك الوقت، تغريني بالذهاب إلى قرية الأباتشي، وتسقيني هناك الكحول حتى أثمل، ثم ينهبونني، ويقتلونني. أو الفكرة نفسها في التاريخ الأكثر قدماً: تمثيل قصة يوديت وهولوفرنس. كنت أحبّ هذه القصة كثيراً. وأحبّ دور جنرال روسي، وإيڤا جاسوسة، تقوم بتخديري وتسرق مني الخطة الحربية. لكن تاماش معاون القائد الماهر يطارد إيڤا، ويسترجع السرّ، إلا أن إيڤا لم توقع به الأذى، أما الروس فيتكبّدون خسائر كبيرة. مثل ذلك تشكّل هناك خلال اللعبة. اللافت أن هذه الألعاب كانت تعجب تاماش أيضاً إعجاباً شديداً، وكذلك إيڤا. إلا أنني كنت أشعر بالخجل لأجلهما، وإلى الآن ما زلت أشعر بالخجل وأنا أتحدّث لتوّي عن الأمر. هما على العكس من ذلك. أحبّت إيڤا أن تكون تلك المرأة التي تخدع، وتشي، وتقتل الرجال، فيما كنّا -أنا وتاماش- نحبّ أن نكون ذلك الرجل الذي يتعرّض للخديعة، والوشاية، والقتل، أو الإذلال الشديد.

صمت ميهاي وشرب، وبعد لحظاتٍ سألته أرجي:

- قل لي! هل كنت مغرماً بإيڤا أولبيوش؟

- لا، لا أظن. لكن إن كنت مصرّة على أنني كنت مغرماً بأحدٍ ما، فهو تاماش. تاماش هو من كان مثلي الأعلى، أما إيڤا فلم تكن إلا إضافة ووسيلة شهويّة في تلك الألعاب. لكني حين أقول إنني مغرم بتاماش، لا أقولها برغبة، وسرور، لأنه تعبير يحتمل

سوء الفهم، وقد تظنّيننا على علاقة مِثلية مريضة، لكن المسألة لم تكن كذلك قط. كان أفضل أصدقائي بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى في سن المراهقة. لكن المرضيّ في المسألة أنها كانت، كما سبق أن قلت، عميقة، وذات طبيعة مختلفة.

- لكن قل لي يا ميهاي... أليس من العسير تصوُّر عدم نشوء غزلٍ بريء بينك وبين إيڤا، خلال وجودكما معاً لسنواتٍ من دون انقطاع؟

- لا، لم يحصل شيء.

- وكيف يمكن ذلك؟!

- كيف؟ لم يحصل وكفى... كنا على درجة من الحميمية بحيث لا يمكننا أن يغازل أحدنا الآخر، أو يغرَم أحدنا بالآخر. الحبّ يستوجب التنائي لكي يتمكّن العاشقان من التداني أحدهما من الآخر. التداني طبعاً مسألة وهميّة، لأن الحب في حقيقته قائم على التنائي. الحب حالة قطبيّة، يمثّل فيها العاشقان قطبين متعاكسين في الشحنة.

- تقول أموراً في منتهى الذكاء. تأخّر المساء. لا أفهم الحالة برمّتها. لعلّ الفتاة كانت قبيحة؟

- قبيحة؟ بل كانت أجمل امرأة رأيتها في حياتي. لا، حتى هذا ليس دقيقاً. هي كانت المرأة الجميلة، التي صرت أقيس كلّ جمالٍ بجمالها. كلّ واحدة من حبيباتي اللاحقات كانت تشبهها في بعض الأوصاف. إحداهنّ بساقيها، والثانية بحركة رأسها، والثالثة بالصوت نفسه على الهاتف.

- وأنا أيضاً؟

- أنت أيضاً... أجل!

- بمَ أُشبهها؟

اكتسى وجه ميهاي احمراراً، ولزم الصمت.

- قل لي... أتوسّل إليك!

- كيف أعبّر؟! انهضي أرجوك، واقتربي مني!

نهضت أرجي إلى جانب كرسيّ ميهاي. لفَّ خصرها، ورفع عينيه نحوها. ابتسمت أرجي.

- الآن.. هذا تماماً.. حين تبتسمين لي من الأعلى. هكذا ابتسمت إيقا حين كنت أنا الضحية.

سحبت أرجي نفسها، وجلست على كرسيّها. قالت مربدّة:

- غريب. لا بدّ أنك تخفي شيئاً. لا بأس. لا أرى أنك ملزم بأن تبوح بكلّ الأمور. حتى أنا لا ينتابني أيّ شعورٍ بتأنيب الضمير لأني لم أحدّثك عن سني مراهقتي. لا أعتبره أمراً مهمّاً. لكن قل إنك كنت مغرماً بتلك الفتاة. بقي أن تعبّر. هذا ما يدعونه عندنا بالحب.

- لا. قلت لك إنني لم أكن مغرماً بها. الآخرون فقط.

- أيّ آخرين؟

- كنت سأحدّثك عنهم للتوّ. مرّت سنوات وكنت الوحيد الذي يأتي لزيارة منزل أولبيوش. حين صرنا في الصف الثامن تبدّلت الحالة. انضمّ إلينا أرقين، ويانوش سبتنكي. كانا يقصدان إيڤا، ولا يأتيان لزيارة تاماش مثلي. كان السبب أن المدرسة في ذلك العام، ككل عام أصلاً، أقامت عرضاً. كان لنا -نحن طلاب الصف الثامن- الدور الرئيسي في الاحتفالية: لكن المشكلة أنها تضمّنت كثيراً من الأدوار النسائية، ولهذه الغاية عمد الصبيان إلى استقدام فتيات صغيرات من مدرسة الرقص، والرقص على الجليد، لكن المعلّم الذي نظّم العرض كان قسّاً شاباً شديد الذكاء، وكارهاً للنساء، فلم يجد أي فتاة مناسبة. كلّمتُ إيڤا بهذا الشأن، فوجدتُ أن الفرصة قد حانت لتبدأ مهنة التمثيل. أما تاماش فلم يكن لديه الرغبة في سماع الحديث، لأن من غير النبل أن يكون على هذا القدر من التماسّ بالمدرسة، شأنها شأن الرابطة العائلية في نهاية المطاف. مارست عليّ إيڤا كلّ أشكال الترهيب كي أقنع المعلّم باصطحابها إليه لهذا الغرض. واصطحبتها فعلاً. ما إن فتحت إيڤا فمها حتى بادر المعلّم إلى القول: «أنت من سيلعب الدور، أنت وليس أحدٌ آخر».

لا أريد الآن أن أتحدّث عن العرض، لكنني أقول باختصار إن إيڤا لم تحصد نجاحاً. وجد الأهالي، وأمي من بينهم، أنها كانت مبالغة في جرأتها، مفتقرة إلى الأنوثة، وعادية، وغريبة... إلخ، أي أنهم قرؤوا عليها تمرّداً، وبغضّ النظر عن ملاحظاتهم، في ما يتعلّق بتمثيلها أو لباسها، أو سلوكها، فقد أحسّوا بأنها خدشت حياءهم، وأخلاقياتهم. ولم تحصد نجاحاً بين الصبيان، رغم كونها أجمل من فتيات مدرسة الرقص المثاليات. أقرّ الصبْيان بجمالها الشديد، لكنهم علّقوا بالقول: «ولكنها...» ممتعضين. هؤلاء الصبيان المتحضّرون يتناقلون ما يتمتع به أهاليهم من

سلوك تجاه المتمرد. وحدهما أرفين ويانوش، المتمرّدان في الأساس، هما من اكتشف في إيڤا الأميرة المسحورة.

رأيتِ يانوش سبتنكي اليوم. هو هكذا على الدوام. كان أفضل راوٍ في الصف. وحمل مسدساً، ومنذ أن كان صغير السن أقدم على قتل بعض اللصوص الذين اقتحموا المنزل للحصول على وثائق سرّيَة لأمه الأرملة. وكانت له قصصه المثيرة مع النساء، في وقتٍ كان فيه الآخرون من أقرانه لم يتقنوا الرقص بعد، وكانوا يدوسون على أقدام من يراقصونهنّ، كان يقوم بأمورٍ كثيرة خاصة لكي يثبت لي أنه مختلف عني. وقد تشكّل ذلك، في رأيي، منذ كنا في عمر الثالثة عشرة، حين أجرى معلّمٌ في المدرسة اختبار الجمجمة علينا. من كتلة رأسي حدّد أنني موهوب، فيما قرأ على جمجمة يانوش أنه غير موهوب. لم يقوَ على إزالة الفكرة من ذاكرته، وظلّ يتذكّرها دامعاً حتى بعد امتحان الثانوية العامة. كان يريد أن يتميّز عني في كلّ شيء: في كرة القدم، في التعلّم، في الذكاء. وحين تخلّيت عن هذه الخصال الثلاث، اضطرب، ولم يدرِ ماذا يفعل. ثم أُغرِم بإيڤا لأنه ظنّ أن إيڤا مغرمة بي، أجل. هكذا كان يانوش سبتنكي.

- ومن هو أرفين؟

- كان أرفين شاباً يهودياً، اعتنق الكاثوليكية في تلك الفترة، ربما تحت تأثير المعلّم البابوي. لكني أظن أنه اتبع طريقه الداخلية. في سن السادسة عشرة كان يتمتع بذكاءٍ يفوق ذكاء أقرانه، وكان معتدّاً بنفسه. الشبّان اليهود يبلغون سن الرشد في وقتٍ أبكر. وكان تاماش يكنّ له بغضاً لشدّة ذكائه هذا، وسرعان ما ينقلب إلى معاداة السامية، لمجرد ذكر أرفين.

من أرفين سمعنا لأول مرة عن الفرويدية والاشتراكية، وعن «دائرة مارس»(*******). كان بيننا أول من تجلى فيه ذلك العالم العجيب الذي استحال في ما بعد إلى ثورة كاروي(*********). كتب أشعاراً رائعة، على طريقة الشاعر أدي أندره.

وفجأة بين ليلة وضحاها، تغيّر أرفين، وانكفأ عن زملاء الصف، ولم يختلط بأحدٍ سواي. لكن أشعاره في تلك الفترة لم تكن مفهومة بالنسبة لي آنذاك، ولم يعجبني فيها شدّة طولها، وخلوّها من القوافي. انطوى، وعكف على المطالعة، والعزف على البيانو، ولم نعرف عنه إلا النزر اليسير. وفي ذات يوم صادفناه في الكنيسة يضحّي أمام المذبح مع باقي الصبيان. من هنا عرفنا أنه اعتنق الكاثوليكية.

لكن لماذا اعتنق الكاثوليكية؟ من الواضح أن جماليّتها الغريبة قد اجتذبته، مثلما اجتذبته مادتها الإيمانية، وصرامة تعاليمها الأخلاقية. أظن أن هنالك في أعماقه نزعة تواقة إلى الزهد، مثلما آخرون ينزعون إلى ممارسة المُتَع. كلّ تلك الأسباب جعلت منه كاثوليكياً متحمّساً. علاوةً على ذلك كان هنالك أمرٌ يتعلّق بأرفين لم أكن أعرفه بعدُ بجلاءٍ كافٍ. كان أرفين أيضاً ككلّ من هم في منزل أولبيوش -ما عداي بالطبع- من طبيعة «لاعب أدوار». إن عدت الآن بذاكرتي أجد أنه كان منذ نعومة أظفاره يلعب دوراً ما على الدوام. لعب دور الذكيّ، ودور الثوريّ. لم يكن مباشراً وعفوياً كما ينبغي. كانت كلّ كلمة يتفوّه بها، وكلّ حركة منه أسيرة أسلوبٍ معيّن. استخدم كلمات قديمة. انطوائيّ. في حالة بحث دائم عن إمكانيات أدوار كبيرة. لكنه لم يلعب أدواره كما يفعل الأخوان أولبيوش اللذان سرعان ما ينسيان الدور بعد الانتهاء من تمثيله، ليبدأا لعبة أخرى. كان

طوال حياته يريد أن يلعب دوراً وحيداً، حتى عثر في الكاثوليكية أخيراً على دورٍ كبير، جدير، صعب. وبعد ذلك لم يبدّل في موقفه، إلى أن صار الدور يتوغل ويتوغل نحو الداخل.

صار كاثوليكياً متحمّساً، كعادة اليهود الذين لم تُبلِ فيهم موروثات القرون صدماتِ الكاثوليكية الكبيرة. لم يكن كاثوليكياً كزملاء الصف التبجيليين الفقراء الذين يضحّون كل يوم، ويحضرون الاجتماعات ويعدّون أنفسهم للميدان الكنسيّ. كانت كاثوليكية أولئك استقراراً وتأقلماً، لكن كاثوليكيته كانت تمرّداً، ومواجهة لسائر العالم الخامل فاقد الإيمان. كان له رأيه الكاثوليكي في كلّ شيء، في الكتب، في الحرب الدائرة، في زملاء الصف، في سندويشة الزبدة عند الساعة العاشرة. وكان يفوق بكثير معلّمي التربية الدينية تشدّداً ودوغمائية. «من وضع يده على المحراث، لا ينظر إلى الوراء». اتخذ العبارة الواردة في الكتاب المقدّس شعاراً، أزاح من حياته كل ما هو ليس كاثوليكياً تماماً. حرس بالسلاح خلاصه الروحي. الأمر الوحيد الذي حافظ عليه من حياته السابقة هو التدخين. لا أذكر أنني التقيته مرةً إلا والسيجارة بيده.

ومع ذلك كان له جانبٌ في الإغواء. أحبَّ أرفين النساء كثيراً، وكان هو «المغرم» في الصف، مثلما كان يانوش سبتنكي هو «الكذوب». عرف الزملاء جميعاً بعلاقاته الغرامية، فقد كان يتنزّه طوال فترة العصر على جبل غلليرت بصحبة هذه الفتاة أو تلك، ويكتب لها الأشعار. وكان الزملاء يحترمون علاقات أرفين الغرامية لأنهم أحسّوا بالطاقة والشاعرية. ولكنه ما إن اعتنق الكاثوليكية حتى تخلّى عن الغرام أيضاً. وآنذاك بدأ الشبان يرتادون بيوت الدعارة، فكان أرفين يستدير عنهم

باشمئزاز. على الرغم من أن الآخرين كانوا يقصدون النساء من باب التباهي، وربما الهزل. أما أرفين فكان الوحيد الذي عرف الرغبة الجسدية حقاً.

في تلك الأثناء تعرّف على إيڤا. وإيڤا بالطبع هي التي بادرت معه، لأن أرفين كان في غاية الوسامة، بوجهه الوضاح، وجبينه العالي، وعينيه المتوهجتين. وكان فيّاضاً بالاختلاف، والتحدّي، والتمرّد، ومن جانبٍ آخر كان يمتاز باللطافة والرقّة. أنا كنت أجهل كلّ هذا عنه، ولم أعرفه إلا حين انضمّ أرفين ويانوش إلى منزل أولبيوش.

كان بعد ظهر اليوم الأول مخيفاً. كان تاماش متحفّظاً اتخذ موقفاً أميريّاً متعالياً، ولم ينطق إلا بين الحين والآخر قاذفاً بعبارات لا تمتّ إلى الحديث بصِلة، كي يبهر البورجوازيَّين. لكن أرفين ويانوش لم يبدُ عليهما أيّ انبهارٍ أو ذهول، لأنهما لم يكونا بورجوازيّين. يانوش هو من تحدّث طوال فترة العصر، عن خبراته في صيد الحيتان، وخططه التجارية الكبيرة في الإنتاج الأمثل لجوز الهند. أصغى أرفين، ودخّن السجائر وهو ينظر إلى إيڤا. أما إيڤا فكانت مختلفة عمّا هي عليه في أوقات أخرى. أنّت وتململت، ورقّت، وتأنّثت. صرت أنا في أسوأ حال. وشعرت أنني مثل كلب وَجَدَ أن عليه من الآن فصاعداً أن يتقاسم مدّخراته، مع كلبَين آخرين، إذا ما أراد الجلوس تحت الطاولة حين تتناول العائلة طعام الغداء. غمغمت، لكنّني رغبت في البكاء. ونتيجة لذلك خفّت زياراتي. وحاولت أن آتي حين لا يكون أرفين ويانوش هناك. كان ذلك في الفترة التي سبقت تقديم امتحان الشهادة الثانوية العامة. وكان عليّ أن أكبّ على دروسي. وأتحدّى تاماش بمعلوماتي حين أزف موعد الامتحان، مارست كثيراً من العنف حتى تمكّنت صباح ذلك اليوم من

إنهاض تاماش من الفراش، وجرّه إلى الامتحان. تجاوزنا المرحلة بطريقة ما. وبعد ذلك بدأت الحياة الكبيرة مجدّداً في منزل أولبيوش.

بات كل شيء على أفضل ما يرام. كان الأخوان أولبيوش هما الأقوى، فاستوعبا أرفين ويانوش تمام الاستيعاب. خفّف أرفين من حدّته، وخلع عليه أخلاقاً لطيفة مفتعلة، وتحدّث دائماً وكأنه يضع ما يقوله بين قوسين، مشدّداً على أنه ليس طبق الأصل عما يقول أو يفعل. وأصبح يانوش أكثر هدوءاً ووجدانية.

وشيئاً فشيئاً عدنا إلى التمثيل، لكن التمثيل بات أكثر تطوراً، بعد أن أثراه يانوش بفانتازيا مغامراته، وأرفين بخياله الشاعريّ. وبالطبع أثبت يانوش أنه ممثّل بارع، فكان جِدّ مؤثّر، ويبكي حقاً، لأنه كان شغوفاً بتمثيل أدوار الحبّ اليائس، فكان الأمر يتطلّب إيقاف المشهد التمثيلي حتى تهدأ حالته. وكان الدور المحبّب إلى قلب أرفين هو الثور الذي يصرعه أورسوس الجبار -أنا أورسوس- وكان وحيد قرنٍ موهوباً جداً، تمكّن بقرنه الوحيد أن يحطّم كلّ الحواجز، ويمزّق الستائر والأغطية، ويدمّر كلّ شيء.

وشيئاً فشيئاً في تلك الفترة توسّعت حدود منزل أولبيوش. صرنا نقوم بالنزهات بين جبال بودا، وذهبنا للسباحة، وبعدئذٍ صرنا نتناول المشروبات الكحولية، باقتراحاتٍ من يانوش الذي كان منذ سنوات يحكي لنا قصصاً ومغامرات تجري في الحانات. وكانت إيڤا أفضل شاربة بيننا وفي المرتبة الثانية بعده. لم يبدُ عليها تأثير المشروب، لكنها كانت تغدو إيڤا الأكثر أنثوية. وأدمن أرفين المشروب مثلما أدمن التبغ. لا أريد أن

أتلفّظ بحقائق تتعلّق بالنظرية العرقية، لكنك تدركين أن من الغريب أن يُكثِر يهوديّ من الشراب. كان شرب أرفين غريباً غرابة كاثوليكيّته، يغرق في سُكرٍ مرير، وكأن ما أسكره ليس النبيذ المجريّ، بل دوّخته أمورٌ أكثر بشاعةً، كالحشيش أو الكوكايين. كان يودّع وكأنها اللحظة الأخيرة في حياته، وكأنها آخر مرة يشرب أو يفعل شيئاً في هذا العالم. أَلِفتُ النبيذ بسرعة، وصار كلٌّ من الانحلال الشعوري، والرخاوة الانضباطية، مطلبَين حياتيَّين لي، حتى بتُّ في البيت أخجل مما خلّفه السُّكر من آثارٍ بدت عليّ، وكنت على الدوام أتخذ قراري بعدم شرب الكحول بعد الآن. لكني أداوم بعد ذلك على الشرب، واشتدّ في نفسي الإدراك بأني ضعيف، كما تفاقم إحساسي بالهلاك الذي طغى على ما عداه من أحاسيس في النصف الثاني من الفترة التي أمضيتها في منزل أولبيوش. تملّكني إحساس بأني «أسارع إلى الهلاك»، وخاصّةً حين أشرب. أحسست أنني سأسقط نهائياً من الحياة العادية للبشر، وأطيح بما انتظره والدي منّي. ولقد أحببت هذا الإحساس تحدّياً لكلّ ما ينتابني من تبكيت ضميرٍ بشع. في تلك الفترة صرت أتوارى من أمام أبي.

كان تاماش يشرب القليل، ومع مرور الوقت بات أكثر صمتاً.

في هذه الفترة بدأ تديُّن أرفين يلقي بتأثيره علينا. صرنا نشاهد العالم، ونختبر ذلك الواقع الذي كنا ننكمش عنه ونخشاه. أحسسنا أن الإنسان يتلوّث بالضرورة، وأصغينا بإخلاصٍ لأرفين الذي قال: إنها أمور لا يجوز ارتكابها. ونحن أيضاً، صرنا كأرفين نطلق أحكاماً قسرية دوغمائية على حياتنا المعاصرة بكلّ جوانبها. وأصبح أرفين هو المهيمن وبتنا نسمعه في كلّ ما يقول، وسعيت أنا ويانوش للقيام بأعمال الخير، وكنا في كلّ

يومٍ نعثر على مساكين نقدّم لهم العون، وعلى كتّاب كانوا كاثوليك عظماء خالدين وننقذهم من النسيان غير الجديرين به. فكان القدّيس توماس، وجاك ماريتيان وتشيرترتون وآنسلم كانتربوري يهيمنون على جوّ الغرفة ويطيرون فيها كالذباب. كنّا نؤمّ الكنيسة، وكان ليانوش رؤاه بالطبع. ذات مرّة قبل طلوع الفجر، ظهر سانت دومينيك في النافذة، وقال مشيراً بسبّابته: «نحن حريصون عليك بالذات على وجه الخصوص». أظنّ أنني ويانوش قد غدونا في هذا الموقف مهرّجين لا يقاومان. لكن الأخوين أولبيوش لم يأخذا إلا القليل من الكاثوليكية.

دامت هذه المرحلة ما يقارب عاماً، ثم اضمحلّت. لا يمكن القول بدقّة بمَ بدأ الأمر، لكن الواقع اليومي بدأ يفيض على نحوٍ ما، مترافقاً مع الاضمحلال في الوقت ذاته. توفّي الجدّ أولبيوش، بعد أن عانى لمدة أسبوع من صعوبة التنفس والاختناق. صبرت إيڤا على العناية به، وسهرت قرب سريره حتى مطلع الفجر، وحين فاتحتها قائلاً: «جميلٌ منك ما قمت به»، تبسّمت بسخرية وقالت: «من الممتع مشاهدة أحدهم يموت».

ثم قرّر الأب أنه ينبغي أن يفعل شيئاً لولديه، إذ لا يمكن الاستمرار على هذا النحو. أراد أن يزوّج إيڤا على الفور، فأرسلها إلى عمّتها الثريّة التي تمتلك في الريف منزلاً واسعاً تقطن فيه وتقيم حفلات على مستوى المقاطعة. أرسل ابنته لحضور تلك الحفلات، ولكن إيڤا عادت وفي جعبتها العديد من القصص الرائعة، وتفادت ببراعة صفعات أبيها. لم يكن لتاماش مثل تلك الطبيعة المحظوظة. أرسله أبوه للعمل في دار البلدية. عيناي تدمعان كلّما فكّرت في المعاناة التي قاساها تاماش في المكتب. عمل هناك بين بورجوازيين صغار لم ينظروا إليه

نظرتهم إلى عامل. أوكلوا إليه أغبى الأعمال الروتينية مفترضين أنه غير مؤهَل للقيام بأعمال تتطلّب تفكيراً واستقلالية. ولعلّهم كانوا محقّين. كان محتقَراً من جانب زملائه: لم يوجّهوا له الإهانات، بل على العكس من ذلك، أشفقوا عليه، وأراحوه من الأعمال. لم يُظهِر تاماش أيّ شكوى أمامنا، بل أحياناً أمام إيڤا. وكان تاماش يشحب، ويصمت، كلّما ذكرنا وظيفته في المكتب.

في هذه الفترة أقدم تاماش على انتحاره الثاني.

سألت أرجي: «الثاني؟».

- أجل. كان عليّ أن أحدّثك من قبل عن انتحاره الأول، الذي كان أكثر أهمية وهولاً. حصل ذلك حين كنّا في سن السادسة عشرة، في بداية صداقتنا. ذات مرة حين زرتهما كعادتي وجدت إيڤا وحدها، ترسم باستغرابٍ غير معهود. قالت إن تاماش صعد إلى العلّيّة وسيعود حالاً، فلأنتظره. وفي تلك الفترة غالباً ما كان تاماش يصعد إلى الدور العلوي في جولة تفتيشية، فيعثر بين الصناديق على شتّى الأشياء التي تثير خياله الشغوف بالقديم، وقد تلزمنا في أعمالنا المسرحية. وبالمناسبة، الدور العلوي لمثل هذا المنزل مكان رومانتيكي جداً. لم أفاجأ إذاً وانتظرته. وكما قلت، كانت إيڤا هادئة على غير العادة.

وفجأةً، شحب وجهها، وقفزت، ونادتني زاعقة أن نصعد إلى العلّيّة، ونرى ماذا حدث لتاماش. لم أدرِ ما الأمر، لكنّي ذُعرت مثلها. كان الظلام قد حلّ هناك. وكما قلت، كانت علّيّةً ضخمة، متعرّجة، انفتحت أبوابها الخشبية الغامضة في كلّ اتجاه، وتراكمت الصناديق في الممشى، واصطدم رأسي بالعوارض

الخشبية الواطئة، حيث كان عليّ أن أسرع صعوداً ونزولاً على الأدراج. لكنّ إيڤا مضت بلا تردُّد في الظلمة، كأنها تعرف أين يكون تاماش. كانت مقصورة طويلة واطئة في أقصى الممرّ، وبانت هناك نافذة دائرية مضاءة. توقفت إيڤا وتشبّثت بي زاعقة. اصطكّت أسناني، لكن شدّة ذعري جعلتني شجاعاً على حين غرّة. دخلت في المقصورة المظلمة، جارّاً إيڤا المتشبّثة بي.

كان تاماش يتدلّى هنالك قرب النافذة الدائرية الصغيرة، على ارتفاع متر تقريباً. شنق نفسه.

- ما زال حيّاً، ما زال حيّاً!

صرخت إيڤا، وكانت تحمل بيدها مديةً، كما يبدو. كانت تدرك نوايا تاماش. كان إلى جانبه صندوق ارتقاه ليشدّ الحبل على العارضة الخشبية. قفزت من فوري فوق الصندوق، وقصصت الحبل، وعانقت تاماش بذراعي الأخرى، وتركت إيڤا تحلّ الحبل عن عنقه.

بعد قليلٍ عاد تاماش إلى وعيه. لم يكن مضى على شدّه الحبل حول عنقه إلا دقائق معدودات، فلم تحصل أيّ مشكلة.

«لمَ وشيتِ بي؟»، سأل إيڤا، فخجلت ولم تُجب.

ومع مرور الوقت سألته بحذر لمَ أقدم على ذلك.

أجابني بغير اكتراث: «كنت فضولياً لأعرف كيف يكون الأمر».

سألته إيڤا بفضول وقد اتسعت حدقتاها: «وكيف كان؟».

- رائعاً.

سألته، وقد شعرت بتبكيت ضميرٍ نوعيّ: «هل يؤسفك أننا قطعنا الحبل؟».

- لا. لديّ ما يكفي من الوقت. أفعلها لاحقاً.

لم يكن تاماش يدري بعد كيف سيفسّر فعلته. ولم يكن ذلك ضرورياً، لأني فهمت الأمر، فهمت من أدوارنا التمثيلية. ففي جميع مسرحياتنا كنا نقتل ونموت. هذا كلّ ما هنالك. كان دور الموت يشغل تاماش على الدوام. لكن حاولي أن تفهمي إن كان الأمر مفهوماً: ليس الموت ما يشغله. لا، ليس الفناء، والزوال، بل فعل الموت، معاشرته. هنالك من البشر من يرتكبون جرائم القتل، جريمة بعد أخرى بسبب «الاكتئاب القهري»، ليتذوّقوا متعة القتل. مثل هذا القهر القسرى هو ما اجتذب تاماش نحو نشوة موته الكبرى. أظن أنني لا أستطيع أن أوضح لك الأمر يا أرجي، لأن شرح مثل هذه الأشياء أشبه بشرح الموسيقا لمن لا يتمتع بذائقة السماع. أنا فهمت تاماش. بقينا طوال سنوات لا نتكلم المزيد عن هذه المسألة. كانا يكفينا أن يعرف كلٌّ منّا عن الآخر أنه يفهمه.

حين بلغنا سن العشرين، حصلت التجربة الأخرى، التي شاركت فيها أنا أيضاً. لا تخافي، أنا حيّ كما ترين!

في تلك الآونة كنت، في أمورٍ كثيرة، شديد الاستياء وخاصّة من أبي. انتسبت إلى كلية الآداب في الجامعة. وسألني أبي ما هدفي وماذا أريد أن أكون، فكان جوابي: «مختصّ في تاريخ الأديان». فسألني: «ممَّ ستعيش؟»، لم أستطع الإجابة عن سؤال كهذا، ولم أشأ حتى أن أفكّر فيه. كنت أدرك أن أبي

يريدني أن أعمل لدى المؤسسة. ولم يكن لديه اعتراض على تحصيلي الجامعي من باب أن حيازة أحد أفراد المؤسسة شهادة دكتوراه، ستضفي عليها نوعاً من الزخرفة. وحتى أنا، في نهاية المطاف، كنت أعتبر الجامعة مجرد مرحلة عابرة وكسباً للوقت، ريثما أبلغ الرشد.

لم يكن حبُّ الحياة يمثّل جانباً مهمّاً لديّ في تلك الفترة. كان الإحساس بالهلاك يشتدّ شيئاً فشيئاً في نفسي، ولم تعد الكاثوليكية عزاءً لي، بل إنها فاقمت فيّ وعيي لضعفي. لم أكن من طبيعة تستمتع بموهبة التمثيل، وأدركت أنا آنئذٍ، بجلاء، كم أن حياتي، وكائني الحيّ، بعيدان كلّ البعد عن مثال الحياة الكاثوليكية.

كنت أول من تخلّى في المجموعة عن كاثوليكيّته. وهذه واحدة من خياناتي العديدة.

عوداً على بدء، قصدت منزل أولبيوش عصر أحد الأيام، ودعوت تاماش للتنزّه قليلاً. كان عصراً ربيعياً جميلاً. وصلنا حتى بودا القديمة، وجلسنا في حانة صغيرة خالية تحت تمثال القديس فلوريان. شربت كثيراً، وكنت خلال ذلك أُبدي استيائي بسبب أبي وآرائه، والكآبة الرهيبة في سن الشباب.

- لمَ تشرب كلَ هذا القدر؟! - سألني تاماش.

- لأنه طيّب.

- هل تحبّ أن تسكر؟

- كيف لا!

- أتحبّ أن تغيب عن نفسك؟

- كيف لا! الشيء الوحيد الذي أحبّه.

- إذاً... لا أفهمك. تصوَّرْ مقدار المتعة عند الموت كليّاً!

ولقد خبرت أنا هذا. المرء في حالة السُّكْر أفضل منطقاً في تفكيره. لكن اعتراضي الوحيد كان في أنني أخاف الألم والعنف. لا أمتلك المزاج لأُقدِم على شنقي، أو قتلي بالرصاص، أو أن أرمي بنفسي في نهر الدانوب.

قال تاماش: «لست ملزماً بهذه الطريقة لديّ ثلاثون سنتيغراماً من المورفين. كمية كافية لكلينا، أو لي وحدي. وبما أنني سأموت عاجلاً أم آجلاً، فهذا أوان مناسب. أما إن كنت سترافقني، فذلك أفضل. طبعاً، أنا لا أريد أن أؤثّر عليك. لكنه مجرّد قولٍ أقوله، لعلّ الأمر يعجبك».

- من أين حصلت على المورفين؟

- من إيڤا. حصلت عليه من الطبيب. قالت له إنها لا تستطيع أن تنام.

وكانت الأهمية كبرى بالنسبة لنا -نحن الاثنين- أننا حصلنا على السمّ من إيڤا. حتى هذا الأمر كان يرتبط بأدوارنا في التمثيل، بتلك الأدوار المرضيّة التي عدّلناها بشدّة منذ أن انضمّ أرفين ويانوش إلينا. كانت نشوتنا نابعة على الدوام من كوننا نموت عن طريق إيڤا، أو من أجل إيڤا. وهكذا أعطتني إيڤا السمّ، وأقنعتني بأن عليّ تناوله، وحصل الأمر.

ليس بوسعي أن أشرح لك كم كان الانتحار بسيطاً وواضحاً. كنت ثملاً، وفي تلك الآونة كان الشراب يبعث فيَ حالة اللاجدوى من شيء، «كلّ شيء سواء»، وفي عصر ذلك اليوم أطلق من داخلي ذلك الشيطان المتحرِّر من القيود، والكامن، كما أظنّه، في أعماق أي إنسان، ويوسوس في صدره داعياً إياه إلى الموت: «فكّر جيداً.. الموت أسهل، وأكثر طبيعية من البقاء على قيد الحياة».

قالت أرجي قلقة: «تابِع حديثك!».

- سدّدنا ثمن النبيذ ومضينا للنزهة، بصفاءٍ شديد مؤثّر. عبّر كلٌّ منا عن مقدار محبّته للآخر، وأن هذه الصداقة كانت هي الأجمل في الحياة. جلسنا قليلاً عند ضفة الدانوب خارج بودا القديمة إلى جانب السكة الحديدية، حين كانت الشمس تغطس لتوّها في النهر. انتظرنا تأثير النبيذ. لم نشعر بعدُ بأيّ شيء.

وشعرت فجأة برغبة مبكية لا تقاوَم في وداع إيڤا. لم يشأ تاماش في البداية أن يتقبّل الفكرة، لكنه سرعان ما أذعن لما يربطه بإيڤا. ركبنا الترام، ثم صعدنا الأدراج الصغيرة في طريقنا إلى القلعة.

صرت أعرف الآن أنني خنت تاماش في تلك اللحظة، حين رغبت في رؤية إيڤا. خنت تاماش لأني خفت الانتحار. وضع لاوعيي بعين الاعتبار أننا بانخراطنا مجدّداً في الناس، سينقذوننا بطريقة ما. كنت، لا شعورياً، غيرَ راغب في أن أموت. كنت مرهقاً إلى درجة الهلاك، إلى حدٍّ بوسع شابّ في سن العشرين أن يتحمّله. وكنتُ توّاقاً إلى ما بعد نشوة الموت الغامضة الخفية، ولكن ما إن بدأ إحساس الهلاك الناشئ بتأثير النبيذ يتلاشى، حتى فقدت مزاجي في الموت.

حين عدنا إلى منزل أولبيوش، كان هناك أرفين ويانوش. شرحت لهما بهمّة عالية أن كلّاً منّا -تاماش وأنا- قد تناول خمسة عشر سنتمتراً من المورفين، والآن سنفارق الحياة بعد قليل، لكننا رغبنا في العودة إلى المنزل للوداع. كان تاماش قد كساه الشحوب وأصبح في حالة من الذهول، ولم يبدُ عليّ ما يدل على شيء سوى تأثير النبيذ، وكثرة الكلام. سارع يانوش يهتف للإسعاف، قائلاً: «هناك شابّان تناول كلٌّ منهما خمسة عشر سنتمتراً من المورفين!».

سأل المُسعِفون: «ما زالا حيّين؟».

قال يانوش: «أجل».

وطلب المسعفون أن ينقلونا إلى المستشفى. فحشرَنا أرفين ويانوش في سيارة أجرة، وانطلقا بنا إلى شارع ماركو. لم أكن شعرت بعدُ بأيّ شيء.

شعرت بالمسعِفين يقومون بغسيل معدتي، ويخلّصونني من رغبتي بالانتحار. على أيّ حال، لا أستطيع التخلّص من فكرة تراودني على الدوام، هي أن ما تناولناه لتسميم أنفسنا لم يكن مورفيناً. إما أن تكون إيڤا احتالت على تاماش، أو أن الطبيب احتال على إيڤا. وليس غثيان تاماش سوى نوعٍ من الإيحاء الذاتي.

ظلّت إيڤا والشابّان ساهرين طوال الليل على مراقبتنا، بعد أن حذّرهم المسعفون من أننا، إذا ما أخذنا النوم وغفونا، فلن نستيقظ مطلقاً. كانت ليلةً فريدة، اضطربنا جميعاً خلالها.

وكنت أنا، على الرغم من الاضطراب الذي عاشه الجميع، سعيداً أيضاً لأني أقدمت على الانتحار، هذا الحدث المثير، وسعيداً أيضاً لأني بقيت على قيد الحياة، وشعرت بتعبٍ لذيذ جدّاً. ازداد الحبّ بيننا إلى أبعد حدّ، وكان سهرهم علينا إشارة صداقيّة لافتة، وتضحيةً كبيرة استجابت لحماسنا الصداقي والديني في تلك الفترة. كنا في حالةٍ من الارتعاش، ونجري أحاديثَ لها نكهة دوستويفسكي، ونرتشف القهوة فنجاناً وراء الآخر. كانت ليلة معبِّرة تماماً عن سنّ الشباب، لا يستطيع المرء في سنّ رشده إلا أن يتذكّرها بشيءٍ من الغثيان. لكنني شِخت على ما يبدو، لأني لا أشعر بالغثيان إذا ما عدت إليها بذاكرتي. أشعر بحنينٍ لا حدَّ له.

وحده تاماش لم ينطق بحرف، وتركنا نسكب عليه الماء البارد، ونقرصه، لكيلا يغفو. كان في حالةٍ سيّئة، إضافةً إلى أنه شعر بالخذلان لأن محاولته الثانية باءت بالفشل. إذا كلّمته، التفت إلى جهة أخرى، ولم يُجِب. اعتبرني خائناً. ومن ذلك اليوم، لم نبقَ صديقَين كما كنّا. لم يتطرّق لهذه الحادثة لاحقاً، وظلّ لطيفاً ورقيقاً كما في السابق، لكنني أدرك أنه لن يصفح عني أبداً. لقد مات ولم أكن أعنيه في شيء.

هنا صمت ميهاي، ودفن رأسه بين يديه. ثم نهض، وسرح ببصره عبر النافذة في الظلام. وحين رجع مسح على يد أرجي بابتسامة متردّدة.

سألت أرجي بهدوء: «ما زال الأمر يحزنك إلى هذا الحدّ؟».

قال ميهاي: «منذ ذلك اليوم لم يعُد لي أيّ صداقات».

وصمتا من جديد. تأمّلت أرجي مسائلة نفسها: تُرى، هل يشفق ميهاي على نفسه بتأثير عاطفة مصدرها النبيذ، أم لأن شيئاً ما قد تحطّم في نفسه آنذاك، في منزل أولبيوش، ومنذئذٍ يعيش هذه اللامبالاة، وينأى عن الآخرين؟

سألته أخيراً: «وماذا حصل لإيڤا؟».

- كانت إيڤا مغرمة بأرفين في تلك الأثناء.

- ولم تشعرا أنتما بالغيرة؟

- لا. وجدناه أمراً طبيعياً. كان أرفين هو المهيمن. واعتبرناه الشخص المتميّز بيننا، وشعرنا أن من العدل أن تحبّه إيڤا. أنا على وجه الخصوص، لم أُغرَم بإيڤا، ولم يبدُ على يانوش ما يشير إلى ذلك. ثم تشتّتت الشلّة إلى حدٍّ ما، فاكتفى كلّ من أرفين وإيڤا بالآخر، وتحيّنا الفرصة دائماً لينفردا معاً. أما أنا فوجّهت اهتمامي نحو الجامعة والتاريخ الديني. وشغلتني الطموحات العلمية، وكان لقائي الأول بالعلم مُسكِراً كالحبّ.

لكن، دعيني أعُدْ إلى أرفين وإيڤا... باتت إيڤا أكثر هدوءاً، ارتادت الكنيسة، تقصد السيّدات الإنكليزيات حيث كانت تلميذةً ذات يوم. كنت ذكرت لك أن أرفين كانت له ترتيباته الفريدة في أن يكون مغرماً. يليق الحبّ بأرفين، كما تليق المغامرة بسبتنكي. أفهم كيف لم تستطع حتى إيڤا أن تبقى باردة إلى جانبه.

كان حبّاً مؤثّراً. حبّاً مشبَعاً بالشّعر، بقلعة بودا، وبما يميّز سن العشرين، حبّاً... كيف أعبّر لك؟ حين كانا يمرّان في الشارع كنت أنتظر من المارة أن يتنحّوا جانباً بكلّ احترام، ليفسحوا لهما

طريق العبور، وكأنهما برفقة القداسة. هكذا كنّا، نحن على الأقل، نحترم حبّهما بلا حدود. في هذا الحب، اكتمل معنى الشلّة. وما أقصر المدّة التي عاشها! ثم ما الذي حصل بينهما؟ هذا ما لم أعرف بدقّة. يبدو أن أرفين طلب يد إيڤا، فرفضه العجوز أولبيوش، وطرده من المنزل، حتى أنه قام بصفعه، على حدّ علم يانوش. لكن إيڤا صارت تحبّه أكثر، وتمنّت أن تكون خليلته، لكن الوصية السادسة كانت حقيقة صارمة بالنسبة لأرفين، فبات أكثر شحوباً وصمتاً مما كان عليه حتى ذلك الوقت، وانقطع عن المجيء إلى بيت أولبيوش، وصرت نادراً ما أراه. وعلى إثر ذلك اعترى إيڤا ذلك التبدُّل الذي جعلها عصيّة على التفسير. واختفى أرفين ذات يوم جميل. وعرفت من تاماش أنه صار راهباً. مزّق تاماش رسالة الوداع التي أخبره فيها عن عزمه بالرهبانية. لكن هل يدري تاماش في أيّ ديرٍ يقيم أرفين، أو أيّ اسم رهباني اتخذ لنفسه، فهذا من الأسرار التي حملها معه إلى قبره.

لا ريب في أن أرفين لم يترهّب ردّ فعلٍ على عدم زواجه من إيڤا، لا سيّما أننا تحدّثنا في السابق عن الحياة الرهبانية، إضافة إلى أن تديُّن أرفين أعمق بكثير من أن يصبح راهباً بدافع اليأس والرومانسية بدلاً من إيحاءات نداءٍ داخليّ معيّن. لكن، لا شكّ في أن لعدم زواجه من إيڤا بعض التأثير في قراره حتى نفّذه بمثل هذه السرعة والهروب. كان يريد أن يفرّ من أمام إيڤا، من أمام الطيف الذي عَنَتَه له إيڤا. هارباً هروب يوسف. لقد فعل ما كنا نحلم به في ذلك الوقت: قدّم شبابه قرباناً دائماً للربّ.

قالت أرجي: «شيء لا أفهمه! ما دام غارقاً في الحبّ إلى هذا الحدّ، كيف أقدم على مثل تلك التضحية؟!».

- يا حلوتي! الروح مليئة بالمتناقضات المتماسّة، وحالات الزهد لا تأتي من عديمي الأحاسيس، والمتّصفين بالبرود، بل من أشدّ الناس حرارة واشتعالاً، من أولئك الذين لديهم ما يتخلّون عنه. لذا فالكنيسة تحظّر على أيّ مخصيّ أن يكون قسّاً.

- وماذا قالت إيڤا عن كلّ هذا؟

- انكفأت على نفسها، ولم تعُد تُطاق. في تلك الآونة كانت بودابست بين أيادي المهرّبين، وضبّاط الوفاق. فالتحقت إيڤا بدائرة ضباط الوفاق. وكيف لا؟! عرفت اللغات، واتسمت بسلوكٍ متمدّن، مجافٍ للسلوك الريفيّ المجريّ. فكان لها شعبية واسعة. واستحالت بين يومٍ وآخر من فتاةٍ مراهقة صغيرة إلى امرأةٍ بديعة، وتبدّلت نظرات عينيها، وبدلاً من تلك السمات الحميمية، والتعابير المفتوحة، اتسمت عيناها بتلك النظرات التي تجعلها تبدو كأنها تصغي إلى أصوات خفيفة بعيدة.

في تلك الفترة الأخيرة، بعد انتهاء هيمنة تاماش وأرفين، جاء دور هيمنة يانوش. كانت إيڤا في أمسّ الحاجة للمال كي تظهر أنيقة بين الأنيقين، وعلى الرغم من مهارتها في خياطة ملابس أنيقة من لا شيء، إلا أنها احتاجت إلى المال من أجل هذا اللاشيء. هنا جاء دور يانوش سبتنكي. كان بوسعه استحصال النقود لإيڤا، من مصادر لا يعرفها أحد سواه. وكثيراً ما كان يقاطع ضباط الوفاق الذين يراقصون إيڤا قائلاً بتهكُّم: «أنفقت نقود الشعب». وآنذاك، نحن أيضاً كنّا نطبّق أسلوب يانوش المتهكّم السائد.

لم تكن أساليبه الفجّة تنال إعجابي. لم يعجبني على سبيل المثال، أنه ذات يوم قصد السيّدَ رايخ، المحاسب العجوز حيث يعمل أبي، وحصل منه على مبلغٍ كبير، بعد أن اختلق له قصة

شائكة عن مخطّطي الانتحاري نتيجة تراكم ديوني في لعب القمار، على الرغم من كوني لم ألعب القمار طوال حياتي.

وبصورة خاصة، لم يعجبني منه إقدامه على سرقة ساعتي الذهبية. حصل ذلك خلال حفلةٍ كبيرة، في مطعمٍ صيفيّ عصريّ لم أعد أذكر اسمه. كنّا كثراً: أصحاب إيڤا، ضابطان وربما ثلاثة ضباط أجانب، شبّان أثرياء نتيجة التضخم، نساء غريبات بملابسهن وتصرفاتهن الجريئة. كان انخراطي في مثل هذه المجموعة الغريبة، والبعيدة عنا كل البعد، سبباً آخر لإحساس الهلاك الذي ينتابني، ذلك الإحساس الذي لم يقتصر عليّ فحسب، بل شمل كلّ المدينة، وانتشر في الهواء. كان الناس يمتلكون كثيراً من الأموال، إحساس اللاجدوى كان مهيمناً على نفوسهم، كان يدركون أن هذه الأموال ستضيع بين ليلة وضحاها، لأن الكارثة كانت تتدلّى كالثريّا فوق الحديقة.

كان زمناً مروّعاً، ولا أدري ما إن كنا متّزنين حين جلسنا للشرب. كأن ذاكرتي تقول إنني ثملت منذ اللحظة الأولى. تاماش لم يشرب إلا قطرات، لكنّ جوّ نهاية العالم، السائد، كانت مناسبة لحالته النفسية إلى حدٍّ جعله يتحرك بين الناس والفجر براحةٍ غير مألوفة. تحدّثنا كثيراً، أنا وتاماش، في تلك الليلة، بقليلٍ من الكلمات، لكن بكثيرٍ مما تضمّنته من الأحاسيس الرهيبة. ومن جديدٍ فهم كلٌّ منا الآخر، تفاهمنا في الهلاك. تفاهمنا جيّداً في ما يخصّ الفتيات الغريبات. أنا على الأقل شعرت أن تفاسيري في تاريخ الدين لاقت صداها الحيّ في هذا التلميذ الجالس إلى جانبي. ثم انفردت بإيڤا وجلسنا معاً وحدنا، ورحت أغازلها وكأني لم أعرفها منذ كانت نحيلة، واسعة العينين في سنّ المراهقة، وتقبّلت مغازلتي بجدّية نسائية تامة، بكلماتها القليلة، ونظرتها السارحة في البعيد، وبما تشعّه طلعتُها آنذاك من ألق.

حين طلع الفجر، كانت حالتي قد ساءت، وحين عدت إلى توازني، لاحظت أن ساعتي اختفت. ذهلتُ، وتملّكتني الحيرة. لا بأس أن تفهمي أن فقدان ساعة ليس سوء فألٍ بحدّ ذاته، حتى لو كان المرء في سنّ العشرين، ولا يملك شيئاً قيّماً سوى هذه الساعة الذهبية. لكن امرأً في سنّ العشرين، حين يصحو فجراً على سرقة ساعته الذهبية، يكون على استعداد أن يعطي فقدانها معنىً رمزياً عميقاً. كانت الساعة الذهبية هديّةً من أبي، وهو ليس من طبيعةٍ تمنح الهدايا. كانت مادّتي الثمينة الوحيدة، ملكيّتي الوحيدة، وكانت في نظري، بسبب «بورجوازيتها الصغيرة» المتكبّرة، تمثّل كلّ الأشياء التي لا أكنّ لها حباً كبيراً، لكن فقدانها امتثل أمامي الآن بشكله الرمزي، وملأني بالذعر، وطغى عليّ إحساسٌ بأني أخيراً بين أيادي قوى سفلية انتزعت مني إمكانية أن أتوازن وأعود إلى العالم المدني.

ذهبت إلى تاماش وأخبرته أن ساعتي الذهبية سُرقت، وأنني سأتلفن للبوليس، وأستدعي صاحب المطعم، ليوصد الأبواب ويفتش جميع الزبائن. فهدّأني كعادته:

- لا ضرورة للأمر. دعْكَ! طبعاً سرقوك. سيسرقون منك كلّ شيء، وستكون الضحية دائماً. هذا ما تحبّه أنت.

نظرت إليه مندهشاً، لكنّي في الواقع لم أخبر أحداً باختفاء الساعة. وفي لحظة تحديقي بتاماش، كنت على يقين في أن يانوش هو من سرق الساعة. تخلّل الحفلةَ لعبةٌ مرحة: تبديل الملابس، وتبادلنا أنا وتاماش المعطفين، وربطتي العنق، ومن المحتمل أنني حين استرجعت معطفي لم تكن الساعة داخله.

رحت أبحث عن يانوش سبتنكي لأسأله، لكني لم أعثر عليه حتى في اليوم الثالث.

وفي اليوم الرابع لم أعد أشكو بخصوص الساعة. قلّبت المسألة قائلاً لنفسي إن كان هو من اختلسها فقد فعل ذلك لأن إيڤا في حاجة إلى النقود، ومن المحتمل أن تكون إيڤا على دراية بالأمر، وهي من اختلقت لعبة مبادلة الملابس لهذا الغرض. حتى مشهد خلوتي بإيڤا كان للفت انتباهي لحينٍ من الوقت عن اختفائها. حين تكشَّف لي هذا الاحتمال، أوليت الفكرة اهتمامي. حسنٌ ما حصل إن كان من أجل إيڤا. استمرار للّعبة، اللعبة القديمة في منزل أولبيوش.

منذ هذه اللحظة أُغرمت بإيڤا.

- لكنك حتى الآن أنكرت بشدّة أنك أُغرمت بإيڤا.

- طبعاً، وكنت محقّاً. هذه أفضل كلمة للتعبير عن إحساسي تجاه إيڤا. وهو إحساس لا يشبه حبّي لك بشيء، ولا حبّي لمن قبلك. لا تغضبي! إنه نيغاتيف ذلك تماماً. أنا أحبّك لأنك ترتبطين بي، وأحببتها لأنها لا علاقة لها بي. حبّي لك يمنحني القوة والثقة بالنفس، أما حبّها فقد أذلّني، ودمّرني! هذه طبعاً مجرد متناقضات خطابية. أحسست آنذاك أن اللعبة القديمة استحالت إلى واقع، وأنا على وشك أن أفنى في الاكتمال العظيم. أفنى بسبب إيڤا، أفنى من قِبل إيڤا، كما كنا نمارس اللعب في سن المراهقة.

نهض ميهاي، وراح يذرع الغرفة قلقاً. بدأ يسوءه أنه يفضح نفسه. يكشف نفسه لأرجي... لامرأةٍ غريبة.

قالت أرجي: «كنت قد ذكرت في ما سبق أن حبَك لها بحكم المستحيل، لأنكما، أنت وهي، على معرفةٍ وطيدة، ولا تتوفر بينكما المسافة اللازمة لقيام الحب».

(فكّر ميهاي: حسناً، إنها لم تفهم! لم تفهم إلا ما سمحت لها غيرتها الساذجة باستيعابه).

قال مسترجعاً هدوءه: حسناً أنك ذكرت هذا! حتى تلك الليلة المذكورة لم يكن هناك أيّ مسافة بيننا. اكتشفتها حين خلونا منفردَيْن كسيّدة وسيّد، وحين صارت إيڤا امرأة أخرى تماماً، امرأة غريبة، مذهلة وفاتنة، في الوقت ذاته حين حملت إيڤا القديمة في نفسها حلاوة شبابي المريضة السوداء.

على أي حال، أهملتني إيڤا ولم تُعِرني اهتماماً، ونادراً ما حظيتُ برؤيتها. صار اضطرابها مرَضيّاً على نحو ما، وخاصة منذ أن ظهر الخطيب الجدّيّ. مُقتَني آثارِ ثريّ جاوز مرحلة الشباب، تردّد مرّاتٍ قليلة إلى منزل أولبيوش، في زيارات للعجوز، مكّنته من رؤية إيڤا أحياناً، فوضع نصب عينيه أن يتزوّج بها. صارح العجوز أولبيوش إيڤا بأنه لا يقبل منها أيّ رفض، وأن عليها أن تذهب إلى بيت الزوجية، وإلا فإلى جهنم وبئس المصير. طلبت إيڤا تأجيل الفكرة مدة شهرين، فوافق العجوز بناء على طلب الخطيب.

كلّما قلّ اهتمام إيڤا بي، اشتدّ في نفسي ذلك الشعور الذي سمّيته الحبّ باعتباره أفضل تعبير. على ما يبدو كنت في تلك الفترة أتمتّع بجاهزية للقنوط واليأس: الوقوف طويلاً أمام باب منزلها لألمحها قادمة مع أصحابها الصاخبين الضاحكين، إهمال دراستي، إهدار ما أملك من نقود ثمناً للهدايا المخبولة التي تكاد لا تثير انتباهها. ميوعة مبتذلة، حضور جبان يفتقر إلى الرجولة

إذا ما التقيتها. هذا ما كنت عليه. هذه كانت حالي. فترة عشت فيها الحياة حقاً. ومنذ ذلك الحين لم أشعر بسعادة كسعادتي تلك، ولم يكن شيء بالعمق ذاته كما كان ذلك الألم، وكما كانت تلك المذلّة السعيدة: أنا سأهلك بسببها، وهي لا تكترث بي. أهذا يا ترى، ما يدعونه الحب؟

(لمَ أقول هذا؟ لمَ أقوله؟... شربت كثيراً مجدّداً. لكن كان عليّ أن أقوله ذات مرة. في كلّ الأحوال لن تفهمه أرجي).

واقتربت أخيراً نهاية المهلة الممنوحة لإيڤا. كان العجوز أولبيوش يدخل أحياناً إلى الغرفة ويقوم ببعض المشاهد الرهيبة. لم يكن متّزناً في تلك الفترة. حضر الخطيب بشعره الشائب، وبابتسامة معتذرة. طلبت إيڤا أسبوعاً آخر تتمكّن خلاله من السفر إما مع تاماش، أو منفصلة عنه، وكانت تمتلك النقود اللازمة للرحيل.

وسافرا فعلاً، إلى هالشتات. كان الخريف في نهايته، ولم يكن هنالك أيّ كائنٍ حيّ سواهما. لا شيء أكثر خطراً للموت من مثل هذه الحمّامات التاريخية القديمة. فأن تبلغ قلعة أو كنيسة من القدم بحيث غدت متداعية في بعض الأماكن هنا وهناك، فهذا أمر طبيعيّ، هذه وظيفتها. ولكن أن يكون ذلك الأثر التاريخي القديم صرحاً مقاماً للترويح عن النفس، مقهىً كان أم منتجعاً، فذلك خطير.

قالت أرجي: «حسناً تابع الحديث! ما الذي حصل للأخوين أولبيوش؟».

- يا حلوتي! تردّدت، وتفلسفت، لأني لا أعرف ما حصل لهما منذ تلك اللحظة. لم ألمحهما بعد ذلك. سمّم تاماش أولبيوش نفسه

في هالشتات، نجح هذه المرّة.

- وماذا حلَّ بإيڤا؟

- لكن ما دور إيڤا في موت تاماش؟ ربما لا دور لها. لست أدري. لم ترجع أبداً. يقال إن ضابطاً غريباً جاء لأجلها بعد موت تاماش.

ربما كان بوسعي أن ألتقيها. قد تكون الفرصة سنحت لي مرتين أو ثلاثاً في السنوات اللاحقة، حين كان يجيئني يانوش ملمّحاً إلى إمكانية تدبّره أمر لقائي بها، إن أجزيته على خدماته. لكني لم أعد راغباً في أن ألتقيها. هذا ما جعل يانوش من قبل يتهمني بأني انفصلت عن فترة شبابي، حين كان عليّ أن أتواصل وأمدّ يد العون... كان محقّاً. حين توفّي تاماش ظننت أني سأجنّ، ومن ذلك اليوم قرّرت أن أتغيّر، أن أنتشل نفسي مما وقعت فيه من السحر، وأصبح شخصاً سويّاً، غير تاماش. تركت الجامعة، تعلّمت مِهنة والدي، سافرت إلى الخارج لأقوّي خبراتي، ثم رجعت إلى الوطن، وحاولت أن أكون كالآخرين.

وكلّ ما كان يربطني بمنزل أولبيوش، تلاشى، ولم يتبقَّ منه شيء. مات العجوز أولبيوش عما قريب. أطلقوا عليه الرصاص بعد خروجه ثملاً من حانة في طرف المدينة، في طريقه إلى البيت. وكان أحد الأثرياء، وهو صديق أبي، اشترى المنزل، وحين زرتهم برفقة أبي، كان منزلاً رائعاً جُهّز أفخم تجهيز، فبدا أكثر قِدَماً مما كان. بئر فلورنسي حقيقي أقيم وسط الفناء. تحوّلت غرفة الجدّ إلى غرفة طعام من طرازٍ ألمانيّ قديم، من خشب البلوط. أما غرفتنا.. يا إلهي! فقد أُعدّت لتكون غرفة استقبال من طرازٍ مجريٍّ عريق، بصناديق مزخرفة بالتوليب، وأباريق، ودمى. أما غرفة تاماش! من البدائع القديمة.. يا إلهي!

لقد تأخر الوقت! لا تستائي يا حلوتي، كان عليّ أن أروي لك ما رويته. ربما كان من الحماقة.. والآن سأنام.

- ميهاي! أنت وعدتني أنك ستحكي لي كيف مات تاماش، لكنّك لم تقُل لي عن سبب موته.

- لم أقل لك كيف مات لأني لا أدري. أما لماذا مات؟ همم... ربما ضجر من الحياة. الضجر من الحياة أمرٌ وارد أليس كذلك؟

- لا. لكن دعنا ننَم، فقد تأخَر الوقت!

- ٥ -

لم يحالفهما الحظّ في فلورنسا. أمطرت طوال فترة بقائهما هنا. وقفا بمعطفيهما المطريين أمام كاتدرائية الدوم (القبة). وعلى حين غرّة انفجر ميهاي بالضحك. فهم تراجيديا القبة(********) الكاملة. كيف تنتصب هنا بجمالها الفريد، ولا أحد يقيم لها اعتباراً. أصبحت معلماً أثرياً تاريخياً وسياحياً، ولا أحد يفكر فيها، لا أحد يصدّق أنها هنا لتعلن مجد الله والمدينة.

صعدا إلى فيسولي وراحا يراقبان العاصفة المطرية التي تتقدّم مسرعةً عبر الجبال، وتلحق بهما لتوّها، فلجأا إلى الدير، وأخذا يشاهدان الأثريات الشرقية الكثيرة التي جلبها إلى الوطن الأصدقاء الورعون من بعثاتهم على مدى قرون. مكث ميهاي طويلاً يستمتع بمشاهدة مجموعة من الصور الصينية، التي لم يقف على ما سعت إلى تصويره إلا بعد مضيّ وقت. في القسم العلوي لكلّ صورة تربّع على عرشه صينيٌ غاضب منفَر، أمامه كتابٌ كبير. وما جعل وجهه مجفلاً على وجه التحديد أن شعره ينتصب إلى الأعلى فوق فودَيه من الجانبين. أما في القسم

السفلي للصور فقد حدثت كلّ أنواع الأمور المخيفة التي تقصم الظهر: يقذفون البشر بالمذاري إلى سائلٍ بغيض. وينشرون بالمنشار أقدام آخرين، ويشدّون أمعاء أحدٍ آخر كما يشدّون حبلاً. وآلة متحركة تشبه الأوتوموبيل يقوم مسخٌ مرعب ذو شعر مسرّح إلى الأعلى من الجانبين بدفعها بين الحشود، وتتكفّل فؤوس دوّارة مثبّتة في مقدّمة الآلة بنحت البشر.

أدرك أن ما يراه الآن هو الحكم الأخير كما يراه مسيحيّ صيني. ما أغربها من مهارات، وحقائق موضوعية!

بدأ يشعر بدوار فخرج إلى الساحة. المشهد الذي بدا بديعاً من نافذة القطار بين بولونيا وفلورنسا، كان الآن رطباً وذميماً، كامرأةٍ باكية سال المسحوق على وجهها.

حين نزلا، قصد ميهاي مركز البريد حيث عنونا رسائلهما منذ أن غادرا البندقية. كانت إحدى الرسائل موجّهة إليه، وعرف من الخط أنها مرسلة من قبل زولتان باتاكي زوج أرجي الأول. خطر له أنها قد تتضمن أموراً ينبغي ألا تطّلع عليها أرجي، فجلس يقرأ الرسالة أمام مقهى. فكّر مبتسماً: هكذا يكون التضامن بين الرجال.

مضمون الرسالة:

عزيزي ميهاي،

إنها لمسألةٌ جدّ حسّاسة أن أكتب لك رسالة صداقية مسهبة، بعد أن «أغويت» زوجتي و«خطفتها»، لكنّك لم تكن قطّ رجل الاتفاقيات، والتوافق.

أكتب لك لأنها الطريقة الوحيدة التي تمنحني الهدوء. أكتب لك، وأنا أصدقك القول إنني لا أملك سبباً يجعلني لا أكتب، خاصة وكلانا يعلم أنني لست غاضباً منك. دعنا نحتفظ بما هو ظاهري أمام أعين الجميع، ولا سيما أمام أرجي التي يرضيها ذلك الافتراض الرومانسي بأننا غريمان لدودان بسببها، أما في ما بيننا يا عزيزي ميهاي، فإنك تعلم مدى الاحترام الذي أكنّه لك، ولن يبدّل في الأمر شيئاً أنك أغويت زوجتي وخطفتها.

ولا يعني ذلك أن «فعلتك» هذه لم تحطّمني، عليّ أن أعترف لك -ولكن، أبقِ الأمر بيننا- بأنني أحبّ أرجي حتى العبادة. لكنني أعرف أنه لا حيلة لك بالأمر، وعلى العموم، فلا تغضب، لا أظن أن بيدك أي حيلة في أيّما أمرٍ في هذا العالم.

ولهذا أكتب لك. أصدقك القول إنني قلق بعض الشيء لأجل أرجي. تَرى كم اعتدت على مدى سنوات أن أوفّر لها كلّ ما تحتاجه، وما ليست في حاجة إليه، وأن أحرص على تزويدها دائماً بملابس تدفئها إن خرجت ليلاً. والآن لا أستطيع أن أبعد عن هذا القلق مع مرور الأيام. هذا القلق هو تلك العلاقة التي تربطني بقوة بأرجي. لا أخفيك أنني منذ فترة ليست بعيدة رأيتُ حلماً مخبولاً: حلمت أن أرجي مدّت رأسها وجذعها من النافذة، ولو لم أمسك بها لهَوَت. وحينئذٍ خطر لي -ولست أكيداً من أمرك- أتراك ستفطن لها إن مدّت أرجي نفسها من النافذة، لا سيما وأنت رجل مشغول البال، ملتفتٌ إلى داخلك؟ لذلك السبب فكّرت في أن أتوجّه إليك بطلبي هذا: أن تولي بعض الأمور حرصك الخاص. دوّنت كل شيء على قصاصة منفصلة. لا تغضب، فما لا ريب فيه أنني أعرف أرجي قبلك بوقت طويل، وهذا يستوجب استحقاقات معينة:

1- احرص على أن تأكل أرجي. لعلّك لاحظت أن أرجي تخشى السمنة إلى حدٍّ كبير، وهي خشية تنتابها أحياناً على هيئة ذعر، فلا تأكل لأيام عدّة. فتصاب بأذيّات حموضة شديدة تؤثّر على أعصابها. فكّرت أن شهيّتك الطيبة ستُلهِمها أن تأكل. أنا للأسف مريض معدة، ولم أستطع أن أحفز شهيّتها على الطعام.

2- اهتم بطلاء الأظافر. وإن رغبت أرجي أن تضع طلاء الأظافر خلال رحلتكما هذه، تولَّ بنفسك هذه العملية، واستعمل أفضل الماركات. استعلِم من موظف الاستقبال. أرجي شديدة الحساسية لهذا، وحصل أن احترقت إصبعها مرات عديدة نتيجة سوء استخدام طلاء الأظافر. وهذا ما لا تحبّذه أنت.

3- لا تدع أرجي تستيقظ باكراً، كما كنت أفعل معها. تنطلق باصات النقل بين المدن الإيطالية في وقتٍ باكر. لا تتنقلا بهذه الباصات، ودّعاها إلى الجحيم، لأن أرجي تخلد متأخرة إلى النوم وتستيقظ متأخرة. الاستيقاظ الباكر يؤذيها، ولا تتخلّص من تبعاته لأيام.

4- لا تدعها تشرب «فروتي دي ماري» أو أيّ سائلٍ مقيت آخر، لأنها تصاب بطفحٍ جلديّ.

5- مسألة جدّ حساسة لا أدري كيف أعبّر عنها. عليّ أن أفترض أنك على إدراكٍ كافٍ بها، لكنني لا أدري ما إن كان بمقدور رجلٍ مثلك ذي طبيعة ميالة إلى التجريد وفلسفة الأشياء، أن يدرك مدى هشاشة طبيعة المرأة، وإلى أيّ حدٍّ هي عرضة لمختلف القضايا الجسدية. أرجو منك أن تسجّل لنفسك تواريخ أرجي، وتَحَلَّ بالصفح والصبر قبل أسبوع من حصول الحالة حتى النهاية. أرجي في مثل هذه الفترة غير مسؤولة عن تصرفاتها. تبحث عن شجار يفرّغ ما بها من ضيق وتوتُّر. احرص على ألّا

تبادلها الشجارات بصورة جديّة، وضع في اعتبارك أنها مسألة فيزيولوجية لا أكثر. لا تخرج عن طورك، ولا تقل ما ستندم عليه لاحقاً، والأهم من كل شيء ألا تدع أرجي أيضاً تتلفّظ بما يشعرها لاحقاً بالندم، لأنه أمر يسيء إلى أعصابها.

لا تغضب! ما زال هناك آلاف القضايا، وآلاف الأمور الصغيرة التي لا تخطر على بالي لأني لا أمتلك الفنتازيا. ولا داعي للنكران، فأنا لست قلقاً فحسب لأني أعرف أرجي، بل لأني أعرفك أيضاً. فلا تُسِئ فهمي رجاءً. لو أنني امرأة وكان عليّ أن أختار واحداً من بيننا -نحن الاثنين- لاخترتك أنت من دون أيّ تردُّد. وما أحبّته أرجي فيك أنك تجريدي وعلى مسافة من الآخرين ولا تتدخّل في شؤون أحد، وكأنك كائنٌ غريب جاء من المريخ في زيارة عابرة لكوكب الأرض، لا ملاحظات تخبّئها، لا أحقاد، طيّب النوايا إزاء ما تسمعه من أحاديث الآخرين. كلّ هذا جميل، وأنا أتفهّمه، وأثمّنه لو كنت امرأة، لكن ما يقلقني أنك الآن زوجٌ لأرجي، وأرجي قد اعتادت من زوجها أن يعتني بها، ويحميها حتى من هبوب الريح، فلا يثقل عليها أن تفكّر بشيء، إلا بحياتها الروحية والفكرية، وعنايتها الجسدية. وانطلاقاً من طبيعة أرجي المترفة التي تربّت عليها في بيت أهلها -وأنا احترمت ذلك- لا أدري ما إن كانت وهي إلى جانبك، ستضطرّ في ما بعد إلى أن تواجه وقائع كنّا -أنا وأبوها- نتستّر عليها أمامها.

مسألة حساسة أخرى ينبغي أن أتطرّق إليها. أعرف عنك وعن والدك الذي تعمل لدى مؤسسته أنكما تتمتعان بالثراء، وأن زوجتك لن تعاني من العوز في أيّ شيء. ومع ذلك ينتابني القلق في بعض الأحيان، وأخشى أنّ رجلاً تجريدياً مثلك لا يولي متطلبات أرجي ما يكفي من الاهتمام. إنك، يا عزيزي، ذو

طبيعة بوهيمية غير متطلّبة، عشت على الدوام حياة صارمة مختلفة في مستواها عن الحياة التي عاشتها أرجي وألفتها. وعلى كليكما الآن أن يتكيّف مع حياة الآخر. إن تكيّفت أرجي مع أسلوبك في الحياة، فسوف تشعر بالنقمة على نفسها، لأنها ستشعر بالدونية لمجرد الاحتكاك بمحيطها السابق. من يدري! قد تصادفان في إيطاليا إحدى صديقاتها التي تشمخ بأنفها حين تعلم أنكما لا تقيمان في فندق من الدرجة الأولى. وإن تكيّفت أنت مع أسلوب حياة أرجي، فسيتطلب الأمر عاجلاً أم آجلاً تبعاتٍ مالية، وهذا ما لا تحتمله المؤسسة، ولا يقبله والدك الذي يميل، كشخص متزمّت، إلى التقتير بدلاً من إهدار الدخل. فضلاً عن أنكم أربعة أشقاء. وباختصار: لستَ في حالة تؤهّلك للتكيّف مع مستوى حياة أرجي. لكنّ ما يرضيني هو حصول أرجي على كل ما تحتاج إليه، ولهذه الغاية، أرجو ألّا تأخذ الأمر بسوء نيّة إن قلت لك: أنا بين الأيادي إذا ما احتجت إلى مبلغٍ من المال على شكل دَينٍ طويل الأمد. وأصارحك القول إنه من دواعي سروري أن أسدّد مبلغاً شهرياً دائماً. لكنه أمر صفيق. أعرف ذلك. لكن أريد أن أحيطك علماً بألّا تتردّد بالتوجه إليّ كلّما دعتك الحاجة.

لا تغضب أرجوك. أنا تاجر بسيط، لا عمل لديّ سوى البحث عن المال، وأفلح في ذلك حمداً لله. وأجد من الأمور المعقولة أن أقوم بتوزيع أموالي على هواي، ولمن أرغب، أليس كذلك؟

إذاً، لا تغضب، وكن على ما يرام. لك تحيات الودّ ممن يكنّ لك الاحترام الشديد.

زولتان

أخرجت الرسالةُ ميهاي عن طوره، وأشعرته «طيبة» زولتان المفتقرة إلى الرجولة، بالغثيان، وهي، على أيّ حال، ليست طيبةً، بل جبناً، لكنها وإن كانت طيبةً بحقّ، فهي ليست مهضومة، إذ لا فكرة لدى ميهاي عن الطيبة. ما هذا التهذيب؟ ما هذه المجاملة؟! لا جدوى، يبقى زولتان باتاكي معاون تاجر مهما نمت ثروته.

لكنها مشكلة زولتان باتاكي، وهذا كلّه شأنه إن كان ما يزال مغرماً بأرجي التي بحقٍّ سلكت معه سلوكاً معيباً. ليس هذا ما أخرجه عن طوره، بل ما ورد في الرسالة من جوانب متعلّقة به وبأرجي. أولها الجوانب المادية. يحترم ميهاي «الضرورات الاقتصادية» احتراماً شديداً، ربما لسبب وحيد هو إحساسه الضحل حيالها. فإن قال له أحدهم: «أسباب مادية، تحتّم عليّ أن أتصرف كذا وكذا»، كان يلزم الصمت على الفور، ويرى كل الوضاعة ماثلة أمامه. ثم إن أرجي كانت زوجة رجلٍ ثريّ، لكنها الآن زوجة رجل متوسط الحال، عاجلاً أم آجلاً، ستنقم على نفسها حين تصادف أحداً من محيطها، هذا ما يراه زولتان باتاكي بجلاء.

وفجأة خطرت له أمور عديدة في رحلتهما لقضاء شهر العسل، أكدت الفارق القائم بين مستويي حياتيهما. أول ما خطر له الفندق الذي يقطنانه الآن. فبعد أن رأى ميهاي أن أرجي تجيد اللغة الإيطالية أكثر منه وتتحدّث بمهارة مع موظفي الاستقبال الذين يمقتهم أساساً، أوكل لها أن تتدبّر أمر الفندق، إضافة إلى الأعباء الأرضية المختلفة. وهكذا لم تتردد أرجي، واختارت على ضفة أرنو غرفةً في فندق صغير قديم باهظ الكلفة، انطلاقاً من وجهة نظر أن المرء ما دام في فلورنسا، فعليه أن يسكن على ضفة أرنو. أجرة الغرفة لا تتناسب مع المبلغ

المخصّص لإقامتهما في إيطاليا -لم يشعر ميهاي تماماً بالمسألة لأنه تكاسل في الحساب- كانت الغرفة أغلى بكثير من غرفتهما في البندقية، فطعن هذا للحظة قلب ميهاي المعتاد على التقتير، لكنه ما لبث أن أبعد عنه بقرف هذا الإحساس التافه. «في النهاية، نحن في شهر العسل» قال لنفسه، ولم يفكّر مزيداً في الأمر، إلا بعد أن قرأ رسالة باتاكي.

لكن كبرى المشاكل لم تكن مادية، بل أخلاقية. بعد نصف عام من تقليب الأفكار والتخمينات المعذِّبة، حين اتخذ ميهاي قراره النهائي بأن يفصل أرجي عن زوجها، ويتخذها زوجة له، فإنما أقدم على هذه الخطوة المليئة بالعواقب كي «يسوّي كلّ شيء»، وينضمّ من خلال زواجه الجدّي نهائياً إلى قائمة الأشخاص الجدّيين، ونصب أعينهم الاستقرار، ليكون ندّاً لزولتان باتاكي مثلاً. ولهذا السبب بالذات قَبِلَ أن يبذل كلّ ما لديه ليكون زوجاً صالحاً. أراد أن يُنسيَ أرجي أنها تخلّت لأجله عن زوجٍ صالح، إضافة إلى أنه أراد أن «يسوّي كل شيء» بدءاً من سنّ المراهقة.

لا وجود لرجلٍ طيّب مثل زولتان باتاكي الذي يريد أن يحامي عن زوجته البعيدة والخائنة، ويؤمّن لها كلّ ما تحتاجه، أكثر مما يرعاها هو المقيم معها الآن، إضافةً إلى تكليفها بأمر الفندق وبمختلف الأعباء الأرضية، بذريعة أن أرجي تجيد الإيطالية أكثر منه.

فكّر: لعلّ باتاكي محقّ في أنني شخص تجريدي جداً، وذو طبيعةٍ ملتفتة إلى داخل ذاتها. هذا تبسيط بالطبع، لأن الإنسان أعقد من أن يفسَّر بمثل هذه السهولة، لكن المؤكد أنني أخرق إلى حدٍّ كبير، ولا يُعتمَد عليّ في المسائل الحياتية. لست على

الإطلاق ذلك الرجل الذي بوسع امرأة أن تثق في تفوّقه الهادئ. في حين أن أرجي امرأة تحب أن تسلّم نفسها لرعاية أحدهم، تحب أن تعرف أنها تنتمي كلّياً إلى أحد ما: ليست من نوع الأمهات الرؤومات، وربما لهذا السبب لم تنجب طفلاً، لكنها ترغب في أن تكون طفلاً لدى حبيبها. يا إلهي كم ستكون بائسة معي عاجلاً أم آجلاً، أنا الذي أسهل عليّ أن أكون قائداً عسكرياً من أن ألعب دور الأب! هذه الخصلة بعيدة عني تماماً، من جملة خصال عديدة. لا أطيق من أحد أن يرتبط بي حتى ولو كان بصفة خادم لديّ، وهذا ما جعلني، في سنّ شبابي، أنجز كلّ شيء بنفسي، لا أستطيع تحمّل المسؤولية، كما أمقت أولئك الذين ينتظرون مني شيئاً ما.

كل ذلك جنون، جنون بالنسبة لأرجي أن أكون زوجاً. كان أفضل لها أن تتزوّج شخصاً عادياً. وأقول ذلك من وجهة نظرها هي لا من وجهة نظري. لمَ لم أفكر ملياً بالأمر قبل أن أتزوّج؟ وبالأحرى كيف لأرجي، وهي المرأة الحكيمة، ألّا تقلّب المسألة من كلّ أوجهها؟

لكن أرجي لم يكن بوسعها أن تتمعّن في الأمر لأنها كانت مغرمة بميهاي، وتخلّت حياله عن حكمتها، ولم تعرف أخطاء ميهاي، وما زالت لا تعرفها إلى هذه اللحظة. لكنها لعبة الأحاسيس، فما كان من أرجي إلا الجري بشهيّة لا حدود لها وراء رغبتها في نيل بهجة الحب التي لم تجدها لدى باتاكي، إلى أن تصل ذات يوم إلى حدّ الشبع، لأن من شأن مثل هذه الأحاسيس ألا تدوم طويلاً.

حين رجع إلى الفندق بعد نزهة طويلة، أيقن أن أرجي ستتخلّى عنه ذات يوم، بعد كثيرٍ من الأزمات والعذابات المريعة،

والقضايا الرجالية البشعة. تقمّص حالته هذه، وحين جلسا إلى العشاء صار يرمق أرجي كما يرمق قطعةً جميلة من ماضيه، وتملّكته عاطفة مهيبة. طالما لعب الماضي والحاضر لعبتهما المشتركة المتميزة في نفس ميهاي، فأضفى كل منهما لونه ونكهته على الآخر. أحبّ أن يرجع بمخيّلته إلى نقطةٍ من ماضيه وينظر منها إلى حياته الحالية، مثلاً: ماذا كنت سأقول عن فلورنسا، لو كنت هنا في السادسة عشرة من عمري؟ وهذا التوضّع أضفى دوماً على لحظة الحاضر محتوىً شعورياً أكثر ثراءً. لكن يمكن أن نعكس الحالة، نصنع من الحاضر ماضياً: ما أجملها من ذكرى بعد عشر سنوات، أنني زرت فلورنسا مع أرجي! أستولد من الأحاسيس ما ليس بوسعي الآن أن أخمّنه.

عبّر عن شعوره الاحتفالي المهيب بقائمة منوّعة من طعام العشاء، إلى جانب النبيذ الباهظ الثمن. كانت أرجي تعرف ميهاي، وتعرف أن العشاء الفاخر تعبيرٌ عن مزاجٍ فاخر عنده، وعملت جهدها لترتفع إلى مستوى الحالة. فافتتحت الحديث بمهارة، طرحت بعض الأسئلة عن تاريخ فلورنسا، لكي تجعل أفكار ميهاي تتّخذ وجهة تاريخية، لأنها تعلم أن مسائل التاريخ توهّج مشاعره الاحتفالية أكثر من النبيذ، بل إنها الأمر الوحيد الذي يخرج ميهاي من لامبالاته. كان ميهاي متحمّساً ومنوّعاً في طروحاته ومعطياته، وقدّم إيضاحات غير جديرة بالثقة، وحاول لاحقاً بعينين برّاقتين أن يحلّل ما تعني كلمة «توسكانا» من غرابةٍ ونشوة. لأن هذه الأرض لم يبقَ جزءٌ منها إلا دنّسته الجيوش التاريخية، والقياصرة، وفِرق الملوك الفرنسيين بأزيائها الرائعة، كلّ مسارٍ هنا يفضي إلى موقعٍ هامّ، وكلّ شارع في فلورنسا شاهدٌ على أكثر من مرحلة تاريخية، شأنه شأن المقاطعات السبع في الوطن.

أصغت إليه أرجي مفتونة. لم تنشغل بما تتمتّع به توسكانا من أهمية تاريخية، لكنها أحبّت ميهاي وهو على هذا القدر من الحماس، أحبّته في مثل هذه اللحظات حين يستسلم للتاريخ وينأى بعيداً عن عالم البشر، ينأى عن الحاضر والمكان، حينئذٍ كان ينعتق من لامبالاته، ويغدو من البشر. وسرعان ما بلغت عواطف أرجي أوجها، وغمرتها البهجة حين فكّرت في ما تَعِدُ به هذه الأمسية، لا سيما أن ميهاي كان في الليلة الماضية عكِر المزاج، وما إن استلقى على السرير حتى غفا، أو تصنّع ذلك على الأقل.

عرفت أرجي كيف تغري ميهاي وتفصله بسهولة عن أجوائه التاريخية، ليلتفت إليها. كان يكفي أن تضع يدها على يده، وتحدِّق بشدّة في عينيه: نسي ميهاي توسكانا، وفقدَ وجهُه النبيذيّ لونَه القاني، واكتسى بالشحوب نتيجة الاشتهاء الداهم الفجائي. راح يغازل، ويبدي إغراءاته كأنه الآن يكافح للمرة الأولى كي يحظى بحبّ أرجي.

ما أغربه من أمر! -فكّرت أرجي- بعد سنة من الألفة، ما يزال يغازلني بالصوت ذاته، والارتباك الداخلي ذاته، وكأنه غير واثق من قبولي. وكلّما ازدادت رغبته فيّ تباعد عني وغازلني بمزيدٍ من الأدب، كأنه بذلك يزخرف رغبته، ويمنحها الاحترام اللازم. وحتى القرب الأكبر، القرب الجسدي، لا يجعله على مسافة أقرب. لا يعرف أن يحبّ إلا عندما يشعر بمسافة بيننا.

وهذا ما حصل. كانت رغبة ميهاي تخاطب أرجي البعيدة، تلك التي يعرف عنها أنها ستغادره ذات يوم، التي، بالأحرى، باتت ذكرى جميلة في نفسه. ولهذا السبب احتسى قدراً من النبيذ

يجعله يحافظ على جوّ يقنع فيه نفسه أنه الآن ليس مع أرجي وإنما مع ذكراها، مع أرجي باعتبارها تاريخاً.

لكن أرجي كانت قد شربت وأثّر فيها النبيذ بقوة. صارت صاخبة، مرحة، نافدة الصبر. كانت أرجي هذه جديدة كلّ الجدّة بالنسبة لميهاي، فلم يعهدها قبل زواجهما تتصرّف بهذا القدر من الطلاقة، بحضور ميهاي، أمام الآخرين. وجد ميهاي أرجي هذه جدّ جذّابة، فسارعا نحو غرفتهما.

في هذه الليلة، حين كانت هي أرجي جديدة، وكانت في الوقت نفسه أرجي الذكرى التاريخية، وحين هزّته عميقاً رسالة زولتان باتاكي، وكانت حوله ذكرى الأخوين أولبيوش، نسي ميهاي عهوده السابقة، وأدخل إلى حياته الزوجية عناصر أراد ان يبقيها بعيدة دوماً عن أرجي. نحن نتكلّم عن الحب بطريقته الدارجة بين نوعيّة معيّنة من الشبّان المراهقين والفتيات العذارى، الذين يتدبّرون أمر متعتهم بسبلٍ موارِبة من دون تبعات. ثمّة أناس مثل ميهاي يحبّذون هذه الملذّات اللامسؤولة أكثر مما يحبّون المتع ذات الطابع الرسمي. لكن ميهاي يخجل بشدّة من هذا الاستعداد حتى أمام نفسه، لأنه كان على معرفة بمراهقته، وبقيودها. وحين بلغ مع أرجي درجة الألفة في الحبّ، اتخذ قراره بأن وصاله بها لن يكون إلا بطرقٍ مشروعة كما يليق بعاشقين جادّين ناضجين.

كانت هذه الليلة الفلورنسية الأولى من نوعها، والاستثناء الوحيد. استغربتها أرجي، لكنها تقبّلتها بصدرٍ رحب، وكافأت ميهاي على حنانه غير المعتاد. لم تفهم الأمر، ولم تفهم بعد ذلك كدره الساخر، وخجله.

سألته: «لماذا؟ كان الأمر ممتعاً حتى على هذا النحو، وفي جميع الأحوال، أنا أحبّك». وغفت.

والآن، كان ميهاي هو من لم يستطع النوم إلا بعد وقتٍ طويل. شعر أنه قد اعترف أخيراً بإفلاس زواجه، وانهيار حياته المشتركة مع أرجي. اعترف بأنه ليس بمقدوره، بعدُ، بلوغ حالة الاستقرار في الزواج، والأبشع من هذا كلّه أن أرجي لم تمنحه هذا القدر من المتعة كما الآن، حين لم يحبّها عشيقةً ناضجةً متيّمة، بل فتاةً مراهقةً تفتقر إلى النضج، كما خلال نزهة ربيعية على سبيل المثال.

نهض ميهاي من سريره، حين أيقن أنها مستغرقة في نومها، وخطا إلى منضدة الزينة حيث حقيبتها. فتّشها بحثاً عن الشيكات، لأن أرجي تولّت شؤون المحاسبة. عثر هناك على شيكَي البنك القومي. أحدهما باسمه، والآخر باسم أرجي بالمبلغ نفسه. أخرج الشيك الخاص به، ووضع مكانه ورقة أخرى بالقياس نفسه، ثم دسّ الشيك في محفظته وعاد إلى النوم.

- ٦ -

وفي صباح اليوم التالي تابعا رحلتهما إلى روما. غادر القطار فلورنسا ودخل الأنحاء التوسكانية، مخترقاً التلال الربيعية الخضراء. كان يمضي بطيئاً، متوقفاً عشر دقائق عند كلّ محطة، يترجّل خلالها المسافرون من القطار، وحين يتهيّأ للانطلاق، يعودون إليه وهم يتحدّثون ويضحكون.

قال ميهاي: «انظري كم من الأشياء يراها المرء هنا إن أطلّ عبر النافذة، وكأنه في بلدٍ آخر! لا أدري كيف. هل الأفق هنا أكثر

رحابة، أم أن الأشياء هي الأصغر؟! أراهن أن المرء يرى هنا خمسة أضعاف من القرى، والمدن والغابات، والأنهار، والسماوات والغيوم، وكأننا في النمسا مثلاً».

قالت أرجي التي كانت تشعر بالنعاس، ووتَرها افتتان ميهاي بإيطاليا: «فعلاً! لكن النمسا أجمل. كان ينبغي أن نذهب إلى هناك».

- إلى النمسا؟ - صرخ ميهاي. أحسّ بالإهانة وكفّ عن الكلام.

- ضع جواز سفرك في الحقيبة. نسيته على الطاولة مجدّداً.

توقف القطار في كورتونا. حين شاهد ميهاي المدينة الصغيرة أحسّ أنه رأى الكثير مثلها في ما سبق، وهو الآن يستمتع بمشاهدتها مرة أخرى.

- قولي لي لمَ ينتابني إحساسٌ بأنني أمضيت جزءاً من شبابي في مدنٍ جبلية؟!

لكن أرجي لم تُجِب عن سؤاله هذا، بل قالت:

- سئمت السفر الكثير. صرت أحبّ أن أكون في كابري. سآخذ هناك قسطاً من الراحة.

- كابري! بل من الأمتع الترجّل هنا في كورتونا، أو في أيّ مكان آخر، خارج برنامج الرحلة. الموقف القادم في أريزو مثلاً. أريزو! من الرائع وجود أريزو في العالم، وليس دانتي من اخترعها حين شبّه لاعبي الخفّة بالشياطين، الذين عملوا من مؤخراتهم أبواقاً. تعالي، دعينا نترجّل في أريزو!

- مستحيل! ننزل هنا لأن دانتي كتب مثل هذه الحماقات؟ أريزو عشٌ صغير أغبر، لا بدّ أن فيها كاتدرائية من القرن الثامن، وقصر بلدية، وصورةً لديكتاتور في زاوية، ولوائحَ قوميةً مناسبة، وكثيراً من المقاهي، وفندقاً باسم ستيلا دي إيطاليا. لا أملك الفضول لرؤية ذلك. سئمته. أحبّ أن أكون في كابري.

- حسنٌ. ربما يرجع السبب إلى زياراتك العديدة لإيطاليا، ولم يعد يغمى عليك إذا ما شاهدت صورة فرا أنجليكو أو جبنة بيل بايزي. أما أنا فأشعر أنني أرتكب خطيئة قاتلة إن لم أترجّل عند كلّ محطة. السفر بالقطار من أتفه الأمور. كان علينا المشي، أو التنقّل بعربة البريد على الأقل، كما فعل غوته. أمر قاصم للظهر أنني كنت في توسكانا لكنني لم أكن هناك حقاً. وها أنذا أمرّ قرب أريزو، حيث سيينا في مكانٍ ما هنا، ولم أزرها. من يدري ما إن كان سيتسنّى لي الوصول مرة أخرى إلى سيينا، إن لم أزرها الآن؟

- أجل، اعترف. لم تعترف في البلد أنك مقلّد لغيرك. ما المشكلة إن لم تشاهد ما هو بدائيّ في سيينا؟

- من قال لك إنني فضوليّ لمشاهدة البدائيات في سيينا؟

- وما الذي تبغيه إذاً في سيينا؟

- لا أدري. لو كنت أدري لما أثارني الأمر. لديّ إحساس أنني في سيينا سأشاهد ما يجعل كلّ شيء على ما يرام.

- أنت مجنون، تلك هي المشكلة.

- ممكن. وجائع أيضاً. ألديك شيء ما؟

- ميهاي! صرت نهماً منذ أن وطئنا أرض إيطاليا. الآن تناولت الفطور.

وصل القطار إلى ما يسمَى محطة تيرونتولا.

- سأنزل هنا وأتناول القهوة.

- لا تنزل! أنت لست إيطالياً. سيرحل القطار قبل أن تعود.

- وكيف له أن يرحل! يتوقف ربع ساعة عند كلّ محطة. إلى اللقاء! رافقك الله!

- إلى اللقاء، أيها القرد، اكتب لي!

ترجّل ميهاي. طلب القهوة. وفيما كانت آلة الإسبرسو تسكب عصارة القهوة الساخنة، تحدّث مع أبناء البلد الإيطاليين عن معالم بيروغيا، ثم شرب القهوة.

قال زميله الإيطالي: «هيّا فلنسرعْ! القطار ينطلق!».

حين لحقا بالقطار كان نصفه قد جاوز المحطة، فتعلّقا بمشقّة في عربته الأخيرة. كانت عربة قديمة من الدرجة الثالثة، لا ممشى يتخلّلها. كانت عالماً خاصّاً مغلقاً.

فكّر: لا بأس. في المحطة القادمة سأصعد إلى عربتي.

سأله ابن البلد اللطيف: «تسافر إلى بيروغيا للمرة الأولى؟».

- بيروغيا؟ أنا لا أسافر إلى بيروغيا. للأسف لا.

- أنت، إذاً، ستتابع رحلتك حتى أنسونا. بئس ما تفعل! الأفضل أن تترجّل في بيروغيا. مدينة قديمة جداً.

- لكنّي مسافرٌ إلى روما.

- إلى روما؟ إنك تهذر أيها السيد.

سأل ميهاي وقد ظنّ أنه أساء فهم كلمة «تهذر» بالإيطالية: «ماذا؟».

صرخ الإيطالي: «تهذر! هذا القطار لا يذهب إلى روما. لا. لا. أنت شخص مضحك».

- ولم لا يكون القطار يذهب إلى روما؟ أنا وزوجتي صعدنا القطار من فلورنسا، وكان عليه لائحة تقول إلى روما.

قال الإيطالي بقدرٍ من الاستمتاع وكأنه يسمع أفضل فكاهة في حياته: «لكن هذا ليس ذاك القطار. انطلق قطار روما قبله. هذا قطار بيروغيا - أنسونا. عقدة تفرّع السكّة الحديدية في محطة تيرونتولا. هناك بوسع السنيور السفر إلى روما!».

- أمرٌ مثير!

قال ميهاي، وتطلّع حائراً من النافذة، ليشاهد بحيرة تراسيمنو لعلّ حلّاً ما يجذف على سطحها.

حين استحوذ الليلة الفائتة على شيكه وجوازه، خطر له -ولو ليس على نحو جدّيّ تماماً- أنه ربما يحصل أن ينفصلا أحدهما عن الآخر. حين نزل من القطار في تيرونتولا، راودته فكرة أن يدع أرجي تتابع رحلتها في القطار. أما الآن، وقد حصل ذلك

فعلاً، فقد شعر بالمفاجأة، والارتباك. لكنه قد حصل وانتهى الأمر.

سأله الإيطالي: والآن، ماذا ستفعل؟

- سأترجَل في أقرب محطة.

- لكنه قطار سريع، لا يتوقف إلا في بيروغيا.

- سأنزل إذاً في بيروغيا.

- قلت لك إنك مسافر إلى بيروغيا. مدينة قديمة. حاول أن تشاهد ما يحيط بها من مناطق!

فكّر ميهاي: حسناً، أنا مسافر إلى بيروغيا. لكن ماذا ستفعل أرجي في ما بعد؟ من المحتمل أن تستأنف رحلتها إلى روما، وتنتظرني قادماً في القطار التالي. ولكن قد تترجل في المحطة التالية. وربما تعود إلى تيرونتولا، ولن تجدني. من الصعب أن يخطر لها أنني سافرت في قطار بيروغيا. أجل، من الصعب أن يخطر لها ذلك. إن ترجَل الآن في بيروغيا، من المؤكد أن أحداً لن يعثر عليه على مدى يومٍ أو يومين. وربما أكثر من هذه المدة إن لم يبقَ في بيروغيا، وغادرها.

من حسن الحظ أن جواز سفري بحوزتي. أمتعة؟ سأبتاع لنفسي قميصاً، وبعض الأشياء، والملابس الداخلية الجيدة ورخيصة الثمن في إيطاليا، وكنت سأشتريها في جميع الأحوال. والنقود... ما حالنا والنقود؟

أخرج حقيبته وعثر فيها على الشيك.

صحيح، الليلة الفائتة... أصرفه في بيروغيا. هناك سأجد مصرفاً يقبل بالشيك. أجل.

انسحب إلى الزاوية، ونام بعمق. وأيقظه الإيطالي الودود ما إن وصلا إلى بيروغيا.

(*) عملة مجَريّة سابقة. (المترجم).

(**) هي قصة شعبية مجرية حول بناء قلعة Deva. تقول إن القلعة التي كان يحاول Kőműves Kelemen بناءها كانت تسقط مرةً تلو مرة، فيُجبر على التضحية بزوجته الحبيبة ووضعها ضمن الجدران لتقف القلعة. (المترجم).

(***) بالإيطالية، ومعناها: كوميديا الفن. (المترجم).

(****) سياسيّ مجريّ، ورئيس وزراء. (المترجم).

(*****) شاعران مجريّان شهيران. (المترجم).

(******) مجموعة إثنية لغوية هند-أوروبية. (المترجم).

(*******) هي جبهة تقدمية معارضة من الفنانين وطلاب الجامعة (1937-1938). بدأت حركة فكرية وعملت أيضاً في الحياة السياسية قبل أن يهزمها اليمين. (المترجم).

(********) ميهاي كاروي (1875-1955): مالك أراضٍ وسياسي. دعا لاستقلال المجر عن الملكية، وللإصلاحات الديمقراطية. انتخب في عام 1919 رئيساً للوزراء، بالتزكية الشعبية، لكنه استقال من منصبه لصالح الأحزاب العمالية، ثم هاجر. (المترجم).

(********) تعتبر قبة كاتدرائية فلورنسا أحد أهم الإنجازات المعمارية التي حققها عصر النهضة، إذ بُنيت القبة من دون استخدام التوسّط (بنية خشبية أو حديدية) لدعم البناء. (المترجم).

الفصل الثاني: المتواري

نمر، نمر، لهب أصفر

في غابة ليلتنا

ويليام بليك (William Blake)

- ١ -

انداح خلال أيّام غطاءً مزهِرّ، فوق سهل أومبريا الفسيح الذي تتربّع بيروغيا على منضدةٍ صخرية منه تحتلّ أحد أركانه، وبرزت في ركنه الآخر مدينة أسيسي البيضاء مستلقيةً على جبل سوباسيو الهائل. نشرت أشجار الفاكهة بهجة الفصل المنداحة في كلّ ناحية، وشاطرتها هذه البهجةَ أشجارُ الفريز بأغصانها الملتوية، وأشجار الزيتون بخضرتها الفاتحة، وتلك الأشجار الضخمة التي لم يعرف أحدٌ أن يفيد ميهاي باسمها. في النهار كان بوسع الماشي أن يتجوّل مرتدياً قميصاً خفيفاً، أما الأماسي فكانت باردة، لكنْ إلى حدٍّ غير مزعج.

وصل ميهاي ماشياً إلى أسيسي قادماً من سبيللو، وصعد إلى روكا أعلى نقاط المدينة، وأصغى، مستنداً على جدار أنقاض قلعةٍ قديمة، إلى الشروح التاريخية من قبل شابٍّ إيطاليٍّ ناضجٍ ووسيم.

مضت ساعاتٌ وهو يتأمّل المشهد الأومبيري مغموراً بالسعادة. وفكّر: أومبريا مختلفة تماماً عن توسكانا. أكثر «فلّاحيّةً»، وأقدم، وأقدس، وكأنها أكثر قتامة أيضاً.

الأرض الفرنسيسكانية. مدينة جبلية بالكامل. في بلادنا عمد الناس دائماً إلى البناء في الأودية تحت الجبال، ولكن الإيطاليين هنا أقاموا على الجبال، فوق السهل. تُرى، أيُّ صورة للعدوّ القديم كانت في أذهان المؤسّسين البناة؟ أيُّ رعب جعلهم يفرّون دائماً إلى الأعالي، ليحتموا بجروف الصخور الحادّة؟ أينما وجدوا تبّةً برزت في السهل، سارعوا إلى بناء مدينةٍ فوقها.

وهنا كلّ مكان مدينة. لو أن سبيللو مثلاً في بلادنا لكانت قريةً صغيرة بائسة، لكنها هنا مدينه منظّمة، تبدو مدينة حقيقية بكاتدرائية ومقهى، أكثر مما هي «سولنك» أو «هاتفان»(*********)، مثلاً. ولا بدّ أن يكون رسامٌ عظيم قد وُلد هنا، أو جرت معركة كبيرة إلى جوارها.

الأنحاء الإيطالية ليست تلك الأنحاء الـ«فقط ودودة» أو الـ«فقط حلوة» كما تخيّلتها. الأمر هنا في أومبريا مختلف. شيء ما كئيب، شيء ما قاتم وخشن كأشجار الغار. وإيطاليا الخشنة هذه هي الجذابة. وربما بجبالها الجرداء الضخمة. لم أتصوّر وجود هذا الكمّ الهائل من الجبال الشاهقة في إيطاليا. ما يزال الثلج قابعاً في قمة جبل سوباسيو.

انتزع غصناً من الشجرة التي لا يعرف اسمها، وهبط إلى المدينة الصغيرة بهمّةٍ عالية. جلس أمام مقهى قبالة كنيسة منيرفا التاريخية التي شاهدها غوته في رحلته الإيطالية. طلب مشروب «فيرموت». وسأل النادلة الشابة عن اسم هذه الشجرة التي يحمل فرعاً منها.

«ساكسيفراغا»، أجابت الشابة اللثغاء، بعد تردد بسيط. ثم كررت: «ساكسيفراغا. هذا ما يسمّونها عندنا في ميلانو على

الأقل. كلّ التسميات هنا مختلفة!»، أضافت بنبرة مليئة بالازدراء.

وفكّر ميهاي: يستحيل أن يكون لها هذا الاسم. ساكسيفراغا سيكون الاسم الإيطالي لوردة الصخور، قد تكون هذه شجرة يهوذا.

لكنه كان مسروراً بغضّ النظر عن كلّ هذا. السهل الأومبيري فاض بالبهجة، تلك البهجة الفرانسيسكانية المتواضعة. وكما لو كان يحلم، فقد شعر أن الأمور المهمة لا تحدث هنا، بل في مكانٍ آخر، ربما هناك فوق في ميلانو من حيث جاءت منفيّةً هذه المرأة اللثغاء، أو هناك حيث أرجي الآن، لكن سعادة إضافية غمرته لأنه الآن ليس في تلك الأماكن حيث الأمور المهمّة، بل في مواقع أخرى مختلفة «خلف ظهر الله».

وبمجيئه إلى أسيسي صار يحدوه الأمل عسى أن يعثر على أرفين. أرفين الذي تشاطر معه في فترة الشباب قراءة كلّ ما تيسَّر لهما عن قدّيس أسيسي العظيم. أرفين الذي صار راهباً فرنسيسكانياً. لكنّه لم يعثر على أرفين، كما لم تستطع الكنائس الفرانسيسكانية أن تثير فيه ما كان يختزن من تقوى في شبابه، حتى كنيسة سانتا ماريا التي تحوي ضريح القدّيس. لم يمكث هنا حتى المساء، لأنه خشي من أن يصل إليه فجأةً الباحثون عنه في هذا المقصد السياحي المركزي. تابع السفر حتى وصل مساءً إلى سبوليتو.

تناول عشاءه هنا، لكن النبيذ لم يَرُق له. لهذه الخمور الحمراء الإيطالية أحياناً طعم الكحول، أو رائحة الثوم، ولكنّها فاخرة المذاق لسببٍ لا يعلمه إلا الله، في أحيانٍ أخرى. أصابه الكدر حين تبيّن له بعد تسديد الحساب أن ما بادله من النقود في

بيروغيا سوف ينفد فجأةً، على الرغم من سياسة التقتير التي اتبعها، ولا يدري ما الذي سوف يفعله في هذه الحالة. العالم الخارجي الذي تخلّى عنه بعيداً في بيروغيا أو في السهل، بدأ يتقطّر هنا مجدّداً.

استأجر غرفةً رخيصة في نزلٍ رخيص -الخيارات معدومة أساساً في هذا المكان الصغير- ثم تجوّل قبل العشاء لبعض الوقت في أزقّة سبوليتو. حجبت الغيوم القمر فعمّت الظلمة، وأحاطت به أزقّة المدينة السوداء من كلّ ناحية على نحوٍ خانق، لا كما عانقته أزقّة البندقية الوردية اللون. وصل إلى جزء من المدينة حيث الأزقّة أكثر ظلمة ووعيداً. وصارت الأدراج المفتوحة تفضي إلى أبوابٍ أكثر غموضاً. بالكاد كان من الممكن رؤية الناس هنا، فأضاع طريقه. وعندئذٍ خالجه إحساسٌ مفاجئ في أن أحداً يتبعه.

استدار: كان الشخص المعنيّ ينعطف لتوّه عند ناصية الشارع. قامة فارعة الطول بثيابٍ قاتمة. تملّك ميهاي خوفٌ غامض، ودخل فجأةً في زقاقٍ أضيق وأكثر حلكةً من كلّ ما سبق من أزقّة.

لكن الزقاق كان مسدوداً، فكان على ميهاي أن يعود أدراجه. عندئذ كان الغريب صار واقفاً عند مدخل الزقاق الضيق. تقدّم ميهاي نحوه بخطواتٍ متردّدة، وما إن رأى هيئة الغريب بجلاء، حتى توقّف مذعوراً. كان الغريب يرتدي سترةً قصيرة سوداء، كما درجت العادة في القرن الماضي، وفوقها شالٌ حريريّ أبيض، مع ابتسامةٍ مطبوعة على وجهه الأجرود الطريّ العجوز المجعّد. فتح ذراعيه قليلاً نحو ميهاي، وقال بصوتٍ حادٍّ رقيق: «زاكوموا!»، أو ما يشبه اسماً كهذا.

فقال ميهاي: «لست زاكومو».

عندئذ تبيّن للغريب صحّة الأمر، وانصرف وسط اعتذاراتٍ مكثّفة. وتبيّن الآن لميهاي أن الابتسامة التي لا توصف، المرتسمة على وجه العجوز كانت بلهاء.

لم يهدَّئ من روع ميهاي أن مغامرته قامت على خوفٍ لا معنى له البتّة، وانتهت على نحوٍ يثير الضحك، بل إن هذه الحادثة الحمقاء جعلته يستنتج أنه ملاحَق، وأن هنالك من يقتفون أثره. تملّكه الذعر وهو يسلك طريق العودة إلى النزل. سارع إلى غرفته، وأوصدها، سادّاً الباب بصندوق. ظلّت الغرفة مخيفةً مع ذلك. من جهة لأنها كانت شديدة الاتساع بالنسبة لشخص واحد، ومن جهة ثانية لأنه لم يستطع أن يتكيّف مع فكرة وجود أرضيات حجرية في الفنادق الصغرى في إيطاليا. شعر بنفسه وكأنه معاقب بالنفي إلى المطبخ وهو في سن الطفولة، وإن لم يحصل معه مثل هذا. للمرة الثالثة وقعت الغرفة في طرف المدينة الجبلية، وتحت نافذتها ينحدر جدار صخري بارتفاع مئتي متر. وبطريقة غير مفهومة كان إلى جانب النافذة بابٌ زجاجيّ مثبّت في الجدار، من المرجّح أنه كان ذات يوم مفتوحاً على شرفة، لكن الشرفة كانت قد أزيلت منذ العهود التاريخية، أو سقطت بنفسها وبقي الباب مفضياً إلى الفضاء الخارجي بارتفاع مئتي متر. غرفة مناسبة لا يقاوم بابها بالنسبة للمنتحرين. إضافة إلى أن هذا الجدار الهائل الاتساع لم تعلّق عليه إلا لوحة وحيدة عبارة عن صفحة انتُزعت من إحدى المجلات تصوّر امرأةً في منتهى البشاعة بزيّ القرن التاسع عشر، والمسدّس بيدها.

خطر لميهاي أن جواز سفره بقي عند صاحب النزل الخبيث الوجه، الذي أبى إلا أن يحتفظ بالجواز طوال إقامة ميهاي. يبدو أن لصاحب النزل أسبابه وتجاربه المشؤومة مع النزلاء، النهاريين منهم والليليين. نزلاء النهار، من المحتمل، كما فكّر ميهاي، هم من الوسطاء التجاريين الخاسرين، ونزلاء الليل هم أشباح لصوص الأحصنة الذين يلعبون الورق ويقهقهون في المطعم المسمى «سالا دا برانزو» العابق برائحة الطبخ.

ولكن، مهما يكن من أمر، فإن الجواز سلاحٌ موجّه ضدّه، من شأنه أن يشي باسمه لمطارديه. وفراره من هنا متخلّياً عن الجواز أمرٌ مزعج، كالعَدْوِ بسروالٍ داخليّ، كما نفعل في أحلامنا. استلقى على السرير المريب من جهة نظافته. لم يغفُ كثيراً. نوم، أحلام يقظة، يقظةٌ قلقة. إحساسٌ بالمطاردة.

أفاق باكراً. نزل إلى الاستقبال. احتال على صاحب النزل، وسدّد فاتورته، وحصل على جواز سفره، وانطلق إلى المحطة. أعدّت له القهوة امرأةٌ يأخذها النعاس. بعد قليل من الوقت وصل عمّالٌ طليان ناعسون كذلك. لم يشأ القلق أن يدع ميهاي وشأنه. ظلت خشيته من القبض عليه تلاحقه. ارتاب من كلّ جندي، ومن كلّ ظاهرة بوليسية، إلى أن بدأ القطار يتحرك. تنفّس الصعداء وتهيّأ لقذف سيجارته، وصعود القطار. في هذه اللحظة تقدّم منه فاشيستيّ فتىً، وسيم على نحو لافت، وطلب منه ألا يرمي سيجارته قبل أن يشعل له منها.

- ecco - قال ميهاي وناوله السيجارة. لم يفكّر بأيّ سوء، خاصة أن القطار كان هناك.

- حضرتك أجنبي! -قال الفاشيستي الفتى- عرفت من لفظك لكلمة ecco. لي مثل هذه الأذن.

- براڤو! - قال ميهاي بإيطاليَته.

- حضرتك من المجرا! - تألّق الفاشيستي الفتى.

- سي، سي! - قال ميهاي مبتسماً.

في هذه اللحظة قبض الفاشيستي على ذراعه، بقوّةٍ ما كان ميهاي يتوقعها من فتىً كهذا.

- أووه! حضرتك الشخص الذي يبحثون عنه في سائر أرجاء إيطاليا! انظر! هذه هي صورتك! -قال، وسحب ورقة بيده الأخرى- زوجتك تبحث عنك!

انتزع ميهاي ذراعه وأخرج بطاقته الاسمية، وكتب عليها: «أنا بخير، لا تبحثوا عني!»، ناولها للفاشيستيّ الفتى مع ورقة نقدية بقيمة عشر ليرات.

- خذ! أرسل هذه البرقية لزوجتي. «أراك في ما بعد!»(*********).

وحرّر نفسه مجدّداً من يد الفاشيستي الذي كان قد قبض على ذراعه الثانية. صعد القطار، وأوصد الباب وراءه.

انطلق القطار الصغير نحو نورسيا صاعداً بين الجبال. حين ترجّل كانت تنتصب أمامه جبال سيبيليني بذُراها الشاهقة التي يزيد ارتفاعها على ألفي متر، وإلى يمينه جبال غران ساسو، أعلى سلسلة جبلية في إيطاليا.

قاده الذعر ليُيَمِّم شطر الذُّرا، كما قاد في الماضي بناة المدن الإيطاليين. هنالك فوق، في البراري الجليدية الثلجية، لن

يعثروا عليه. لم يعد يفكّر بأرجي. لا بل شعر أنه بتلك البرقية قد أنزل أرجي بالذات عن كتفيه، وتخلّص من عبئها. لكن أرجي واحدة من بين كثيرين، وهو لا يخشى مطاردة الناس له بقدر خشيته من مطاردة المؤسسات، وجيش السنين المرعب.

إنها الحقيقة! كيف كانت حياته خلال خمس عشرة سنة أخيرة مضت؟ لقد تلقّن المهنة في الوطن وفي الخارج. ليست مهنته الخاصة بل مهنة عائلته، مهنة أبيه وشركته، التي لم تكن تهمّه، لكنه انخرط في المؤسسة، وبذل جهده ليتلقّن تلك الملذّات اللائقة بأعضاء المؤسسة. تعلّم لعب البريدج، وقيادة السيارة، وحاول القيام بمغامراتٍ عاطفية لائقة بشريك في مؤسسة، إلى أن قابل أرجي التي كثر الحديث عن علاقته بها في المجتمع الراقي، بالقدر الذي تحتّمه الأقاويل عن شابّ صاحب شركة مرموقة. إلى أن تزوّجها أخيراً كما يجدر بعضو مجلس إدارة. امرأة جميلة، ذكيّة، غنيّة، مشهورة بعلاقاتها السابقة. من يدري، ربما يستغرق الأمر سنة واحدة فقط، ويقسو داخله، وسيصبح صاحب شركة معتبراً، كما يحصل لشخص ما «س»، الذي يصادف أن يكون مهندساً، ومع مرور الوقت مهندساً يصادف أن ينادى «س».

انطلق نحو الجبل ملتفّاً حول قرى جبلية صغيرة، كان سلوك قاطنيها لطيفاً، فلم يطاردوه، واستقبل كسائح له جنونياته، وربما لو التقاه مواطنٌ في اليوم الثالث أو الرابع من مسيرته، فمن المحتمل أن يعتبره مجرّد مجنون، وليس سائحاً. لم يعد يحلق ذقنه، ولم يغتسل، ولم يأوِ إلى النوم وقد خلع ثيابه النهارية. كان فارّاً. اختلطت الأشياء في داخله، هنا بين مسالك الجبال القاسية الضيّقة، وفي هذا الانعزال، الذي يفوق طاقة البشر. لم يتولّد في وعيه أوهى فكرة عن هدفٍ يرتجيه، وكلّ

ما يعرفه هو اللاعودة. إن كثرة الأشخاص والأشياء، والسنين، والمؤسسات، واكتظاظها في ذهنه، طمس فيه كلّ ما هو ملموس، ومحدّد، من الأشكال المتوحشة. أحسّ أن المصنع الأبويّ أشبه بقضيبٍ فولاذي هائل مُشهَر ومهيّأ للضرب، كما انتابه إحساسٌ بأنه لم يعد شابّاً، وسيشيخ قريباً، وأن بشرته بدأت بالتجعّد، وثمّة العديد من التبدلات التي تطرأ على جسده شيئاً فشيئاً، وبالسرعة نفسها التي يتحرّك بها عقرب الساعة الكبير.

كانت هذه تهيّؤات هذيانية، نتيجة الإنهاك، كما شخّص الأطباء لاحقاً. وأين الغرابة في ذلك، وميهاي لم يتوقف عن إجهاد نفسه طوال خمسة عشر عاماً؟

أجهد نفسه كي يكون أحداً آخر يعيش كما يشاء له الآخرون أن يعيش، لا كما يرغب هو في الحياة. وكان زواجه آخر هذه الإجهادات، وأكثرها بطولةً، وجاء بعده ذلك الشغف بالسفر والتجوال، وتلته هذه العملية المدهشة، في إيجاد الحلّ الذي ألهم به هنا، وأثاره المشهد الإيطالي في نفسه. إضافة إلى أن ميهاي لم يتوقف عن الشرب طوال فترة شهر العسل، ولم يأخذ كفايته من النوم، أمورٌ كثيرة تعاضدت لبلوغ هذا الانهيار. فضلاً عن أمرٍ أساسيّ: لا يخطر للمرء خلال تجواله كم هو مرهق، ولا يفطن للأمر إلا حين يجلس. لقد تراكم تعب ميهاي عبر خمسة عشر عاماً حتى بلغ ذروته القصوى حين استقلّ القطار الآخر، الذي ينأى به عن أرجي نحو العزلة، نحو ذاته.

وصل في إحدى الأماسي إلى بلدةٍ جبليّة أكبر من سواها. وكان في حالةٍ نفسيّة جعلته لا يستعلم عن شيء بعدما عرف اسم المدينة، لا سيما وقد لاحظ على نفسه أن كلّ ما يختزنه من

كلماتٍ إيطالية غابت عن ذاكرته في ظهيرة ذلك اليوم. إذاً، ليس من الضروري أن نحفظ حتى اسم تلك البلدة.

انتصب في ساحة المدينة فندقٌ ذو مظهر أكثر حميميّة. دخل إليه وتناول عشاءه بشهيّة طبيعية: نوكي بصلصة البندورة، جبنة الماعز المحلية، برتقالة، نبيذ أبيض. ولكنه لمّا حان وقت تسديد الحساب، لاحظ أن الفتاة صاحبة النزل ترمقه بنظراتٍ مرتابة وتتهامس مع آخر رجلين في المطعم. خرج في الحال، وتسكّع قلقاً على جبل «مسياش» الواقع فوق المدينة. إلا أنه لم يستطع البقاء هناك لهبوب الرياح العاتية، فهبط على جانب التل الشديد الانحدار، حتى بلغ وادياً أشبه ببئرٍ عميق، حيث لا تهبّ الرياح، لكن الوادي كان خانقاً، وكئيباً، وعاتماً، فكان من الطبيعي أن يعثر هنا على عظامٍ بشرية، يتخلّلها تاجٌ ملكي، أو شعارٌ مما يدلّ على مأساة ما. كان ميهاي، حتى في حالته النفسية العادية، شديد التأثر بأجواء مثل تلك المشاهد، وتضاعفت الآن حساسيّته آلاف المرات. هرب عَدْواً من الوادي العميق، وبات الآن منهكاً. قاده مسلك صغير إلى تبّة طفيفة. وببلوغه التبّة توقف عند جدار واطئ. كانت منطقة حميمة جذّابة. قفز من فوق الجدار، فاستقرّ في حديقة على الأرجح -على قدر ما أتاحت له أضواء النجوم أن يراها حديقة- حيث انتصبت أشجار سروٍ جميلة. اتخذ من كومةٍ صغيرة عند قدميه وسادة طبيعية، فاستلقى، واستغرق حالاً في نوم عميق.

اشتدّ ضوء النجوم بعد حين. صارت النجوم تتلألأ وكأن اضطراباً استثنائياً استمدّ قوة من قبة السماء، فاستيقظ. جلس، وجال بعينين مرتابتين في الأنحاء التي ينيرها ضوء النجوم المخيف. كان تاماش يخطو نحوه من وراء شجرة سرو، شاحباً، كئيباً.

- عليّ الذهاب إلى البيت، لأني لا أستطيع النوم في ضوء النجوم المريع هذا!

قال ثم ذهب، ورغب ميهاي أن يجري وراءه، لكنه لم يقوَ على الوقوف، مهما بذل من جهد.

أفاق في الصباح بتأثير البرد، وعلى أشعَة الضوء الأولى، وجال بنظره في الحديقة. تحت كلّ شجرة سرو شاهدة قبر. كان نائماً في مقبرة البلدة، في سامبو سانتو. لا شيء مروّعاً في الأمر، لأن مدن الموتى الإيطاليين أكثر حميمية وجاذبية من مدن الأحياء، وفي النهار كما في الليل. لكن ذلك كان له معنى رمزيٌ مرعبٌ بالنسبة لميهاي. هرب عدْواً مرّة أخرى. ومن هذه اللحظة فصاعداً يمكن القول إنها فورة المرض. وكل ما حصل معه بعد ذلك، لم يستطع في ما بعد أن يتذكّر شيئاً منه.

لليوم الرابع، أو الخامس، وربما لليوم السادس، والغروب يحلّ عليه وهو في المسلك الجبلي. لقد فتنته الظلال الذهبية، والوردية، للشمس الغاربة، وهو الآن في حالته المحمومة، أكثر مما فتنته في سِني اتّزانه. لأن حالة الاتزان والتعقّل لديه تجعله خجلاً من التناغم مع الألوان السماوية المعتادة القديمة غير المناسبة على الإطلاق. وحين هبطت الشمس إلى ما وراء الجبل، مدّ يده فجأة وتشبّث بصخرة يحدوه الاعتقاد أنه بوقوفه على هذه القمة سوف يتمكّن من رؤية الشمس لفترة أخرى أيضاً. لكن يده الحمقاء أمسكت بمكانٍ رديء، فسقط في الخندق على موازاة المسلك، ولم يكن يملك العزيمة للنهوض، فظلّ مستلقياً هناك.

ومع اقتراب الفجر، مرَّ هنالك الباعة المتجوّلون على بغالهم، فلمحوا النائم في نور القمر. عرفوا فيه الغريب النبيل، وأنزلوه

إلى القرية بكلّ احترامٍ وتعاطف، ثم نقلته الجهات المسؤولة بعد تنقّلات عديدة إلى مشفى فوليغنو، من دون أن يعرف شيئاً عما يجري.

- ٢ -

حين صحا لم يتذكّر أي كلمة إيطالية. سأل الممرضة باللغة المجرية أين هو، وكيف جاء إلى هنا. لم تُجب الممرضة بالطبع، فتبيّن له -ولم يكن ذلك شاقّاً- أنه في المستشفى. كما تذكّر ما كان عليه من حالةٍ غريبة بين الجبال، فاطمأنّ. لكن أمراً وحيداً دفعه الفضول لمعرفته: ما خطبه؟ لم يكن يشعر بألم، لكنه كان في منتهى الوهن والإرهاق.

ومن حسن الحظ أن طبيباً «نصف إنكليزي» كان في المستشفى، هو من استُدعي إلى سريره. أمضى ميهاي فترة طويلة في إنكلترا فامتزجت اللغة الإنكليزية بدمه فلم ينسَها الآن، ولذلك تفاهما جيداً.

قال الطبيب: «لا شيء البتّة! مجرّد إرهاق شديد. ماذا فعلت حتى أُرهقت إلى هذه الدرجة؟».

تساءل ميهاي متأملاً: «أنا؟ لا شيء! عشتُ».

غفا. وحين أفاق شعر أن حالته أفضل. جاءه الطبيب الإنكليزي، وفحصه، وأفاده بأنه على ما يرام، وبوسعه أن ينهض بعد عدّة أيام.

اهتم ميهاي لأمر الطبيب، وأكثر من محادثته. ودَّ لو يعرف ما الذي جعله منهكاً بهذا القدر. وسرعان ما أقلقته فكرة أنه

سيشفى بعد عدة أيام، ويتحتّم عليه مغادرة المستشفى.

- هل لديك عمل تقضيه هنا في فوليغنو أو في جوارها؟

- لا، أبداً. ولم أكن أعرف أن فوليغنو على وجه البسيطة.

- أين تريد أن تذهب من هنا؟ ستعود إلى المجر؟

- لا، لا. أرغب في البقاء في إيطاليا.

- وما الذي تريد أن تفعله هنا؟

- لا فكرة لديّ.

- هل لديك أقارب، أو معارف هنا؟

- لا، لا أحد لي! - قال ميهاي، وانفجر بالبكاء من شدة وهنه العصبي.

أشفق الطبيب العطوف على حال الرجل الوحيد، وصار يخصّه بحبٍّ أكبر من ذي قبل. لم يبكِ ميهاي لعدم وجود صاحبٍ أو قريب، بل على العكس من ذلك، فالذي أبكاه كثرة أولئك، وخشيته من فقدان وحدته التي استمتع بها هنا في المستشفى.

صرّح للطبيب برغبته الدائمة في الإقامة في مشفى طوال حياته. طبعاً ليس باعتباره مريضاً يعاني من مرضٍ خطير، بل هكذا كما يقيم الآن لمعالجة خمولٍ وتعب لا إراديين، وبلا أي غاية أو رغبة، بل لمجرّد التغلب على ما يثقل المرء من أعباء إنسانية.

قال: «عبثاً، إيطاليا تمنحني كلّ ما طمحت إليه!».

تبيّن أن الطبيب كذلك شغوفٌ مثل ميهاي بالأحاديث التاريخية، فصار يمضي أوقاته إلى جانب سرير ميهاي كلّما سنحت له الفرصة.

عرف منه ميهاي الكثير عن أنجيلا دي فوليغنو، القدّيسة المتصوفة، أشهر بنات المدينة، المجهولة، على العموم، من قبل أبناء البلد. كما عرف الكثير عن الطبيب نفسه الذي كان له قصصه العائلية المغامرة كأي إنكليزي. كان والده ضابطاً بحرياً أصيب مرّةً بالحمّى الصفراء في سينغافورة. ومن شدّة ما عاناه في مرضه، اعتنق الكاثوليكية لمجرّد شفائه من المرض، لقناعته أنها الطريقة الوحيدة التي تنجيه من عذابات جهنم. فانصرفت عنه عائلته المتديّنة بالأنجليكانية، الأمر الذي جعل العجوز كارهاً للإنكليز، فاستغنى عن سلاح البحرية، ومارس الأعمال التجارية في إيطاليا، واقترن بامرأة إيطالية. أمضى ريتشارد أليسلي -وهذا اسم الطبيب- طفولته في إيطاليا. ورث والده عن جدّه الإيطالي ثروة محترمة، فأدخل والده أليسلي الفتى مدارس هارو وكامبريدج. وخلال الحرب عاد العجوز إلى سلاح البحرية الإنكليزية وسقط في معركة سكاغيراكي، وتلاشت ثروتهم، ومنذ ذلك الوقت يكسب أليسلي لقمة عيشه من عمله طبيباً.

قال الطبيب مبتسماً: «لم يبقَ لي شيء من أبي إلا خوفي من نار جهنّم!».

تبدّلت الأدوار. أمور شتّى تخيف ميهاي، باستثناء جهنّم، فلم تكن تعنيه حياة الآخرة. أما خوف الطبيب فلم يكن ناجماً عن

إحساس بالذنب: كان روحاً نقية طيبة، لا يستطيع أن يوجّه لنفسه أيّ تهمة بارتكاب ذنبٍ ذي أهمية.

- إذاً، ما السبب الذي يجعلك تفكر بأن مصيرك نار جهنم؟

- يا إلهي! ليس لي أن أعرف لمَ سأدخل جهنّماً، لن أدخلها من تلقاء ذاتي، سيقودونني إليها في ما بعد.

- لا سلطة لإبليس إلا على الأشرار.

- يستحيل معرفة ذلك. هذا ما تقوله الصلاة أيضاً، كما تعرف: «أيها القديس ميكاييل كبير الملائكة، احرسنا في كفاحنا، وكن حمايةً لنا ضد شرور الشيطان وإغاظاته. نتضرّع إلى الله أن يردعه، وأنت يا أمير جيوش السماء، أهلِك، بقوة الله، الأرواح الشريرة الأخرى التي تسعى لإلحاق الأخطار بالنفوس!».

أثارت الصلاة في نفس ميهاي ذكرى كنيسة المدرسة، وتلك القشعريرة التي كانت هذه الصلاة تولّدها لديه في سن المراهقة. لكن ما جعله يقشعرّ ليس الشيطان، أو الهلاك، بل تاريخية الصلاة الموغلة في القدم، على الرغم من أن الكاثوليكية كانت حديثة العهد بالنسبة له، لكن الصلاة كانت كأنها باقية منذ عهود سحيقة القدم.

حين ألمّت به مخاوف جهنّم، لجأ إلى الرهبان والكهنة ليعتقوه من ذنوبه. لم يكن العلاج ناجعاً، لأنه، من جهة، لم يشعر أنه مرتكبٌ للذنوب، فلم ينفعه الاعتراف. أما من جهة ثانية فقد كان من لجأ إليهم كهنةً بدائيين إلى حدٍّ كبير، فلم ينقطعوا عن تذكيره بفظائع جهنّم المرعبة، ففاقموا بذلك سوء حالته. لكن التمائم ووسائل السحر أعطت مفعولها الإيجابي عليه. في

إحدى المرات، بخَرته امرأة تقيَة بأبخرة عشبةٍ مقدَسة، فظلَ هادئاً على إثرها مدة شهرين.

- ولكن ألا تخاف مطلقاً؟ كيف تفكر، ماذا يحدث للروح بعد الموت؟

- لا شيء.

- ولا تأمل بالخلود والحياة الأبدية؟

- أسماء العظماء تبقى خالدة، وأنا لست عظيماً.

- وتحتمل الحياة هكذا؟

- هذه مسألة أخرى.

- لا أدري كيف يمكنك أن تعتقد أن من يموت يزول تماماً. مع أن هنالك آلاف البراهين التي تثبت عكس ذلك. يذكرها لك كلّ إيطاليَ، وكلّ إنكليزيَ. لا أحد في هذين البلدين إلا وقابل الموتى، لا بدّ أنهما أجمل شعبَين. لا أدري ما نوعية المجريَين.

- هل قابلتَ موتى؟

- كيف لا؟! مرّاتٍ عدّة.

- كيف؟

- لن أخبرك، فقد يثيرك الأمر. لكن حادثة واحدة كانت بسيطة بحيث لا تؤثّر عليك. كنت قبل الحرب أتلقّى تعليمي في هارو. وفي ذات يوم وأنا مستلقٍ في سريري بسبب أنفلونزا أصابتني، وأنظر من خلال النافذة، وإذا بأبي يجلس على عتبة النافذة،

بزيّه الرسميّ، زيّ ضابط البحريّة، ملقياً التحية العسكرية. الفارق في الأمر أن على قبعته العسكرية جناحين كما جرت العادة في تصوير الإله عطارد في الرسوم. قفزت من السرير وفتحت النافذة، لكنه كان قد اختفى. وقعت الحادثة عصر ذلك اليوم الذي سقط فيه والدي صباحاً. من الصباح حتى العصر، الفترة التي استغرقتها المسافة لوصول الروح من شغاكر إلى هارو.

- والحادثة الثانية؟

- أشدُّ غموضاً بكثير، وقعت في غوبيو منذ مدّة ليست ببعيدة. لكنني قطعاً لن أخبرك بها الآن.

- غوبيو؟ كأنه اسم معروف عندي.

- من سيرة القدّيس فرانسيس، من فيوريتي.

- أجل، حقاً! الذئب الغوبياني الذي عقد معه القديس فرانسيس اتفاقية كي لا يؤذي سكان المدينة الذين يؤمّنون له ما يحتاج من زاد...

- أجل، وكان الذئب يُشاهَد كلّ مساء يطوف على منازل غوبو منزلاً منزلاً، والسلّة الصغيرة حول عنقه لتجميع هبات المحبّة.

- وغوبيو موجودة حتى يومنا هذا؟

- كيف لا؟ إنها بالقرب منا، قم بزيارتها حالما تشفى. الأمر يستحق، لا بسبب ذكرى الذئب فحسب.

وتحدّثا مطوّلاً عن إنكلترا، وطن الدكتور أليسلي الثاني، الذي يشتاق إليه كثيراً. وكذلك ميهاي، أحبّ إنكلترا أيّما حبّ. أمضى هنالك سنتين حالمتين خطيرتين قبل أن يأتي إلى باريس، ثم إلى أرض الوطن. مارس في لندن طقوس العزلة العربيدة، وظلّ لأسابيع بطولها لا يكلّم أحداً، حتى العمال الذين يمضي أوقاته بصحبتهم في حانات طوق المدينة، أحبَّ مناخ لندن الرهيب، ورخاوته الضبابية الرطبة، الحميمية، المخلصة لمن يتوق إلى العزلة.

- نوفمبر في لندن ليس شهراً من الشهور، بل حالة روحية.

قال ميهاي، ووافقه أليسلي، واستحسن عبارته، فأضاف ميهاي:

- خطر لي الآن أنني، في شهر نوفمبر، مررت بتجربة قوّت في أشخاصٍ من أمثالك الإيمان بأن الموتى حاضرون بيننا بطريقة ما. في حين لا تقوّي فيّ إلا الشعور بأن هنالك خطباً ما سيطول جملتي العصبية. أصغِ إليّ! قبل ظهر أحد الأيام، في شهر نوفمبر، كنت في عملي داخل المصنع حيث دعيتُ على الهاتف. طلب مني صوت امرأة مجهولة أن أحضر حتماً إلى مكان كذا وكذا، لأمرٍ في منتهى الأهمية -ذكرت لي عنواناً واسماً مجهولين - رفضت طلبها بحجّة أنها تتصل برقم خاطئ. «لا، أبداً» - قال الصوت النسائي. «أتصل بشخص مجريّ لطيف يعمل متطوّعاً في مصنع بوتروويد. هل يوجد متطوّع آخر بهذا الاسم؟». قلت: «لا، لكن قولي ما الذي تبغين مني؟». فقالت إنه ليس بإمكانها أن تقول... وتحدّثنا مطولاً، ووعدتها أخيراً أنني سأذهب.

وذهبت فعلاً بدافع الفضول. وهل ثمة رجل لا يثيره صوتُ نسائيّ مجهول، لطيف ورنّان على الهاتف؟ النساء إذا ما كنّ

على معرفة بالرجال، فإنهن يطلبن كلّ شيء منهم على الهاتف. يقع شارع رولاند في لندن في منطقة ذميمة وراء شارع توتنهام كورت، شمال سوهو حيث يقطن أولئك الفنانون والعاهرات الذين لم يعد يناسبهم السكن في سوهو أو في حيّ بلومزبري. لست أكيداً، لكن من المحتمل أن يكون هذا الحيّ في لندن منطقة يسكن فيها مؤسسو المذاهب، والغنوصيون، والروحانيون المتواضعون. كل ما في الحيّ يعبّر عن الانحدار الديني. وباختصار، كان عليّ أن أحضر إلى هذا المكان، ولعلمكَ أنا متجاوب حيال أجواء الشوارع والأنحاء. حين كنت أجوب الشوارع المظلمة بحثاً عن رولاند ستريت في الضباب الحليبي الناصع البياض، النوفمبري الحقيقي، انتابني إحساس الانحدار الديني، حتى حسبت نفسي مصاباً بدوار البحر.

وأخيراً وجدت المنزل، ووجدت على لائحة إلى جانب المدخل الاسم الذي ذكره لي الصوت المجهول على الهاتف. رننت الجرس، وسمعت بعد قليل صوت أقدام متثاقلة. وفتحت لي الباب خادمة قذرة نائمة.

سألت: «ماذا تريد؟».

قلت مرتبكاً: «لا أدري».

وعندئذ، كأن أحداً ما ناداها من بعيد. سرحت الخادمة في تفكيرها، ولم تنبس بكلمة طوال لحظات، ثم قادتني إلى سلّم صغير قذر، وقالت لي على الطريقة الإنكليزية: «سِرْ على طول إلى الأمام». وظلّت هي في الأسفل.

رأيت في الأعلى باباً مفتوحاً، وغرفة عاتمة، خالية من أيّ أحد، لكن الباب المقابل كان ينطبق لتوّه، كأن أحدهم خرج منه في

هذه اللحظة، واتبعت تعليمات الخادمة فعبرت الغرفة وفتحت الباب الموصد، بلغت غرفة أخرى عاتمة قديمة غبراء خالية أيضاً من أيّ أحد، لكن الباب المقابل كان أيضاً ينطبق لتوّه كأن أحدهم خرج منه، فعبرت الغرفة، وفتحت الباب الثالث إلى الغرفة الرابعة، وكانت الأبواب دوماً تنطبق أمامي بهدوء كأن أحداً يسير أمامي حتى بلغت أخيراً الغرفة الخامسة... ومن المبالغة أن أقول «أخيراً»، لأن الغرفة الخامسة كانت أيضاً خالية ولم يكن فيها أحد، غير أن باباً لم ينطبق أمامي. كانت غرفة من باب وحيد هو الذي دخلت منه، لكن الذي كان سائراً أمامي لم يكن في الغرفة.

كانت الغرفة منارة بمصباح، وخالية من الأثاث سوى من كرسيَّين. وتدلّت على جدرانها لوحات، وسجد، وشتى أنواع الأغراض التي فات أوانها. جلست على كرسيّ متردّداً، وانتظرت طائفاً بعينيّ حولي مضطرباً وقد أيقنت أن أمراً غريباً سيحدث.

لم أدرِ كم من الوقت أمضيته في جلستي حين بدأ يشتدّ خفقان قلبي، بعد أن عثرت على ما كنت أبحث عنه من دون وعي. منذ أن وطئت قدماي هذه الغرفة شعرت أنني مراقب. والآن وجدتها، عُلّقت على أحد الجدران سجادة يابانية رُسم عليها التنانين، وأنواع الحيوانات التي شخصت عيونها بكريات زجاجية ملوّنة كبيرة توضّعت فيها. رأيت الآن أن عيني أحد الحيوانات ليستا كريّتين زجاجيتين، لكنّهما عينان تنظران إليّ. والأحرى أن أحداً كان يقف وراء السجادة ويرمقني.

خطرت لي قصص حصلت في لندن عن اختفاء غرباء بلا أثر. وهكذا بدأت قصتي لتنتهي بمثل حوادث الاختفاء تلك. كان من

الطبيعي أن أصاب بالذعر، وأن تنتابني الظنون بفعلٍ إجراميّ، فكان عليّ أن أتخذ موقفاً دفاعياً. لكني لم أفعل. وبقيت بلا حراك متجمّداً في جلستي، لأن العينين كانتا مألوفتين بالنسبة لي.

- كيف؟

- كانت العينان عينَي صديقي في سن المراهقة، تاماش أولبيوش، الذي مات في ريعان شبابه في ظروف مأساوية غامضة. زال جزعي خلال لحظات، واعتراني شيء من السعادة المشوبة بالتوتر. «تاماش!» صرخت، وهممت لكي أسارع إليه، لولا اختفاء العينين في اللحظة نفسها.

- وما الذي حصل بعد ذلك؟

- لا شيء. ما حصل بعد ذلك لا قيمة له. دخلت امرأة عجوز إلى الغرفة، وكانت امرأة واسعة العينين ذميمة عفا عليها الزمن، ووجّهت إليّ بملامحها الباردة بعض الأسئلة. لم أفهم عليها لأنها لم تتحدّث بالإنكليزية، حاولت أن أكلّمها بالفرنسية، والألمانية، وحتى بالمجرية، لكن اكتفت بأن هزّت رأسها آسفة. ثم قالت شيئاً بلغة غريبة، لكن هذه المرة بحيوية متنامية، وبأسئلة كثيرة حاصرتني. عدّلت جلستي عسى أن أكتشف اللغة التي تتكلّمها. لديّ حسّ سماعيّ جيّد للّغات التي لا أفهمها. فلم تكن الفنلندية التي تعلّمتها قليلاً في الجامعة، ولا الجرمانية، أو السلافية. كانت لغةً فريدة لا أحد يتكلّم بها في العالم إلا هذه العجوز، ولا أدري ما الذي جعلني أفكّر هكذا، وصل بي الذعر إلى أن قفزت عن الكرسي، وعدّوت عبر الغرفة خارجاً من المنزل.

- وكيف تفسّر الأمر؟

- لا أعرف تفسيراً آخر سوى أن ما حصل كان في شهر نوفمبر. لا بدّ أنني قد وصلت إلى ذلك المنزل من خلال خطأ غريب لا مبرّر له.

- والعينان؟

- العينان، أنا من تصوّرتهما تحت تأثير البيئة الغريبة، في شهر نوفمبر اللندني. لأني ما زلت على معتقدي بأن من مات قد مات وانتهى أمره.

- ٣ -

دارت الأيام، وشفي ميهاي، وكان عليه أن يغادر المستشفى. وحده السجين، الذي أطلق سراحه بعد عشرين عاماً قضاها في السجن، هو من ينتابه ذلك الإحساس بأنه بلا هدف ومنفصل عن كل شيء، مثل ميهاي الآن وهو يطوف بين منازل فوليغنو الواطئة، بقليلٍ من الأمتعة التي اقتصد في شرائها في بيروغيا يوم فراره.

شعر أنه لا يستطيع العودة إلى الوطن. ليس بوسعه أن يتقبّل فكرة أن يعود إلى بودابست، ويداوم في مكتبه، وينشغل بالأمور التجارية، ثم يلعب «البريدج» ويثرثر للترويح عن نفسه.

ينبغي عليه بعدُ، أن يشاهد العديد من المدن الإيطالية، التي تخبّئ الكثير، قرّر أن يكتب لعائلته في الوطن ويطلب النقود.

لكنه كان يؤجّل كتابة الرسالة من يومٍ إلى آخر. وفي هذه الفترة مكث في فوليغنو حيث صاحبه الوحيد الدكتور أليسلي. استأجر غرفة، وعاش بهدوء يطالع الروايات الإنكليزية التي يعيرها له الدكتور، وكان مسروراً بطعام الغداء والعشاء. كانت نكهة الأطعمة الإيطالية هي الأمر الوحيد الذي شدّه إلى الواقع خلال هذه الأيام من اللامبالاة. أحبّ رهافة المطبخ الإيطالي الشفافة: المطبخ الفرنسي-الأوروبي على العموم يفضّل النكهات الخفيفة، مطبخ منضبط كألوان الأزياء الرجالية. لكن الإيطالي يحبّ النكهات شديدة الحلاوة، شديدة الحموضة، شديدة التميّز، إضافة إلى أنواع الباستا التي تنمّ عن طبيعة وجدانية.

في إحدى الليالي كان يجلس مع أليسلي أمام مقهى البلدة الرئيس. يتحادثان بالإنكليزية كعادتهما. تقدّمت منهما امرأةٌ شابّة، وخاطبتهما بإنكليزية ذات لكنة أميركية، وشاركتهما الجلوس إلى طاولتهما.

- آسفة على الإزعاج، لكنّي درت كلّ النواحي في هذه المدينة اللعينة ولم أقابل أحداً أتفاهم معه. أحتاج منكما إلى توضيح، ولهذا أتيت إليكما، أمرٌ مهمّ جداً.

- تفضّلي!

- شكراً، أنا أدرس تاريخ الفن في كامبريدج.

صرخ أليسلي مهلّلاً: «أووه، في كامبريدج!».

- أجل في كامبريدج، في ولاية ماساتشوستس. لماذا؟ لعلّك تخرّجت فيها؟

- لا، أنا تخرّجت في كامبريدج في إنكلترا. لكن كيف لنا أن نخدمك؟

- إذاً، أنا أدرس تاريخ الفن، وجئت إلى إيطاليا لوجود عددٍ هائل من اللوحات غير الموجودة في مكانٍ آخر، كما تعلمان، شاهدتها جميعاً.

وأخرجت مفكّرة صغيرة، واستأنفت تقول:

- زرت فلورنسا، روما، نابولي، البندقية، وعدداً من الأماكن الأخرى التي لا أتمكن من قراءتها الآن لسوء الإنارة، وكنت أخيراً في بير... بيروغيا. هل ألفظ الاسم لفظاً سليماً؟

- نعم.

- وتعرّفت في المتحف على سيّد فرنسي. كان فرنسياً لكنّه شخص مهذّب جدّاً. شرح لي كلّ شيء بمنتهى الوضوح، ثم نصحني بزيارة فوليغنو حيث اللوحة الشهيرة التي رسمها ليوناردو دافنشي. تعرفونه، هو من رسم لوحة العشاء الأخير. فأتيت إلى هنا، ورحت أبحث عن اللوحة طوال النهار ولم أجدها. كما لم أجد من يرشدني إليها في هذا العشّ الصغير المقيت. هلّا تفضّلتما بالقول أين أُخفِيت تلك اللوحة؟

تبادل ميهاي والدكتور النظرات.

قال الدكتور: «لوحة ليوناردو؟ لا وجود لمثل ذلك في فوليغنو».

قالت الفتاة مستاءة: «مستحيل! لكن السيد الفرنسي قال لي ذلك. قال إنها تحوي صورة بقرة جميلة، وإوزّة وقطّة».

قهقه ميهاي ملء حنجرته.

- ما الذي دفعه ليقول ذلك؟

- جائز أن يكون السبب أن الأوروبيين الساخرين اعتادوا أن يشبّهوا النساء بهذه الحيوانات. فقط النساء الأوروبيات طبعاً.

سألت وقد اكتسى وجهها بالاحمرار: «لا أفهم. لا تقُل لي إن السيد الفرنسي أراد أن يهزأ!».

- للأسف، يمكن تفسير المسألة من هذه الزاوية كذلك.

سرحت الفتاة في تفكيرٍ عميق، ثم سألت ميهاي: «ألست فرنسياً؟».

- لا. أنا مجريّ.

ثم التفتت إلى أليسلي قائلة: «لكنّك إنكليزي؟».

- أجل، جزئياً.

- ورأيك مثل رأي صديقك؟

قال أليسلي آسفاً: «أجل».

شردت الفتاة مرّة أخرى في تفكيرها العميق، ثم شدّت على قبضتيها.

- مع أنني كنت في منتهى اللطافة معه! آه لو أعرف على الأقل ما اسم ذلك الوغد.

ودمعت عيناها. فواساها أليسلي قائلاً: «ليست مشكلة كبرى. والآن، بوسعك أن تدوّني في مفكّرتك أنك كنت في فوليغنو أيضاً».

قالت وقد كفّت عن بكائها: «دوّنتُ ذلك».

قال ميهاي: «حسناً، وغداً ترجعين إلى بيروغيا، وتستأنفين دراستك. سأصطحبك إلى القطار. حدث أنني استقللت قطاراً آخر».

- ليس الأمر كذلك. يا للعار! يا للعار! أهكذا تعامَل فتاةٌ مسكينة وحيدة! طالما حذّروني من الأوروبيين. لكنني أتمتع بشخصية مستقيمة. أيمكن هناك الحصول على ويسكي؟

وظلّوا معاً حتى منتصف الليل.

كان وجود الفتاة حافزاً لميهاي لانعتاقه، فشرب الويسكي، وأسهب في حديثه مع الفتاة، الأمر الذي جعل الدكتور الصغير يلتزم الصمت، لأنه كان ذا طبيعة خجولة، وقد أعجبته الفتاة بما فيه الكفاية.

كانت الفتاة -وكانت تدعى إنغرام ميليسنت- مدهشة. مدهشة خاصةً بصفتها مؤرِّخة للفن. عرفت عن لوكا ديلا روبيا أنها مدينة على ضفة أرنو، وزعمت أنها كانت في باريس في صالة الفن لصاحبها واتيو، الذي قالت عنه: «عجوز جدّ لطيف، لكن قذر اليدين، ولم أحبّ منه أنه طبع قبلة على عنقي ونحن في البهو». إضافة إلى ذلك ظلّت تحكي عن تاريخ الفن بمنتهى الحماس والزهوَ.

وتبيّن كذلك أن الفتاة ابنة لوالدين ثريَّين من فيلادلفيا، وتتمتّع بسلطانٍ كبير في مجتمعها، حسب علمها على الأقل، ويبدو أن قابلية أوروبا للأخذ بنزعة جان جاك روسو في ما يخصّ العزلة والطبيعة، قد أقلقتها، وأمضت أشهراً في باريس وڤيينا، وأماكن مختلفة أخرى من دون أن تتأثّر بهذه النزعة، وحافظت على سلامة روحها الأميركية.

وعلى الرغم من ذلك، حين ذهب ميهاي إلى المنزل، ظلَّ في أثناء خلوده إلى النوم، يدندن «ميليسنت، ميليسنت»، وهل حقاً هنالك من يدعى بهذا الاسم: ميليسنت؟

لم تكن ميليسنت إنغرام تلك الفتاة الأميركية الجميلة، الرائعة، البكّاءة، التي أمكن للمرء أن يراها في باريس في سنوات ما بعد الحرب، حين كان كلّ شيء، ما عدا أمثالها في هذا العالم، بشعاً. لكنّها مع ذلك كانت جميلة، ولو أن من المبالغة وصفها بالجميلة، لخلوّ وجهها تماماً من التعابير. ويمكن القول إنها كانت بهيّة الطلعة، بأنفها الصغير، وفمها المعافى، وقدّها المياس، وجسدها المشدود المطّاطيّ المرِن.

وكانت أميركية، ومع ذلك، من النوع الذي كان في تلك الأوقات يصدّر الجمال الأخّاذ إلى باريس، حين كان ميهاي ما يزال شاباً. «المرأة الغريبة» كانت تنتمي إلى فترة الشباب، إلى سنوات الترحال، من اللواتي يخلّفن وراءهن الحنين، لأن المرء خلال سنوات الترحال ما زال أخرق وجباناً، ويستعجل أفضل الفرص. كان ميهاي منذ مدّة يعيش في بودابست، وكلّ عشيقاته بودابستيّات، فكانت هذه المرأة الغريبة على نحوٍ ما تعني له شبابه وانعتاقه، بعد أرجي، بعد زواجه الجادّ، بعد كثير من سنوات الاستقرار. وأخيراً مغامرة جديدة، شيء ما ينبثق

تلقائياً دونما انتظار، ويجذبه إلى ما هو غير متوقّع. كما جذبته كذلك حماقة ميليسنت. في الحماقة العميقة ما هو مدوّخ، وجذّاب كدوّامة، كالفناء. قوة جذب الفراغ.

حين اصطحب ميليسنت إلى محطة القطار، قال لها قبل أن يقطع التذكرة: «لمَ تعودين إلى بيروغيا؟ فوليغنو أيضاً مدينة. ابقي هنا!».

رمقته ميليسنت بعينيها الواسعتين المغفلتين، وأجابت: «أنت محِقّ». وبقيت هناك.

كان يوماً شديد الحرّ. تناولا البوظة طوال اليوم، وتحدّثا. كان ميهاي يمتلك تلك القدرة التي تجعل الدبلوماسيين الإنكليز مخيفين في نظر من يأخذونهم بأذرُعهم. كان بمقدوره أن يكون شديد الغباء إذا ما لزم الأمر. لم تستطع ميليسنت أن تلاحظ أيّ فارق فكري ملموس بينهما، لا بل إنها أحسّت بتفوّقها في ميدان تاريخ الفن، فوقع ذلك موقعاً حسناً في نفسها.

قالت: «أنت الأوروبي الأول الذي يستطيع أن يحكم عليّ فكرياً. باقي الأوروبيين كليلون، ولا يملكون الحسّ الجمالي للفن».

كسب ثقة ميليسنت التامة. وعند المساء صار يعرف كلّ شيء عن الفتاة، من دون أن يعرف شيئاً من المجدي أن يلمّ به.

التقيا في المساء مع أليسلي. فوجئ الطبيب بأن الفتاة ما تزال في فوليغنو.

قالت ميليسنت: «هل تعلم أنني كنت أظن أنني لم أتمكن من الاهتمام الدائم بقضايا الفنون. قال لي أحد أصدقائي الأطباء

إن التفكير المتواصل مؤذٍ للبشرة. هل هذا صحيح؟ لذلك قرّرت أن أرتاح قليلاً، أن أمنح نفسي عطلة فكرية. يمنحني صديقك تأثيراً مطمئناً. يا له من نفسٍ لطيفة، بسيطة، متناغمة! أليس كذلك؟».

أقرَ أليسلي أن مريضه يغازل الفتاة الأمريكية، فصار أكثر هدوءاً. طالما أعجبته الفتاة المختلفة كلّيّاً عن النساء الإيطاليات. وحده الجنس الإنغلوسكسوني بمثل هذا الصفاء والبراءة. يا لَبراءة ميليسنت! ما أجملها من قافية لو كان شاعراً! لكن، لا بأس. أهمَ ما في الأمر أنها هبطت في حينها من السماء، لتكون عزاءً وسلوى للمريض المجريّ الطيّب.

في اليوم التالي خرج ميهاي والفتاة في نزهة، وتناولا الباستا في خمّارة قروية صغيرة، ثم تمدّدا في غابةٍ صغيرة ذات طابع كلاسيكي، وأخذهما النوم. وحين أفاقا قالت ميليسنت: «ثمّة رسّام إيطالي رسم مثل هذه الأشجار. ما اسمه؟».

- بوتيتشيلي - قال ميهاي وقبّلها.

- أووه! - قالت ميليسنت بوجهٍ مذعور، ثم بادلته القبلة.

حين ضمّ ميهاي الفتاة بين ذراعيه أيقن أنه لم يُخذَل، ولم يخِب أمله، فقد كان جسدها في منتهى المرونة. أيّ جسدٍ تتمتّع به هذه المرأة الغريبة، وماذا يعني في الحب لمن يطارد الفنتازيا لا الحقائق الفيزيولوجية؟ عند القبلة البريئة السابقة أحسّ أن كلّ تفصيل من جسد ميليسنت مختلف، وغريب، وبديع. كان ثغرها المعافى أميركياً، وجيدها غريباً بما عليه من شعر ناعم، لمسة يدها الضخمة القوية، الصفاء المذهل المتعالي

لجسدها. أووه! ميسوري - ميسيسيبي، الشمال ضد الجنوب، وبحر الباسفيك الأزرق!

قال لنفسه: الجغرافيا أقوى مثيرٍ للرغبة.

لكن رسالةً من بيروغيا كانت تنتظر ميليسنت في مبنى البريد، أرسلتها السيدة ريبيكا دوارف، البروفيسور في تاريخ الفن في العصر الوسيط في جامعة كامبريدج. وهي مشرفة ميليسنت، وقدوتها الفكرية. قصّت ميليسنت دامعة العينين خلال العشاء أن السيدة ريبيكا دوارف في منتهى الرضا عن رسالة ميليسنت الأخيرة، التي أخبرتها فيها عن التقدّم الذي أحرزته في دراستها، فوجدت السيدة ريبيكا دوارف أن من المحتّم على ميليسنت أن تسافر على وجه السرعة إلى سيينا، وتشاهد أثريات سيينا الشهيرة هناك.

- كانت صحبتك رائعة يا مايك! - قالت وهي تشهق، ووضعت يدها في يد ميهاي.

- وهل يتحتّم عليك الذهاب إلى سيينا؟

- طبعاً، ما دامت السيدة دوارف تكتب أن...

فهبّ ميهاي قائلاً:

- إلى الجحيم، يا لها من بهيمة عجوز! انظري يا ميليسنت، أصغي إلي! لا تشاهدي أثريات سيينا. لأن هذه الأثريات على الأرجح شبيهة بأثريات أومبريا التي شاهدتها في بيروغيا. وحتى لو... ثم أليس سواءً لدى المرء إذا ما رأى عشر لوحات زيادة أو نقصاناً؟!

رمقته ميليسنت بنظرةٍ ذاهلة، وسحبت يدها.

- كيف تتكلّم هكذا يا مايك! ظننت أنك تمتلك الإحساس حيال الجمال الفني، على الرغم من كونك أوروبياً!

وأشاحت عنه.

لاحظ ميهاي أنه قد عكّر جوّ اللقاء، فكان لزاماً عليه العودة إلى نسقه الأبله، لكنه لم يعثر على حجّة غبيّة تمكّنه من ثني ميليسنت عن السفر، فلجأ إلى العاطفة:

- ولكن كم سأفتقدك لو رحلت الآن! قد لا نتقابل بعد الآن في هذه الحياة.

- فعلاً! وأنا كذلك سأفتقدك إلى حدٍّ مؤلم. وعلى الرغم من أني كتبت إلى دوريس وآن ماري في فيلادلفيا بأنك شخص يفهمني جيداً، لكن علينا أن نفترق.

- ابقي هنا!

- مستحيل. تعال أنت إلى سيينا. ليس لديك مشاغل هنا.

- صحيح. من حيث المشاغل يمكنني أن أذهب.

- لمَ لا تأتي إذاً؟

- لعدم امتلاكي المال.

كان صادقاً في قوله، فقد أوشكت نقوده أن تنفد. أنفقها على بعض الملابس الأنيقة التي اشتراها تقديراً للفتاة، وعلى الأطعمة الفاخرة التي تناولاها معاً.

- ليس لديك نقود؟

قال مبتسماً: «نفدت».

- ألا يرسل لك والداك؟

- أجل. سيرسلان لاحقاً، إذا ما كتبت لهما.

- حسناً. سأقرضك حتى ذلك الوقت -وأخرجت دفتر شيكاتها- كم تحتاج؟ خمسمئة دولار، يكفي؟

أدهش المبلغ ميهاي مثلما أدهشته المبادرة، وتأبّت نزاهته المتمدّنة مثلما تأبّت نزعته الرومانتيكية. يقترض النقود مستغلاً مغامرته العاطفية مع فتاة غريبة هبطت فجأة من السماء، كان قبّلها بالأمس للمرة الأولى. لكن ميليسنت أصرّت على عرضها بدافع البراءة الجميلة. طالما أقرضت المال لأصدقائها وصديقاتها، كما قالت. إنه أمرٌ طبيعي في أميركا. ثم إن ميهاي سيردّ لها المال في أقرب وقت. فاتفقا في نهاية المطاف أن يفكر في الأمر حتى يوم غدٍ.

كان ميهاي شديد الرغبة في زيارة سيينا، بغضّ النظر عن رحيل ميليسنت. أضجرته فوليغنو، وتشوّق لرؤية سيينا، بعد أن فارقه الإحساس السابق باللامعنى واللامبالاة، وبدأت المدن الإيطالية مجدّداً تلاحقه بإلحاحها المحبّب لمشاهدتها، ومعايشة خباياها قبل فوات الأوان. وكما في بداية رحلته لقضاء شهر العسل، فقد حمل في نفسه مجدّداً أيضاً ذلك الشيء الذي تعنيه إيطاليا، ككنز شديد الهشاشة يفلته من يديه بين لحظةٍ وأخرى. أما ميليسنت فقد صارت محطّ اشتهاء أكثر من ذي قبل، بعد أن قام بتقبيلها، إضافة إلى أن طبيعة مثل هذه المغامرات تدفع

بالمرء للمضيّ إلى النهاية. لكن هل من الجائز لعضو مجلس إدارة في شركة بودابستية معروفة أن يقترض مالاً من فتاة شابة؟ لا، لا يجوز، وما من شكٍّ في ذلك. ونتيجة لفراره، وتواريه، ألم يرجع، يا ترى، إلى معيار قديم وإلى أسلوب حياة، كانت فيه النقود مجرّد قصاصات ورقية، أو أقراص من الفضة؟ ولنكن صريحين ونسمّي الأمور بمسمّياتها، ألم يرجع، بفراره وتواريه، إلى أخلاقية منزل أولبيوش؟

أوقعت الفكرة الذعر في نفس ميهاي. لا، لا يجوز، خاصّة أن نعيم فترة الصبا قد قام على هذا، على الواقع الذي لم يحسبْ له حساباً، والنقود أهمّ أشكال ظهوره.

لكن من اليسير على المرء أن يريح ضميره حين تشتدّ رغبته في شيء. لا سيما وأن القرض قصير الأمد، وقليل القيمة. لن يطلب خمسمئة دولار، بل مئة دولار فحسب، وليكن مئتين، أو ثلاثمئة... والآن حالاً سيكتب إلى الوطن، وسيردّ الدين في أقرب وقت.

حتى إنه جلس، وكتب الرسالة. لم يكتب لأبيه، بل لتيقادار، أصغر إخوته. كان تيقادار المسرف في الأسرة، وأتفه أفرادها. يرتاد سباق الخيول، وبما أنه كانت له علاقة بإحدى الممثلات، فقد يتفهّم أمره، ويحلّ المشكلة.

كتب لتيقادار إنه وأرجي قد انفصلا -كما يعلم- لكن على نحو سلميّ، وسيرتّب هذا الأمر في القريب العاجل، كما يليق برجل نبيل. أما سبب الانفصال، فسيكلّمه عنه وجهاً لوجه، لا من خلال الرسالة التي تحمل سوء الفهم. وإنه كان مضطراً لتأجيل كتابة الرسالة بسبب مرضه الشديد الذي ألزمه الإقامة في المستشفى في فوليغنو. وهو الآن معافى وبصحة جيدة، لكن

الأطباء نصحوه بالراحة، ويفضّل قضاء فترة النقاهة هنا في إيطاليا. ولهذا السبب يطلب النقود من تيڤادار، على وجه السرعة وبمبلغ كافٍ، لأنه أنفق ما بحوزته، وكان مضطراً لاستدانة ثلاثمئة دولار من أحد أصدقائه هنا، ويودّ أن يوفيه دينه بأقصى سرعة ممكنة. فليرسل النقود على عنوان صديقه ريتشارد أليسلي. كما أنه يأمل أن جميع أفراد الأسرة بخير، وسيلتقونه قريباً.

وفي اليوم التالي، وضع الرسالة في البريد الجوي وأسرع إلى فندق ميليسنت التي بادرته من فورها: «هل فكرت بالذهاب يا مايك؟».

أومأ ميهاي بالإيجاب. وأخذ الشيك مكتسياً بالاحمرار الشديد. ثم قصد المصرف وابتاع حقيبة جميلة، وودّع أليسلي وسافرا.

كانا بمفردهما في مقصورة الدرجة الأولى. وتبادلا القُبَل براحة بالٍ كالفرنسيين، مثلما تعلّما في أثناء سنوات الدراسة في باريس. لاحقاً، صعد رجلٌ نبيل مسِنّ، لكنهما لم يهتمّا لأمره، ولم يربكا نفسيهما، وعاشا امتياز الغرباء البرابرة.

وصعدا إلى سيينا في المساء.

- غرفة للسنيور والسنيورة؟

سألهما موظف الاستقبال في الفندق الذي وقفت أمامه عربة حصان قديمة. وأومأ ميهاي بالإيجاب، في حين لم تفهم ميليسنت ما يدور أمامها، ولم تفطن للأمر إلا فوق في الغرفة، لكنّها لم تُبدِ احتجاجاً.

على أي حال، لم تبدُ ميليسنت، حتى عن بُعد، بتلك البراءة كما تصوّرها الدكتور أليسلي. لكنها في الحب، كانت ذات نكهة طازجة، هادئة الاندهاشة. وتبيّن لميهاي أن مجيئه إلى سيينا كان موفّقاً.

- ٤ -

كانت سيينا أجمل مدينة إيطالية رآها حتى الآن. أجمل من البندقية، وأجمل من فلورنسا النبيلة، ومن بولونيا الحلوة الرواقية. ولعلّ ما أسهم في ذلك أنه قدِم إلى هنا من دون أرجي، بطريقةٍ غير رسميّة، بل مصادفةً بصحبة ميليسنت.

بدا على سائر أنحاء المدينة بشوارعها الوردية المنحدرة، وتلالها المتموّجة، مثلما بدا على وجوه قاطنيها أنهم في منتهى الفقر، لكنّهم سعداء، سعداء على طريقتهم اللاتينية التي لا تضاهى. المدينة أسطورية، والذي يمنحها طابعها الأسطوري المرِح هو أنك من أي نقطة فيها، يمكنك رؤية كاتدرائية الدوم المقامة على قمة المدينة، وكأنها منطاد زرافيّ الألوان ذو أبراج، يسرّ الناظر، يحلّق فوقها.

أحد جدران الكاتدرائية منفصل عن كتلة الكنيسة، على مسافة مئتي متر، وعلى نحو رائع وغريب كأعظم رمزٍ مكانيّ على فشل المشاريع الإنسانية. كان ميهاي يعبد البوهيمية، على هذا النحو الذي بدأه هؤلاء الإيطاليون القدماء في إقامة كاتدرائيتهم. «ما دام هناك كاتدرائية لدى فلورنسا، ينبغي أن تكون لدينا أيضاً واحدة، وربما تفوقها ضخامة» - قالوا ذلك، وأقاموا أبعد جدار كي يوقعوا الذعر مسبقاً في نفوس الفلورنسيين لضخامة الكنيسة التي ستقام في سيينا. ثم نفدت

الأموال، فتخلى البنّاؤون عن معدّاتهم، ولم ينظروا بعد ذلك باتجاه كاتدرائيّتهم.

فكّر ميهاي: أجل، أجل، هكذا ينبغي بناء الكنيسة، لو أن سكان منزل أولبيوش بنوا كنيسة، لقاموا ببنائها هكذا.

ثم نزلا إلى كامبو، ساحة المدينة الرئيسية ذات الشكل الأفعواني، التي كانت بسمة المدينة حقّاً.

قالت: «الآنسة دوارف لم تكتب شيئاً عن هذا، وهذه ليست أثريات بدائية».

وعند العصر طافا على مداخل سيينا. فوقفا أمام البوابات، واحتفظ ميهاي برأيه، ولم يعبّر عن ضحالة حلاوة المشهد التوسكاني.

قال لميليسنت: «هذا هو المشهد الإنساني، حجم الجبل هنا كما يليق بجبل أن يكون. لكلّ شيء هنا قياسه الدقيق، كلّ شيء هنا شبيه بالإنسان».

فسألت ميليسنت بعد تفكير: «وكيف تعرف ما ينبغي لحجمٍ أن يكون؟».

كُتب على لوحة أحد المداخل: «cor magis tibi sena pandit، سيينا تجعل قلبك أكثر رحابةً»... حتى المداخل تقول الحكمة والحقّ، سيينا تجعل قلبك أكثر رحابة كي تمتلئ الحياة بالرغبة والنشوة البسيطتين، كما يليق بجمالية الفصل السنوي المتخفية.

وفي اليوم التالي أفاق ميهاي عند الفجر. نهض وأطلّ من النافذة نحو الجبال. كان ضبابٌ ليلكيّ خفيف يطفو فوق المشهد التوسكاني، مهيّئاً شيئاً فشيئاً للّون الذهبي الفاتر الخجول. ولم يكن ثمّة شيء عدا توهُّج الذهب الليلكي، تحت الجبال البعيدة.

فكّر: إن كان هذا المشهد حقيقة، إن كان الجمال واقعاً، فكلّ ما فعلته حتى الآن كذب. لكن هذا المشهد حقيقة وواقعة.

وردّد قصيدة ريلكه:

«إذ لا مكان هناك لا يراك

عليك أن تغيّر حياتك».

ثم التفت فجأة نحو ميليسينت التي كانت مستغرقة في نومها. أدرك أن ميليسينت ليست واقعاً ملموساً. ميليسنت ليست أكثر من تشبيهٍ يخطر في بال المرء بالمصادفة. ثم لا شيء. لا شيء.

سيينا تجعل قلبك أكثر رحابة. اعتراه فجأة شوقٌ قاتل لم يعهده إلا في سنوات الصبا، لكنه شوق أكثر انعكاساً وحرقة: لأن توق الصبا كان يليه شوقٌ حادّ للصراخ. عرف الآن أن المغامرة، والرجوع إلى سنوات الترحال، ليسا سوى مرحلة عابرة، سوى سلّمٍ لمزيد من الانحدار. المرأة الغريبة غريبة مثلما كانت سنوات الترحال مجرد فترة للعبث واللهو. لكن يتحتّم عليه العودة إلى الوطن، إلى من هم ليسوا بغرباء. لكن أولئك... صاروا في عداد الموتى منذ مدة طويلة، وجرفتهم الرياح العاصفة من كلّ حدبٍ وصوب في هذا العالم.

استيقظت ميليسنت حين أحسّت أن ميهاي يدفن رأسه في كتفها، ويبكي. جلست في السرير، وسألته مصدومة:

- ما خطبك يا مايك، بحقّ الله ما خطبك؟!

- لا شيء! حلمتُ بأني كنت طفلاً صغيراً، وجاء كلبٌ ضخم وأكل قطعة خبزي بالزبدة.

عانقها، وضمّها إليه.

لم يكن في ذلك اليوم ما يتحدّثان به. ترك الفتاة وشأنها لدراسة البدائيات السيبينية، وعند الظهيرة أصغى بلا اكتراث للسخافات البلهاء التي روتها عن تجاربها.

ولم يغادر الغرفة بعد الظهر، واستلقى بثيابه على السرير.

«... يا إلهي، ما قيمة الحضارة برمّتها، إن تغاضينا عما يعرفونه حتى عند آخر الزنوج: استحضار الموتى؟!».

هذا ما وجدته عليه ميليسنت.

- ألديك حرارة؟ - سألته، ووضعت يدها الجميلة الضخمة على جبينه.

صحا قليلاً بتأثير اللمسة.

- دعنا نتنزّه يا مايك! المساء بديع. كلّ الإيطاليين في الشوارع، ولكلٍّ منهم ستة أولاد بأسماء رائعة. أميريتا، وأسونتا. ومن بينهم أطفال ما زالوا صغاراً ويدعونهم أنونزياتا Annuziata.

نهض ميهاي من السرير بمنتهى الصعوبة وخرجا. سار بمشقّة وعدم يقين، وكأنه يرى كلّ شيء من خلال وشاح، وكأنّ أذنيه سُدّتا بغشاءٍ شمعيّ فلا يسمع إلا عبره أصوات المساء الإيطالي. كانت رجلاه ثقيلتين كأنما سُبكتا من رصاص. من أين جاءني هذا الإحساس؟ كأني مررت به - تأمّل.

وصلا إلى كامبو، فحدّق ميهاي في توري ديل مانغيا، وفي برج دار البلدية الذي يزيد ارتفاعه عن مئة متر، والذي غرز نفسه كالإبرة في سماء الليل. تتبّع بنظراتٍ متأنية مسار البرج الشاهق إلى ارتفاع مدوّخ، وكأن البرج كذلك كان يتنامى علوّاً نحو أرجاء السماء الزرقاء الداكنة المدويّة.

حصل في تلك الأثناء أن انشقّت الأرض جانب البئر، وصارت الدوامة أمام قدميه. استمرت للحظة فقط، ثم انتهت. كان كلّ شيء في مكانه. كانت توري ديل مانغيا من جديد كأنها برج شاهق. لم تلاحظ ميليسنت شيئاً.

لكن في تلك الليلة من ذلك اليوم، عندما تباعد جسداهما بعد اكتفاء، وبقي ميهاي وحيداً في تلك العزلة الثقيلة التي تنتاب المرء بعد معاشرة امرأة لا يمتّ لها بصلة، انشقّت الهوّة - الدوّامة (أم أنها مجرد خاطرة خطرت له؟) واستمرّت طويلاً. كان يدري أن ما عليه القيام به هو أن يمدّ يده ليتحسّس الحقيقة السارّة للجسد اللطيف، لكنه لم يستطع حتى أن يمدّ يده، فطاب له أن يظل يكابد عذاب الوحدة، طوال ساعات.

وفي الصباح ألمّ به صداع، وتقرّحت عيناه من السهاد.

قال: «أنا مريض يا ميليسنت! انتكس مرضي الذي ألزمني المستشفى في فوليغنو».

سألته مرتابة: «ما مرضك؟».

تمتم: «يتعذّر معرفته بشكل يقينيّ. إنه شيء متقطع محفّز وفوضوي».

- هكذا إذاً!

- عليّ العودة إلى فوليغنو، إلى الدكتور أليسلي الطيّب عسى يمكنه فعل شيء. أنا أعرفه على الأقل. ماذا عنك يا ميليسنت؟

- سأرافقك، طبعاً، ما دمت مريضاً. لن أدعك وحيداً. ثم إنني اطّلعت على كلّ الآثار البدائية في سيينا.

قبّل ميهاي يدها متأثراً. وعند آخر العصر كانا في فوليغنو.

وباقتراحٍ من ميهاي نزل كلّ منهما في غرفة خاصة. «ليس من الضروري أن يعرف أليسلي»، قال.

وقرابة المساء أتى أليسلي لزيارة ميهاي، وأصغى لشكواه وهمهم لحالة الإحساس بالدوامة.

- نوع من الأغورافوبيا(*********). خُذ قسطاً من الراحة وبعد ذلك سنرى.

ظلّ ميهاي مستلقياً لأيام. لم يعاوده إحساس الدوامة، لكنه فقد الرغبة في النهوض. شعر أن الدوامة تستحوذ عليه لمجرد مغادرته الفراش، فنام طويلاً. واجترع المهدئات والمنوّمات الخفيفة التي أحضرها أليسلي. وما إن يأخذه النوم حتى يحلم بتاماش وإيڤا.

قال لأليسلي: «أعرف مشكلتي. لديّ حنينٌ حادّ. أحبّ أن أكون شابّاً. هل من علاج لذلك؟».

- همم.. بالتأكيد، لكن لا يجوز التحدّث بهذا. فكّر بفاوست! أبعِد عنك الرغبة في أن تكون شاباً! الله هو من يعطي الرجولة، والشيخوخة.

كانت ميليسنت تواظب على زيارته، على الرغم من ضجرها، وعند المساء كشف أليسلي عليه، وخرجا معاً من عند ميهاي.

- قل لي بصراحة -قال أليسلي ذات يوم حين جلس وحده قرب سرير ميهاي- قل لي بصراحة، أليس لديك ميّتٌ عزيز عليك؟

- لديّ.

- أتفكّر فيه كثيراً هذه الأيام؟

- أجل.

ومنذ تلك اللحظة باتت طريقة أليسلي العلاجية تختلف عن قواعد العلوم الطبية. أحضر تارةً الكتاب المقدس، وباقةً من الورد تارة أخرى، ومريم عذراء مغارة لورد تارة ثالثة. وذات مرّة لاحظ ميهاي أنه في أثناء حديثه مع ميليسنت، كان أليسلي يرسم صليباً على الباب. وفي يومٍ جميل جاءه يحمل إكليلاً من البصل.

- ضع هذا حول عنقك قبل النوم. رائحة البصل تقوّي الأعصاب.

ضحك ميهاي ملء رئتيه.

- دكتورا! أنا أيضاً قرأت دراكولا. أعرف لمَ يستخدم إكليل البصل. يبعد الخفاش الذي يمصّ دم الإنسان ليلاً.

- تماماً. يسرّني أنك تعرف. من العبث أنك لا تؤمن بأن الأموات حاضرون بطريقة ما. أنت مريض بأمواتك. يزورونك، ويمتصّون قوة الحياة لديك. علم الطب غير نافع هنا.

- أرجِع إذاً إكليل البصل إلى البيت. من غير الممكن إبعاد أمواتي بهذه الطريقة. إنهم يسكنون في داخلي.

- طبعاً. الأموات في هذه الأيام يعملون بوسائل سيكولوجية، لكن ذلك لا يبدّل في جوهر الأمر. عليك فقط أن تكافح ضد أمواتك، وتحمي نفسك.

- دعني وشأني! -قال ميهاي بشيء من الغضب- قل إنني مريض بفقر الدم الدماغي، واكتب لي وصفة تقوّي أعصابي، من البروم ونبيذ الحديد الصيني. هذا عملك.

- طبعاً هذا عملي. ليس بمقدوري القيام بالمزيد. لا ينفع علم الطب ضد الأموات. لكن هنالك وسائل فوق الطبيعة أشدّ تأثيراً.

- أنت تعلم أنني لا أؤمن بالخرافات. الخرافة تساعد من يؤمن بها.

- هذا رأي تجاوزه الزمن. ومع ذلك لمَ لا تجرّبه؟ لن تخسر شيئاً.

- كيف لا؟! عزّة نفسي، كرامتي، وعي الذات لدى الكائن العقلاني.

- هذه كلمات مطّاطة لا تعني شيئاً. عليك أن تحاول. عليك أن تذهب إلى غوبيو حيث يعيش راهبٌ معجزة، فوق في دير سانت أوبالدو.

- غوبيو؟ حدّثتني مرة عن هذا المكان، وقلت لي، كما أذكر، أن حادثة شبحيّة وقعت لك هناك.

- أجل. وسأرويها لك الآن، لعلها تقنعك. وهذا الراهب بطلها.

- أسمعك.

- كنت طبيباً في غوبيو قبل أن ألتحق بهذا المستشفى. استُدعيت مرّةً للكشف على مريض يعاني مرضاً عضالاً. كان المريض امرأة شابة تسكن منزلاً قديماً عاتماً في شارع يعود كلياً إلى العصر الوسيط في ڤيا دي كونسولي. لم تكن المرأة من غوبيو، ولا حتى من إيطاليا، ولا أعرف جنسيتها، لكنها تكلّمت الإنكليزية بطلاقة، وكانت جميلة جداً. قال لي أصحاب المنزل إن هذه المرأة التي كانت مستأجرة عندهم تعاني من هلوسات منذ مدة، كان هاجسها أن بوابة الأموات ليست مغلقة في الليل.

- ماذا؟

- بوابة الأموات. جدير بالذكر أن لهذه المنازل العائدة للعصر الوسيط بوابتين. بوابة عادية للأحياء، وإلى جانبها بوابة أضيق للأموات لا تفتح في الجدار إلا حين يُخرجون التابوت من المنزل، وبعد ذلك يلجؤون إلى سدّ هذه البوابة لتصبح جزءاً من الجدار، فلا يتمكن الميتون من العودة، لأن الميت باعتقادهم لا يعود إلا من حيث خرج. والبوابة ليست على مستوى الشارع بل إلى الأعلى بمتر واحد، لكي يتمكنوا من

تسليم التابوت لمن يقفون في الشارع. كانت السيدة التي أحدَثك عنها تقطن منزلاً كهذا المنزل. وذات مساء استيقظت على أن بوابة الموتى تنفتح، ويدخل منها أحدٌ كانت تحبه كثيراً، ومات منذ مدة طويلة، ومن ذلك اليوم كان الميت يجيئها كلَ ليلة.

- كانت مساعدة المرأة سهلة: أن تنتقل من المنزل.

- قلنا لها ذلك، لكنها لم تشأ أن تنتقل، كان يسعدها أن الميت يأتي لزيارتها، كانت تنام طوال النهار بانتظار الليل. ألمَ بها الهزال، وقلق أصحاب المنزل لأجلها، وأيضاً لأن رجلاً ميتاً يطوف في المنزل. كانت أسرة نبيلة ذات مدارك أخلاقية صارمة. كان مقصدهم من استدعائي كطبيب أن أُقنع المرأة بالانتقال من المنزل.

- وماذا فعلت؟

- حاولت أن أوضح للمرأة أنها متوجّسة وينبغي أن تُعالج. لكنها ضحكت هازئة وقالت: «كيف أكون متوجسة، وهو هنا كلّ ليلة بما لا يدعو للشك، مثلما أراك هنا؟ إن كنت لا تصدَق ابقَ هنا حتى حلول الليل!». ما كان بقائي لأصدّق ما تقول، فأنا شخص متجاوب حيال قضايا من طبيعة كهذه، لكني بقيت انطلاقاً من واجبي بصفتي طبيباً. وعلى أي حال، لم يكن الانتظار مزعجاً، فلم تكن المرأة مذعورة، أو شاطحة، بل في كامل الاتزان، ولست بصدد امتداحها، لكنها حقاً كانت جذّابة بسلوكها معي، حتى أنني نسيتُ سبب زيارتي لها، ونسيتُ أن منتصف الليل بات وشيكاً. وقبل منتصف الليل أمسكتْ بيدي، وأمسكتْ بيدها الأخرى شمعداناً وقادتني إلى الغرفة الأرضية التي انفتحت فيها بوابة الموتى.

عليَ أن أعترف أنني لم أشاهد الميت، لكن بخطأ مني، فلم أجرؤ على الانتظار. لكني شعرت ببردٍ شديد، ورأيت لهب الشمعة يرفّ بفعل النسيم، وشعرت، شعرت بكلّ جسدي أن أحداً في الغرفة. وأصارحك القول إن ذلك كان يفوق قدرتي على الاحتمال. خرجت مسرعاً من الغرفة، وعدت إلى المنزل. أوصدت الباب، وألقيت الغطاء على رأسي. ستقول لي، طبعاً، إنني وقعت تحت تأثير سلوك المرأة. ممكن...

- وما الذي حصل للمرأة؟

- حسناً. هذا ما أردت أن أرويه للتو، حين وجد أصحاب المنزل أنني لا أتمكن، باعتباري طبيباً، من مساعدتها، استدعوا الأب سڤرينوس من دير سانت أوبالدو. إنه شخص قديس فريد من نوعه. قدم إلى غوبيو من بلاد بعيدة تعذّر معرفتها. نادراً ما شوهد في المدينة، إلا في الأعياد ومآتم الدفن. ويقضي كامل وقته لا يغادر الجبل حيث يمارس حياة نكران للذات. لكنه أقنع بطريقة ما للنزول وزيارة المرأة المريضة. يقال إن لقاءهما كان مؤثّراً ودرامياً. ما إن شاهدت المرأة الأب سڤرينوس، حتى زعقت، وانهارت. وشحب الأب سڤرينوس، وأصيب بالذهول. ربما شعر بجسامة المهمة التي أوكلت إليه، لكنه نجح.

- كيف؟

- لا أدري، يبدو أنه طرد الشبح. بعد ساعة من التحدّث مع المرأة بلغة مجهولة، عاد إلى الجبل، واطمأنت المرأة، ورحلت إلى غوبيو، ولم يرها أحد بعد ذلك، لا هي ولا الشبح.

- أمر طريف. لكن قل لي.. لقد جاء الأب سڤرينوس من بلد غريب، فهل حقاً لا تدري من أين؟

- للأسف، لا أدري. ولا أي أحد آخر.

- صف لي هذا الشخص، أقصد مظهره الخارجي.

- فارع القامة، نحيل، كالرهبان عادة.

- وما يزال مقيماً في الدير حتى هذه اللحظة؟

- أجل. عليك أن تقصده. هو الوحيد القادر على مساعدتك.

فكّر ميهاي عميقاً. الحياة مليئة بالألغاز العصية على التفسير، فهل الأب سڤرينوس هو أرفين، وتلك المرأة هي إيڤا التي طاردتها ذكرى تاماش؟!

- أتدري يا دكتور، غداً سأسافر إلى غوبيو، نزولاً عند رغبتك، لأنك شخص في منتهى اللطف، وكذلك لكوني مهتماً بتاريخ الأديان، وشغوفاً بالآثار، يحدوني الفضول للاطلاع على بوابات الموتى.

سُرَّ أليسلي للنتيجة.

في اليوم التالي وضَب ميهاي متاعه، وقال لمليسنت التي جاءت لزيارته:

- عليَ الرحيل إلى غوبيو. قال الدكتور لا علاج لي إلا هناك.

- حقاً؟ أخشى إذاً أنّ علينا أن نودّع كلٌّ منّا الآخر. سأبقى لفترة في فوليغنو. لقد أحببت هذه المدينة، رغم أني كنت في البداية غاضبة من ذلك الفرنسي الذي دعاني إليها، أتذكُر؟ لكنّي لم أعد نادمة. والطبيب أيضاً شخصٌ لطيف.

- آسف يا ميليسنت، أنا مدينٌ لك، وأشعر بالخجل الشديد، لكنك تعلمين أن البنك القومي هو من يحوّل الأموال الأجنبية، وهي عملية شائكة جداً. أرجو أن تصبري. أيام قليلة وتصل النقود.

- لا أهمية للأمر، وإن شاهدت لوحة جميلة، اكتب لي.

- ٥ -

ينبغي السفر إلى غوبيو بقطار ذي عرباتٍ ضيّقة يعمل بين فوساتو دي فيكو وأريزو. السفر على الرغم من قصر المسافة، والحرّ الشديد، أرهقا ميهاي حتى الوصول. لكن المدينة ما لبثت أن طالعته وهو يغادر الموقف صعوداً، وكانت مدينة جذّابة منذ اللحظة الأولى.

انتشرت المدينة على سفح جبلٍ عملاق، أجرد، إيطاليّ الطابع. ما إن يلمحها المرء حتى يلاحظ أن كلّ منزلٍ فيها يعود تاريخه إلى مئات السنين.

في منطقة توسّطت الشوارع الملتفّة بغير انتظام، أقيمَ بناءٌ برجيّ شاهق لا تفسير لبنائه وسط هذا المكان النائي. ناطحة سحابٍ هائلة كئيبة من العصر الوسيط. إنها قصر القنصلية (Palazzo dei Consoli). من هنا تولّى القناصل إدارة جمهورية مدينة غوبيو الصغيرة حتى القرن الخامس عشر، حين رزحت المدينة تحت حكم المونتيفلتري، أمراء أوربينو. وفوق المدينة، على قمة جبل إنجينو، كتلة بناءٍ بيضاء هائلة الاتساع، إنه دير القديس أوبالدو.

استأجر ميهاي غرفةً في فندق صغير مقبول يقع على الطريق المؤدّي إلى المدينة. تناول الغداء، واستراح قليلاً، ومضى

يستكشف غوبيو. شاهد من الداخل قصر القنصلية الكهفيّ الأشبه بصالة فنّية عملاقة، وشاهد فيها رُقم إغوويين البرونزية Tavole eugubine الباقية من الفترة ما قبل الرومانية، وتحفظ النصوص المقدّسة للشعب الأومبيري. كما شاهد الكاتدرائية القديمة. ولم يتبقَّ أيّ شيء آخر جدير بالمشاهدة. ما هو جذّاب بحق هنا هو المدينة بحدّ ذاتها.

غالبية المدن الإيطالية في هذا الريف (مثل العديد من المدن القديمة في أماكن أخرى) توقظ إحساساً بأن منازلها في طريقها إلى الاضمحلال بعد بضع سنوات، كمدنٍ عديدة قديمة أخرى. والسبب في ذلك أن بناءها من الحجارة المنحوتة من دون استخدام الملاط، فيتوهّم الناظر الأوروبي في العصر الوسيط أن ملاط الجدران قد تفتّت عنها، وتُركت على حالها المهجور تواجه مصيرها البائس نحو الاضمحلال. مدينة غوبيو أشدّ المدن الإيطالية افتقاراً إلى الملاط، أكثرها تفتُّتاً وقلقلة. غوبيو مهملة ومهجورة في واقع الأمر، ولا يؤمّها السيّاح، كما تفتقر إلى الصناعات والتجارة، وأسباب الحياة، والغريب في الأمر كيف يتكسّب قاطنوها البضعة آلاف قوت يومهم وهم محشورون بين جدرانها.

خرج ميهاي من الكاتدرائية، وانعطف نحو ڤيا دي كونسولي.

فكّر: هذا هو الشارع الذي تكلّم عنه أليسلي. إنه بحقّ شارعٌ يوحي بالكثير. قديم، قاتم، كئيب، حتى يخمّن المرء أن بيوته العائدة للعصر الوسيط، المفتقرة إلى الجمال، تُلجِئ سكاناً يعيشون منذ قرون على ذكرى ماضيهم الأمجد، بالخبز، والماء.

كانت بوابة الأموات في المنزل الثالث مباشرة، فتحة بوابةٍ قوطيّة مغلقة ضيّقة على ارتفاع متر من سطح الأرض، إلى

جانب الباب العادي. لكل بيوت ڤيا دي كونسولي مثل هذه الفتحة، ولا شيء آخر في الشارع، ولا حتى أثر لآدميّ.

عبَر زقاقاً ضيقاً إلى الشارع الموازي الذي لم يكن أكثر شباباً، لكنّه نبيلٌ بمسحةٍ من كآبة توحي بأن هناك من يعيشون فيه، مع ذلك، من الأحياء، والموتى. لمح أمام أحد المنازل مجموعةٌ فريدة من الناس تبعث على الدهشة. ولو لم يعرف حالاً ما أمر هؤلاء لظنَّ أنه يتوهّم. وقفوا أمام البيت بوجوهٍ مقنّعة حاملين الشموع. كانوا في مأتم. عناصر مقنّعة لإخراج الموتى تبعاً لطقس إيطالي قديم.

أنزل ميهاي قبعته وتقدّم نحوهم ليشاهد الطقس عن كثب. كانت بوابة الموتى مفتوحة. أمكن له النظر في المنزل إلى داخل الغرفة المظلمة التي يتوضّع فيها النعش. تحلّق كهّان وخدم بأبخرتهم يرتّلون حول التابوت. بعد قليل قاموا برفعه عن الأرض، وناولوه عبر بوابة الموتى إلى الشارع حيث قام الملثّمون بحمله على الأكتاف.

عندئذٍ برز من البوابة الكاهن بعباءته الكهنوتية، وبنظرةٍ حزينة لا ترى شيئاً، أمال رأسه رافعاً وجهه الشاحب نحو السماء، ثم شبك كفَّيه بحركةٍ، بمنتهى اللطف، تذكّر بأشياء قديمة.

لم يسارع ميهاي إليه، لأنه الآن يمارس مهمّته الكهنوتية بصفته كاهناً، راهباً خشوعاً جادّاً... لا، لم يسارع إليه باعتباره شاباً، أو تلميذاً في المرحلة الثانوية.

انطلق الموكب بالتابوت، وفي إثره الكاهن وحشدُ المشيّعين. انضمّ ميهاي إلى مؤخرة الموكب، وسار حاسر الرأس بلا قبعة باتجاه المقبرة البعيدة على سفح الجبل. اشتدّ خفقان قلبه،

حتى اضطرّ للتوقف بين الحين والآخر. تُرى، هل ما يزال أحدهما يستطيع مخاطبة الآخر بعد كلّ هذه السنوات، وبعد افتراق طريقيهما بهذه الحدّة كلها؟

سأل ميهاي أحد أفراد الموكب: «ما اسم الكاهن؟».

فأجاب الإيطالي: «هذا الأب سڤرينوس. قدّيس بمعنى الكلمة».

بلغوا المقبرة. أنزلوا التابوت في القبر، وانتهى التشييع وتفرّق الناس. ومضى الأب سڤرينوس مع شريكه نحو المدينة.

لم يمتلك ميهاي الجرأة بعدُ للتقدّم منه، شعر أن أرفين الذي بات قدّيساً، سيخجل من فترة شبابه الدنيوية، ويتذكّرها باشمئزاز نبيلٍ كالقديس أوغسطين. لا بدّ أنه قلّب أموره وقوّم ماضيه برمّته، وقذف من ثمّ بميهاي وأبعده من نفسه، فلا يرغب حتى في ذكراه. لعلّ من الأفضل أن يسافر، ويعود من حيث أتى مكتفياً بهذه الأعجوبة: رؤية أرفين.

ترك الأب سڤرينوس أصحابه، واستدار. أتى نحوه مباشرة. تخلّى ميهاي عن رجولته وركض إلى أرفين.

«ميشي!» صرخ أرفين وعانقه. وبعدئذٍ لامس خدّه الأيمن ثم خدّه الأيسر بخدَّي ميهاي على التوالي، بكلّ حنان الكهنوتيّة.

قال بهدوء: «رأيتك عند القبر. كيف وصلت إلى هنا، حيث تعجز الطيور؟».

قال ذلك بمحبّة، وعرف من نبرة صوته أنه لم يستغرب حضور ميهاي ولو استغراباً طفيفاً، بل بدا عليه كأنه ينتظر هذا اللقاء منذ مدّة.

لم يقوَ ميهاي على الكلام. اكتفى بالتحديق في وجه أرفين. كم طالت قامته وغدا هزيلاً! وفي عينيه اللتين اندلعت فيهما نار سنّ المراهقة، وشعّت منهما، ممزوجة ببهجةٍ آنيّة، كآبةٌ عميقة أشبه بالكآبة المنعكسة من منازل غوبيو! كلمة واحدة كانت تدور في بال ميهاي: «راهب». فهم الآن أن أرفين راهب، ودمعت عيناه، فأدار وجهه.

- لا تبكِ! أنت أيضاً تغيّرت منذ تلك الفترة. آه، كم فكّرت فيك يا ميشي! آه يا ميشي!

لم يتمالك ميهاي نفسه. ينبغي أن يقول لأرفين كلّ شيء. كل شيء لم يتمكن من قوله حتى لأرجي. أرفين يستطيع أن يساعده في كلّ شيء. لأن أرفين حظي بهذه الهالة، بهذا الشعاع، الذي جاءه من عالم آخر.

- أعلم أن من الضروري بقاءك هنا في غوبيو، ولهذا قصدتك، أين يمكننا أن نجلس ونتحدّث؟ هل بوسعك القدوم الآن إلى الفندق؟ أيمكننا العشاء معاً؟

ابتسم أرفين لسذاجة ميهاي، وقال: «لا، لا يمكن. والآن، في هذه اللحظة، لا وقت لديّ للأسف. عزيزي ميهاي، أنا مشغول حتى المساء. عليّ أن أسرع».

- مشاغلك كثيرة إلى هذا الحدّ؟

- كثيرة جداً. ليس بوسعكم أنتم تصوُّر الأمر. تخلّفتُ اليوم عن صلوات عدّة.

- متى إذاً ستفرغ؟ وأين سنلتقي؟

- بطريقةٍ وحيدة فقط، يا ميشي، لكني أخشى أن تزعجك.

- أرفين! كيف تفكر بأن الأمر يزعجني إن كنت سأتحدَث معك؟

- لأن عليك أن تصعد إلى الدير. لبس بوسعنا نحن أن نخرج إلا لأسباب الرعاية الروحية، كخروجي الآن إلى الدفن مثلاً. لكلّ ساعة في الدير واجباتها الصارمة. وينبغي أن نتحدَث معاً بكامل الهدوء. ونحن، كما تعلم، نرتاد الكنيسة عند منتصف الليل للترتيل. نخلد إلى النوم عند التاسعة ليلاً حتى منتصف الليل. لكنها فترة نوم غير إلزامية لا تفرضها القواعد. يمكننا التحدَث خلال هذه الفترة. أفضل الأوقات أن تأتي بعد العشاء، تعال كحاجّ. لقد اعتدنا أن نستقبل الحجّاج. أحضِر معك هديةً صغيرة للقدّيس أوبالدو، وللإخوة أيضاً. بعض الشموع في العادة. واطلب من الأخ البوّاب أن يضعك في غرفة الحجّاج لقضاء الليلة. ليست مريحة تماماً قياساً إلى ظروفك، لكن ليس باليد حيلة. لا أحبّك أن تغادرها عند منتصف الليل عائداً إلى المدينة، لأنك لا تعرف مسالك الجبل الموحشة. وحين تأتي دع أحد الأولاد يوصلك إلى الدير. حسناً؟

- حسناً يا أرفين، حسناً.

- رافقك الله حتى ذلك الحين، عليّ أن أسرع فقد تأخرت. أراك مساءً. الله معك!

ومضى مسرع الخطوات.

نزل ميهاي عائداً إلى المدينة. صادف حانوتاً قرب الكاتدرائية، فابتاع شمعة جميلة للقديس أوبالدو، وذهب إلى الفندق. تناول العشاء، وفكّر في ما الذي سيأخذه معه من متاعٍ كما لو أنه

حاجَ. وفي نهاية الأمر أعدّ حزمة تحتوي على شمعة، وبيجاما للنوم، وفرشاة أسنان، فكانت صرّةً لائقة بحاجٍّ زائر. ثم كلّف النادل بتأمين دلّال. لم يطُل الوقت حتى عاد النادل بصبيّ، وانطلقا.

استفسر ميهاي خلال الطريق عن أسماء الأمكنة التي يعبرانها. وسأل ماذا حصل مع الذئب الذي استعطفه القدّيس، وتعاهد معه من أجل المدينة.

قال الصبي مستذكراً: «قد تكون حادثة قديمة قبل الدوتشي موسوليني. منذ أن جاء الدوتشي لا وجود للذئاب».

- هل اعتاد الحجّاج أن يصعدوا إلى الدير؟

- طبعاً، في الغالب. القدّيس أوبالدو يفيد في علاج أوجاع الركبة والظهر. هل تعاني من وجع الظهر؟

- ليس ظهري...

- ولكنه مفيد أيضاً في علاج فقر الدم، والعصبية. أغلب الحجاج يأتون في السادس عشر من أيار (مايو)، يوم القدّيس أوبالدو. في ذلك اليوم يحضرون من الكاتدرائية Ceri تماثيل الشمع، ويصعدون إلى الدير في موكب. لكنه ليس موكباً كموكب القيامة، أو عيد السيد. ينبغي الصعود بتماثيل الشمع ركضاً.

- وماذا تصوّر التماثيل؟

- لا أحد يعلم. قديمة جداً.

استيقظ المؤرخ الديني القابع داخل ميهاي. ينبغي متابعة أمر السيرات. من الطرافة الصعود بها جرياً إلى الدير، كالنساء الباخوسيات اللواتي كنّ في تراقيا(********) يصعدن الجبل جرياً في عيد ديونيسوس. غوبيو قديمة بشكل ملاحظ: الرّقم الأومبيرية، بوابات الموتى... وربما يكون ذلك الذئب الذي تعاهد معه القديس فرانسيس، أحد آلهته الإيطالية القديمة، وأحد أقارب الذئبة أم رومولوس، وريموس(********) التي تعيش على هذا النحو في الأسطورة. ما أغربه من مكان حتى يقصده أرفين بالتحديد!

بعد ساعة من الصعود الشديد للجبل وصلا إلى الدير. أحاط بالأبنية سور حجري متين، وكانت البوابة الصغيرة مغلقة. طرقا بابها فانفتحت نافذة البوابة بعد وقت طويل، وأطلّ منها راهب ملتحٍ. أوضح الصبي الماهر أن السيد حاجّ، ويرغب في زيارة القديس أوبالدو. فُتح الباب. دفع ميهاي النقود للدليل، ودخل إلى فناء الدير.

قاس الأخُ البوّابُ ميهاي من رأسه حتى قدميه، متفحّصاً باستغراب ما يرتديه من لباس.

- هل السيد أجنبي؟

- أجل.

- لا بأس. عندنا راعٍ أجنبي ويفهم لغة الأجانب. سأبلّغك في ما بعد.

وقاد ميهاي إلى أحد الأبنية التي ما زالت مضاءة، وبعد دقائق جاء أرفين لا يرتدي الآن العباءة الكهنوتية، بل أتى برداءٍ

فرنسيسكاني بنّيّ اللون. صُدم ميهاي بفرنسيسكانية أرفين. دائرة الشعر الحليق في مؤخرة رأسه أعطت لوجهه طابعاً مختلفاً تماماً، ودلّت على تخلّيه الكلّي عن دنيويته، وأعطته هالة من لوحات جيوتو وفرا أنجيليكو(*********)، ومع ذلك فقد أحسّ ميهاي أن هذا الوجه هو وجه أرفين الحقيقي، وأنه منذ البداية مهيّأ لهذا الوجه. أرفين أصلع بالأساس، لكن صلعته كانت مغطاة بشعره الأسود المجعّد. مما لا ريب فيه أن أرفين قد وجد نفسه، مهما كانت هذه الحقيقة تبدو مروّعة. حتى أن ميهاي قام بتحية أرفين، قبل أن يلاحظ ذلك، كما اعتاد في المدرسة أن يحيّي رجال الكنيسة.

- المجد للمسيح!

- آمين! وتمكّنت من العثور عليّ حيث لا يصل الطير؟ تعال، سآخذك إلى غرفة الاستقبال. يُحظَر عليّ استقبال الضيوف في قمرتي.

- قل لي، كم عددكم في هذا الدير؟

- ستة. لدينا متسع من الأمكنة كما ترى.

كانت حالة شجيّة. ستة أشخاص في مكان يتسع لمئتين بسهولة.

- ألا يتملّكك الخوف هنا؟

ابتسم أرفين، ولم يردّ على السؤال الطفولي.

كانت غرفة الاستقبال صالة فارغة عملاقة، في أحد أركانها منضدة وبعض الكراسي العتيقة. على المنضدة قدحٌ وإبريق من

النبيذ الأحمر.

قال أرفين:

- بفضل طيبة رئيس الدير، بوسعي أن أقدّم لك قليلاً من النبيذ.

سوف يلاحظ ميهاي أن الغرابة الطفيفة التي يتكلّم بها أرفين، مردُّها أن سنوات قد انقضت من دون أن يتحدّث باللغة المجرية.

- سأسكب حالاً. ستكون جيدة بعد مشوارك الطويل.

- وأنت؟

- أووه! أنا لا أشرب، منذ أن التحقت.

- أرفين... ولعلّك لا تدخّن!

- لا أدخن.

اغرورقت عينا ميهاي بالدمع مرة أخرى. شقّ عليه أن يتصوّر ذلك. كان مستعدّاً أن يصدّق أيّ شيء عن أرفين: أن يعذّب نفسه بحزام مشدود تحت ثيابه، أن يوصم بمختلف الندبات قبل موته... أما أنه لا يدخّن فذلك ما لا يُصدّق!

- كان عليّ أن أتنازل عن أمرٍ أعظم بكثير فلم ألحظ هذه التضحية. لكن، اشربْ أنت، ودخّنْ!

اجترع ميهاي كأساً من النبيذ. لدى المرء أوهامٌ حول نبيذ الأصدقاء الذي يحفظونه في دنانٍ عرّشت عليها العناكب، من

أجل الضيوف المميّزين. لم يكن نبيذاً عادياً، بل نبيذاً قروياً صافياً، يليق مذاقه ببساطة الغرف البيضاء الفارغة.

- لا أدري ما إن كان نبيذاً جيداً. ليس لدينا قبو. نحن دير فرنسيسكاني، نظام تسوّل. ويجب أن تفهم ذلك بمعناه الحرفي. والآن، حدّثني بما لديك!

- انظر يا أرفين، بالنظر إلينا نحن الاثنين، حياتك أروع من حياتي بكثير. وحياتي، بحقّ، أكثر إثارة للفضول من حياتك. عليك أنت أن تستهل الحديث بما لديك.

- وعمَّ سأحكي لك يا عزيزي ميشي؟ ليس لدينا نحن سيرة ذاتية. قصّة أيٍّ منا شبيهة بقصة الآخر، والكلّ ينصهر في قصة الكنيسة.

- لكن، حدّثني كيف جئت إلى غيوبو وصرت هنا!

- بدأت قصتي في الوطن، في المجر، مبتدئاً في مدينة جونشوش. ثم لفترة طويلة في دير مدينة أغَر. وبعدها كان على الرهبانية المجرية أن ترسل أباً إلى روما بقضية معيّنة، فأرسلوني، لأني في تلك الفترة كنت تعلّمت الإيطالية. وبعد أن أنجزت تلك القضية، دُعيت إلى روما مرّةً أخرى لأني كنت محطّ محبّة الجميع، مع أني لا أستحقّها، ورغبوا هناك في إبقائي قرب رئيس الدير، لكنّي خشيت أن يقودني هذا مع مرور الوقت، إلى عملٍ مهنيّ بالمفهوم الفرنسيسكاني طبعاً، فأستلم مرتبة إلى جانب رئيس الدير، وهذا ما لم أكن راغباً فيه. فطلبت منه أن يعيّنني هنا في غوبيو.

- ولمَ هنا بالذات؟

- لا أدري بالضبط. ربما بسبب الحكاية القديمة، حكاية ذئب غوبيو التي طالما أحببناها في سنوات المدرسة. أتذكر؟ هذه الحكاية حثّتني للمجيء إلى هنا قادماً من أسيسي، وأعجبني هذا الدير.

- وهل أنت سعيد هنا؟

- جداً. مع مرور الأعوام، يتنامى السلام في داخلي... لكني لا أريد الآن أن أكون «بابوياً» أمامك -بابتسامة ناعمة غريبة وضع هذه الكلمة بين قوسين- لأني أعرف أنك لم تأت لزيارة الأب سڤرينوس، بل إلى من كان أرفين يوماً. أليس كذلك؟

- لا أدري. قل لي: أمن الصعب طرح مثل هذه المسائل؟ أليس الأمر هنا في غاية الرتابة؟

- لا، أبداً. يتخلّل حياتنا السعادة، والحزن، كما في الحياة الخارجية، لكن المعايير مختلفة.

- ولمَ ترغب في العمل بمهنة راهب. أمن باب التواضع؟

- ليس لهذا السبب. تلك المراتب التي يمكنني بلوغها متوافقة مع التواضع، لا بل تمنح المرء فرصة للتغلّب على غطرسته. لكني لا أريد أن أمتهن الرهبانية، لأن الفضل في تقدُّمي ما كان لي أن أرجعه إلى كوني راهباً جيداً، بل إلى تلك الخصال مني التي جلبتها معي من حياتي الدنيوية، بل من أجدادي. إلى موهبتي اللغوية، وإلى مقدرتي أحياناً في التعبير عن مسائل بعينها على نحوٍ أسرع من بعض زملائي هنا. إذاً إلى خصالي اليهودية. وهذا ما لم أرغب به.

- قل يا أرفين، كيف نظر زملاؤك الرهبان إلى أنك كنت يهودياً. ألم يؤثّر عليك سلباً؟

- لا. بل على العكس. أثّر إيجاباً، لأن هناك من زملائي من كان يُشعرني بالكره الشديد لأمثالي، فأعطوني الفرصة للوداعة وممارسة نكران الذات. ثم، في المجر، حين مارست الرعاية الروحية في القرى، ذاع صيتي، ونظر إليّ الأنصار القرويون المستقيمون باعتباري طفرة، وأصغوا إليّ بانتباه أشدّ. أما في إيطاليا فلا يهتمّ أحدٌ للأمر. حتى أنا من النادر أن يخطر ببالي أنني كنت يهودياً.

- وماذا تفعل يا أرفين طوال النهار؟ ما هي مشاغلك؟

- مشاغل كثيرة. الصلوات بالمقام الأول، والممارسات الروحية.

- أما زلت تكتب؟

ابتسم أرفين ثانية، وقال: «لا. منذ زمن طويل لا أكتب. حين التحقت بالرهبانية كنت أضع في تصوّري أنني سأكون شاعراً كاثوليكياً يخدم الكنيسة، لكن...».

- ماذا؟ فارقك الإلهام؟

- بل أنا من فارقت الإلهام لعدم جدوى ذلك.

سرح ميهاي متأملاً، بدأ يشعر الآن حقاً أي عوالم باتت تفصله عن الأب سڤرينوس الذي كان أرفين يوماً.

- ومنذ متى أنت في غوبيو؟ - سأله أخيراً.

- لحظة... أظن... منذ ستّ سنوات، وربما سبع.

- قل يا أرفين، كلّما خطرتَ على بالي أفكّر بهذا: هل تحسّون أنتم بأن الزمن يمضي، وأن كلّ هنيهةٍ منه واقعٌ بحدّ ذاته؟ هل لديكم تاريخكم؟ إذا ما خطرت لك حادثة، هل تستطيع أن تقول إنها وقعت في عام 1932 أو 1933؟

- لا. من نِعم الله علينا، ونحن في حالتنا هذه أن الله أخرجنا من الزمن.

وهنا انتابت أرفين نوبة سعالٍ حادّة جعلت ميهاي يفطن أن أرفين سعل من قبل سعالاً جافاً مقيتاً.

- هل تعاني يا أرفين من مشكلة رئوية؟

- طبعاً، ليست رئتاي على ما يرام... وأستطيع القول إنهما في حالة سيّئة. نحن المجريّين مدلّلون، كما تعلم، وندفئ أماكننا جيداً. الشتاءات الإيطالية مقبولة ويمكن تحمّلها، لكنني طوال الوقت في الغرفة غير الدافئة، وفي الكنائس الباردة... أنتعِلُ صندلاً وأسير على الأرض الحجرية. كما أن هذا اللباس لا يدفئني بما فيه الكفاية.

- أنت مريض يا أرفين، ولا يعالجونك؟

- أنت شديد الطيبة يا ميهاي، ولكن لا ينبغي أن تأسف لأجلي -قال أرفين وهو يسعل- ولمصلحتي أنني هنا. لهذا السبب قبلوا بعدم بقائي في روما، ووافقوا على مجيئي إلى غوبيو لنقاء هوائها. قد أتعافى. ثم إن المعاناة الجسدية من أركان نظام حياتنا. أحدٌ آخر هو من عليه أن يقوم بتعذيب جسده، أما في

حالتي فإن الجسد يعذّب نفسه تلقائياً... لكن دعنا من هذا. جئتني أنت لتحدّثني عن نفسك، فدعنا لا نهدر الوقت الثمين في ما ليس بمقدورنا نحن أن نسهم فيه.

- لكن المسألة ليست كذلك يا أرفين... عليك أن تحيا بطريقة أخرى، وأن تقصد مكاناً ما حيث تُقدَّم لك الرعاية ويُشربونك الحليب، وترتاح لأيام.

- لا تقلق لأجلي يا ميهاي! سيحين ذلك الوقت حين ينبغي علينا أن نحمي أنفسنا من الموت، فتركُنا للمرض يستفحل فينا هو شكلٌ من أشكال الانتحار. ما إن تصبح المسألة جادّة حتى يأتيني الطبيب. لكننا ما زلنا في منأى عن ذلك، صدِّقني! والآن، حدِّثني! اروِ لي كلّ ما حصل معك منذ أن افترقنا! ولكن، قل لي أولاً كيف عثرت عليّ؟

- قال يانوش سبتنكي إنك في أومبريا، أو في مكانٍ لا يعرفه بدقّة. ومن المصادفات البحتة، خمّنتُ أنك في غوبيو، وأنك هو الأب سفرينوس الشهير.

- أجل أنا الأب سفرينوس. الآن حدّثني عنك! أسمعك.

أراح رأسه على يده، بالوضعية الكلاسيكية لطقس الاعتراف. وبدأ ميهاي الرواية. تعثّر في البداية، ووجد مشقّةً في الكلام، لكن أسئلة أرفين يسّرت عليه الأمر. فكّر في نفسه: عبثاً تأجيل هذا الاعتراف. فلم يستطع مقاومة ما يريد أن يعترف به. نطق الآن بما كان منذ فراره مجرّد شعورٍ غريزيّ في نفسه: كم أخطأ في زواجه من أجل أن يعيش حياة استقرارٍ زائفة! لا يدري ماذا يفعل، وما الذي ينتظره من المستقبل، وكيف يمكنه استرجاع

ذاته الحقيقية. أدرك مقدار العذاب الذي يسبّبه له حنينُه إلى أيام الصبا، وإلى أصدقائه في تلك الفترة.

حين نطق بذلك أربكته عاطفته الشديدة، وتعثّر صوته. أشفق على ذاته، وتملّكه شعورٌ بالخجل من حديثه الوجداني أمام أرفين. لكنه فجأة وجد نفسه يسأل أرفين مصدوماً:

- وأنت؟ كيف تحتمل؟ ألا يؤلمك الأمر؟ ألا تفتقد تلك الفترة؟! كيف فعلت ما فعلت؟

ارتسمت على وجه أرفين ابتسامته الطفيفة مجدّداً، ثم أطرق برأسه ولم يُجِب.

- أجِب يا أرفين! أتوسّل إليك أن تجيب: ألا تفتقدها؟!

قال بنبرة تفتقر إلى الإحساس، ووجه كئيب: «لا، لم أعد أفتقد لشيء».

وصمتا طويلاً. حاول ميهاي أن يفهم أرفين. لم يكن ثمّة من سبيل آخر. لقد تخلّص أرفين من كلّ ما في داخله. وكان عليه أن ينفصل عن الجميع. واقتلع من نفسه حتى الجذور التي تنبت منها مشاعر المرء تجاه الآخرين. لم يعد يؤلمه الأمر. ولكنه ظلّ مقيماً، قاحلاً، عارياً، هنا فوق الجبل... ارتعد ميهاي عندما فكّر بهذا.

ثم خطر له على حين غرّة:

- سمعت عنك حكاية... كيف أنك عالجت امرأة كانت تزورها الأموات، هنا في أحد قصور ڤيا دي كونسولي. قل لي يا أرفين ألم تكن تلك المرأة هي إيڤا؟

أوماً أرفين بالإيجاب.

نهض ميهاي مُثاراً، واجترع ما تبقى من النبيذ الأحمر.

- أووه، يا أرفين... احكِ! كيف حصل؟! كيف حال إيڤا؟!

أما كيف كانت إيڤا، فسرح أرفين متأملاً، ثم قال:

- وكيف لها أن تكون؟ كانت في غاية الجمال، مثلما عهدناها دائماً.

- وكيف ذلك؟ ألم تتبدّل؟

- لا. أنا على الأقل، لم ألاحظ عليها أيّ تبدُّل.

- وماذا تعمل إيڤا؟

- لا أعرف عنها الكثير. كلّ ما قالته أن أحوالها جيّدة في البلدان الغربية.

ترى هل اندلع شيء ما في أرفين حين تقابلا؟ لكنه لم يجرؤ أن يطرح مثل هذا السؤال.

- وأين هي الآن، ألا تعلم؟

- كيف لي أن أعلم؟ مضت سنوات على تلك الحادثة. أظن أنها كانت في غوبيو. ألم أقل لك أن إحساسي بالزمن غير دقيق.

- قل لي، إن كان بوسعك، كيف حصل الأمر، وطردتَ تاماش الميّت؟

شابَ صوتَ ميهاي ذعرٌ، لكن أرفين رسم تلك الابتسامة الطفيفة.

- لم يكن الأمر شاقّاً. كل ما هنالك أن ذلك القصر جعلها ترى أشباحاً، وبوابات الأموات أقلقت آخرين غيرها. وكانت مهمّتي أن أقنعها بمغادرة المكان. ثم إنها، كما أظن، كانت تمثّل دوراً كهذا، كما تعرفها. أخشى أنها لم تشاهد تاماش مطلقاً، ولم تكن لها رؤاها، وقد تكون، لا أدري. مرتابٌ في الأمر لكثرة انشغالي بهذه الأشباح خلال سنوات في غوبيو مدينة بوابات الموتى.

- ومع ذلك... كيف شفيتَ إيڤا؟

- لا شيء خاصّ. كلّمتها بجدية، صلّيت قليلاً، فاطمأنت. اكتشفتُ أن الأحياء مكانهم بين الأحياء.

- هل أنت أكيد من هذا يا أرفين؟

قال أرفين بمنتهى الجدّية: «بما فيه الكفاية. لها خياران، إما أن تختار ما اخترته أنا، أو أن تكون بين الأحياء... كيف أعِظك، وأنت تعلم ذلك!».

- ألم تلمّح لك كيف مات تاماش؟

لم يُجِب أرفين.

- هل باستطاعتك أن تُخرج مني ذكرى تاماش وإيڤا، وذكراكم جميعاً؟

سرح أرفين.

- في غاية الصعوبة. في غاية الصعوبة. لا أدري ما إن كان ذلك أمراً حسناً، فما الذي سيتبقّى لك إذاً؟ من الصعوبة أن أنصحك بشيء يا ميهاي. نادراً ما يزور القديس أوبالدو شخصٌ محيّر مثلك، لأقدّم له نصائح يمكنك أن تتقبّلها. كنز الرأفة لا يُشرع إلا أمام من يريد أن يسهم في الرأفة.

- ومع ذلك، ما الذي سيحصل لي؟ ماذا أفعل في الغد، وبعد الغد؟ كنت أنتظر الإجابة العجيبة منك. مستسلماً للخرافة وثقت بما ستقدّم لي من نصائح. هل أرجع إلى بودابست لأعود الشابّ الميسور المبذّر، أم أبدأ حياة جديدة، عاملاً؟ لا سيما وأنني أتقنت المهنة، وبوسعي أن أكون عاملاً يمتلك المهارة، لا تدعني وشأني، وحيداً كحالي الآن. ماذا أفعل؟

أخرج أرفين ساعة فلّاحية ضخمة من ردائه.

- اخلد الآن إلى النوم. منتصف الليل وشيك، وعليّ أن أذهب إلى الكنيسة. نم الآن، وفي ما بعد سأوصلك إلى فندقك. سأفكّر في الأمر خلال صلاة الفجر. قد ينجلي شيء ما كما حدث غير مرّة. حتى الصباح قد أتمكّن من قول شيء لك. والآن اذهب إلى النوم. تعال!

وقاد ميهاي إلى التكيّة.

هذه الصدمة التي لحقت بميهاي، ناسبتها هذه الغرفة شبه العاتمة التي شهدت عبر قرون أحلام الحجّاج بما يكابدون، وبما يحملون من رغبات وأمانٍ في الشفاء الأعجوبي، وأغلب أماكن النوم في الغرفة كانت فارغةً، باستثناء اثنين أو ثلاثة في ركنها القصيّ.

- استلقِ يا ميهاي! نوماً هنيئاً! تصبح على خير! - قال أرفين، ورسم لميهاي إشارة الصليب، ثم انطلق مسرعاً.

ظلَّ ميهاي فترة طويلة جالساً على طرف السرير القاسي، متصالب اليدين. كان حزيناً ولا يشعر بالنعاس.

هل يمكن مساعدتي؟ أما زال في مكنة طريقي أن تقودني إلى وجهة ما؟

ركع، وصلّى للمرّة الأولى منذ سنوات.

ثم استلقى، وغفا بمشقّة على السرير القاسي في بيئة غير مألوفة. فيما تحرّك الحجاج في أسرّتهم قلقين، يطلقون التنهيدات، ويئنّون في أحلامهم، وطلب أحدهم عون القديس يوسف، والقديسة كاثرين، والقديسة آغاثا. وحين نام ميهاي أخيراً كان الفجر قد بزغ.

أفاق في الصباح يغمره شعوره الحلو بأنه حلم بإيقا. لم يتذكّر تفاصيل منامه، لكنّه أحسّ بسريان نشوةٍ حريرية في أرجاء جسده لا يمنحها سوى الحلم، والحب المستيقظ، لكن بحالات استثنائية جداً. كان هذا الإحساس الناعم غريباً ذا حلاوة مرضية، ومتناقضاً مع هذا السرير الزهدي القاسي.

نهض واغتسل ليس بقليلٍ من إنكار الذات، في حمّام لم يكن عصريّاً بما فيه الكفاية، وخرج إلى الفناء. كان صباحاً نسيمياً بارداً مشرقاً. قُرع جرس إقامة القدّاس لتوّه، فأسرع الأصدقاء، والمبتدئون، وخدم الدير، والحجّاج من كل صوب يؤمّون الكنيسة. أمّها أيضاً ميهاي، وأنصت بخشوع لكلمات طقوس الخدمة اللاتينية. غمره شعورٌ مهيب بالسعادة. لا بدّ أن أرفين

سينطق بما ينبغي فعله. ربما عليه أن يؤدّي الكفّارة. أجل، سيكون عاملاً بسيطاً، ويكسب قوته بيديه. شعر أن شيئاً ما يبدأ في داخله، وأن هذه التراتيل التي تصدح الآن هي من أجله، ومن أجله أيضاً تُقرع الأجراس الربيعية الجهيرة الجديدة. من أجل روحه.

بانتهاء القدّاس خرج إلى الفناء. طالعه أرفين وتبسّم، ثم سأله:

- كيف نمت؟

- جيداً. جيداً جداً. حالتي أفضل من مساء الأمس. لا أدري ما السبب.

ورمق أرفين بنظراتٍ مترقبة. وحين لم ينطق أرفين بأيّما كلمة، سأله: «هل فكرت بما عليّ فعله؟».

قال أرفين بهدوء: «أجل يا ميهاي! أظن أن عليك الذهاب إلى روما».

سأل ميهاي باستغراب شديد: «إلى روما؟ لماذا؟ كيف خطر لك؟».

- ليل أمس في الجوقة... كيف سأشرح لك؟ لا تعرف هذا النوع من الاسترخاء والتأمل. أعرف أن عليك الذهاب إلى روما.

- لكن، لماذا يا أرفين، لماذا؟

- كم من الحجّاج، والمتوارين، والفارّين قصدوا روما عبر القرون، وحصل هناك الكثير... هناك بصورة خاصة يحصل

الكثير! ولهذا يقال كلّ الطرق تؤدّي إلى روما. اذهب إلى روما يا ميهاي، وسنرى! لا أستطيع أن أقول شيئاً آخر.

- لكن ماذا سأفعل في روما؟

- لا يهمّ ماذا تفعل. قم مثلاً بزيارة كنائسها المسيحية الأربع الكبيرة. وقم بزيارة الأنفاق المسيحية «الكاتاكومبات». افعل ما تشاء. لن تضجر في روما. الأمر الأهمّ ألّا تفعل شيئاً. دع نفسك للمصادفة. استسلِم تماماً! لا تتقيّد ببرنامج! هل ستفعل؟

- أجل يا أرفين، ما دمت تقول هذا.

- امضِ إذاً في طريقك، حالاً! وجهك اليوم ليس مخطوفاً كيوم أمس. استغلّ، لانطلاقك، هذا اليومَ الحسن. اذهب! الله معك!

وقام بمعانقة ميهاي، ولم ينتظر منه الردّ. ولامس خدّيه الأيمن، والأيسر، بخدّي ميهاي. وقف ميهاي للحظة مستغرباً، ثم حمل متاعه، وهبط الجبل.

- ٦ -

حين استلمت أرجي البرقية التي أبرقها ميهاي عن طريق الفاشستي الصغير، لم تبقَ في روما مزيداً من الوقت. ولم تشأ العودة إلى الوطن، لأنها لم تعرف ما ستقوله في بودابست عمّا حلّ بزواجها، فسافرت إلى باريس كأولئك اليائسين الذين يريدون أن يبدؤوا حياة جديدة.

قصدت في باريس صديقة طفولتها شاري تولناي. كانت شاري شهيرةً بخصالها الرجولية، وتمرّسها، لم تسعَ إلى الزواج، فلم

تكن تمتلك الوقت لذلك. كانت المؤسسة التي تعمل فيها في حاجة ماسّة إليها طوال الوقت، سواء في الشركة، أو في الجريدة. كانت تمارس حياتها الغرامية كتاجرٍ كثير السفر. ومع مرور الوقت، حين قرفت كلَ شيء، هاجرت إلى باريس لتبدأ فيها حياة جديدة، ومارست هنالك عملها السابق نفسه في بودابست، لكن الآن لدى مؤسّسات، وشركات، ومجلّات فرنسية. حين وصلت أرجي إلى باريس، كانت صديقتها سكرتيرة شركة سينمائية ضخمة. كانت، في المؤسسة، المرأةَ البشعة الوحيدة التي لا يتماشى عملها مع الجوَ الشهوانيّ هناك. كانت المرأة الثقة، النزيهة، التي تعمل الكثير ولا تكسب إلا القليل قياساً بالآخرين. غزاها الشيب، وكان رأسها بشعره القصير، فوق قدّها الهشّ الأشبه بأجسام الفتيات الصغيرات، يوحي بالنبل كرأس أُسقف معسكرات. كان الجميع يقصدها، وكانت فخورة بذلك.

سألتها شاري بعد أن روت لها أرجي قصة زواجها: «ممَ ستعيشين؟ من أين ستعيشين؟ هل ما زال بحوزتك الكثير من المال؟».

- قضية أموالي قضية خبيثة. حين انفصلنا، أسهمت بالقسم الكبير مما أملك في شركة أسرة ميهاي، وأودعت قليلاً منها في البنك تحسُّباً للطوارئ. لديّ إذاً ما أعيش منه، لكن تحصيله صعب. يصعب تحويل أموالي المصرفية إلى فرنسا، بطريقةٍ قانونية. ويصلني إذاً ما يرسله وكيلي، وهذا أيضاً ليس أمراً يسيراً.

- أول ما يجب أن تقومي به أن تسحبي أموالك من الشركة.

- أجل، لكن ذلك يحتّم أن يتمّ طلاقي من ميهاي.

- من الطبيعي أن يتمّ طلاقك من ميهاي.

- ليس أمراً طبيعياً إلى ذلك الحدّ.

- ماذا بعد؟

- أجل. لكن ميهاي ليس شخصاً كالآخرين، ولهذا تزوّجته.

- كنتِ طيّبةً معه! لا أحبّ أولئك البشر المختلفين عن الآخرين، حتى الآخرون مقرفون، فكيف بمن يختلف عن الآخرين!

- حسناً يا شاري. دعينا من ذلك! على أي حال، لن أقدّم لميهاي تلك الخدمة القلبية وأنفصل عنه بهذه البساطة.

- إذاً، لمَ لا تعودين إلى بودابست وأموالك هناك؟

- لا أرغب في العودة حتى تترتّب هذه الأمور. ما الذي سأقوله للناس في الوطن؟! لك أن تتصوّري ما ستثرثر به ابنة عمي يوليشكا!

- ستثرثر في جميع الأحوال. اطمئنّي!

- لكني لا أسمع ثرثراتها وأنا هنا. ثم.. لا، لن أعود حتى لأجل زولتان.

- لأجل زوجك الأول؟

- أجل. كان لينتظرني في المحطة وبيده باقة الزهور.

- حقاً؟ أليس غاضباً لفعلتك الشنيعة وتخلّيك عنه؟

- لا، أبداً. يعطيني الحق في ما قمت به، وينتظر بكلّ وضاعة أن أعود إليه يوماً. ولشدّة حزنه لا بدّ أنه تخلّى عن كلّ ضاربات الآلة الكاتبة لديه، ويعيش حياة عذرية. فإن عدت إلى البلد فسيتشبّث بي مرّة أخرى، سيظلّ متعلّقاً بي. وهذا ما لا أطيقه. أحتمل كلّ شيء ما عدا الطيبة والغفران، لا سيما من زولتان.

- أتدرين؟ أنت محقّة في هذا الجانب، لا أحب من الرجل أن يكون طيّباً، ومتسامحاً.

استأجرت أرجي غرفة حيث تسكن شاري، في ذلك الفندق العصري الذي يفتقر إلى النكهة والرائحة، الواقع خلف Jardin des plantes (حديقة النباتات)، المطلّ على شجرة الأرز اللبنانية الضخمة التي، بجدارة شرقية غريبة، تمدّ فروعها على هيئة كفّ، أو وسادة، في الربيع الباريسي المضطرب. لم تقع الأرزة موقعاً حسناً في نفس أرجي الحالمة -وهي في الغربة- بحياة أخرى رائعة، غريبة بالنسبة لها، انتظرتها عبثاً.

في البداية كانت لها غرفتها المستقلة، ثم انضمّتا في غرفة واحدة بقصد التوفير. كانتا تتناولان العشاء معاً في غرفتهما فوق، على الرغم من ممانعة صاحب الفندق إدخال الحاجات معهما. وتبيّن أن مهارة شاري في إعداد العشاء تضاهي مهاراتها الأخرى في شؤونها كافة. لكنها تناولت غداءها بمفردها، لأن شاري كانت تأكل في المؤسسة السندويش وتشرب القهوة واقفة، لتعود حالاً إلى مكتبها. جرّبت أرجي في البداية مطاعم أفضل من شتى الأنواع حتى اكتشفت أن المطاعم الأفضل «تنتف» الغرباء، ففضّلت بعد ذلك أن ترتاد مطاعم صغيرة تقدّم أنواع الأطعمة نفسها بأسعارٍ أقلّ. وفي البداية أيضاً كانت دوماً تتناول القهوة بعد الغداء، لأنها كانت «تعبد» القهوة السوداء

الفرنسية، حتى فطنت إلى أن القهوة ليست بالضرورة حاجة حياتية ماسّة، فتخلّت عن عادتها، إلا مرة واحدة أسبوعياً، فكانت كل يوم اثنين تقصد مقهى Maison في غراند بوليڤار، وتحتسي فنجاناً من القهوة الشهيرة.

في اليوم التالي لوصولها، ابتاعت لنفسها حقيبة يدٍ بديعة من متجرٍ فاخر قرب «مادلين»، كانت آخر مشترياتها الفاخرة، بعد أن اكتشفت، كذلك، أن الأغراض نفسها يمكن الحصول عليها في الشوارع الصغيرة والحوانيت البسيطة، وأسواق شارع دي ريڤولي، أو شارع دي رين، بأسعار أقل بكثير مما «ينتفون» بها الغرباء في الأماكن النبيلة. فاشترت في البداية كثيراً من الحاجات من تلك الأماكن لرخص ثمنها قياساً بأماكن أخرى، حتى اكتشفت كذلك أن أرخص الأسعار على الإطلاق هو أن تتوقف نهائياً عن الشراء. وصارت الأغراض التي تمنّت لو تشتريها تؤجّج في نفسها سعادة خاصة، ولكنها مع ذلك لم تقدِم على شرائها.

لاحقاً اكتشفت على بعد شارعين من سكنهما الحالي، فندقاً أرخص بقرابة الثلث مع توافر الماء الساخن والبارد على الدوام، فأقنعت شاري بالانتقال إليه. وشيئاً فشيئاً مع مرور الوقت صار التقتير شغلها الأهمّ. خطر لها أنها كانت على الدوام تشعر بقابليتها الشديدة للتقتير. في طفولتها، إذا ما حصلت على هدايا قطع الشوكولا، كانت على الدوام تحتفظ بها حتى تتعفّن، وتخفي ملابسها الجميلة حتى تكتشف الفتيات أحياناً، في أماكن رهيبة لا تخطر على بال، شالاً حريرياً متسخاً أو جوروباً بالياً، أو قفازاً باهظ الثمن متعفّناً. لكن الحياة في ما بعد لم تدع أرجي تمارس هوايتها التقتيرية. وعندما أصبحت صبيّة كان عليها أن تظهر إلى جانب أبيها، وأن تؤدي دورها كسيّدة، بل أن

تكون مستهترة لترفع رصيده المالي. لكنها بصفتها زوجة لزولتان كان يحظّر عليها حتى أن تحلم بالتقتير. فإن رفضت مرة حذاء باهظاً، فاجأها زولتان في اليوم التالي بثلاثة أحذية أبهظ ثمناً منه. كان زولتان «رجلاً كريماً»، داعماً أيضاً للفن والفنانين، وكان حريصاً على تأمين كل شيء لزوجته التقتيرية خارج نطاق الإشباع.

والآن في باريس، استيقظت فيها الهواية المكبوتة بقوة نوعية. أسهم في ذلك الجوُّ الفرنسي، وأشكال الحياة الفرنسية التي توقظ رغبة التقتير حتى في النفوس الأكثر استهتاراً. وأسهمت أيضاً عوامل أخرى أكثر غموضاً: ضياعُ حبّها، فشل زواجها، تشتُّت حياتها، كلّها أمور وجدت تعويضاً لها في التقتير. ثم في ما بعد، حين تنازلت عن الحمّام اليومي بعد أن رفع صاحب الفندق تسعيرته، لم تدعها شاري وشأنها، فاتحتها بالموضوع.

- لأيّ جهنّم تقتّرين إلى هذه الدرجة؟ يمكنني منحك المال إذا شئت!

- شكراً لك، ما ألطفك! لكني أملك النقود. وصلني أمس ثلاثة آلاف فرنك من والد ميهاي.

- ثلاثة آلاف فرنك مبلغ ضخم. لا أحب من المرأة أن تدّخر بهذا القدر. شيء ما ليس على ما يرام. أشبه بامرأة تمضي كل يومها بتنظيف البيت، وتتصيّد دقائق الغبار، أو أشبه بامرأة تمضي يومها بغسيل يديها، وتحمل معها في زياراتها منديلاً خاصاً لتجفّف به يديها. لسعادة المرأة أشكالٌ لا حصر لها. قولي، لو سمحت، ماذا تفعلين طوال النهار حين أكون في عملي؟

أُحرِجت أرجي ولم تعرف إجابة عن سؤال كهذا. كلّ ما تعلمه أنها تسعى إلى التقتير. لا تقصد هذا المكان أو ذاك، لا تفعل هذا ولا ذاك، لكيلا تصرف المال. لكن ما الذي تفعله سوى ذلك، فهذا شيء غبشيّ، مشوّش.

صاحت شاري: «جنون! كنت أظن أن لديك صديقاً تمضين الوقت معه، وتبيّن أنك تكتفين بالحملقة أمامك وتحلمين طوال اليوم كالمعتوهات، وطبعاً يزداد وزنك على الرغم من قلّة الطعام الذي تتناولينه. طبعاً يزداد وزنك، وعليك أن تخجلي من نفسك! لن يبقى الأمر هكذا. عليك أن تختلطي بالناس، وأن تهتمّي بشيء ما. آه، لو كان لدي الوقت!».

وبعد مضيّ يومين قالت لها مكشّرة:

- انظري، سنذهب هذه الليلة للتسلية. هناك سيّد مجرى يريد أن يقيم علاقة تجارية مع الشركة، ويعوّل عليّ في ذلك، لأنه يعرف أن مديري يصغي إليّ. دعاني إلى العشاء، ويريد أن يقدّمني لمحاسبه المالي، الذي سيفاوض باسمه. فقلت له إنني لا أهتمّ لمحاسبين «بشعين»، حسبي ما أقابل في مكتبي من رجال دميمين. قال: «ليس دميماً على الإطلاق، بل في منتهى الوسامة». قلت له: «حسناً إذاً، سأقبل دعوتك بشرط أن أصطحب إحدى صديقاتي». فأجابني: «رائع، لكيلا تقتصر المجموعة على امرأة واحدة فقط».

- عزيزتي شاري! تعرفين أنني لا أتمكّن من الذهاب. أيّ اقتراحٍ هذا! لا مزاج لديّ، ولا ملابس أرتديها، سوى ثوبٍ تافه من بودابست.

- لا تخشي شيئاً. ستكونين جدّ أنيقة بينهم. لا تهتمّي لأمر هؤلاء النساء الفرنسيات الهزيلات. زيّك الوطني سينال إعجاب المجريّ.

- يستحيل أن أذهب. ما اسم السيّد المجريّ؟

- يانوش سبتنكي. هذا ما قاله على الأقل!

- يانوش سبتنكي... أنا أعرفه! هذا نشّال!

- نشّال؟ ممكن.. رأيته لصّاً. على أيّ حال، كلّهم يبدؤون هكذا في مهنة الإنتاج السينمائي. ولكنه وسيم جداً، بغضّ النظر عن كلّ شيء. والآن، ستأتين أم لا؟

- أجل، سآتي.

قصدتا للعشاء مطعماً من الطراز الفرنسي القديم، بستائر مخطّطة، مفارش مائدة مخطّطة، قلّة من الطاولات، طعام باهظ وشهيّ. حين زارت أرجي باريس بصحبة زولتان، غالباً ما كانت تتناول العشاء في مثل هذه الأماكن الفاخرة، لكنها الآن، وقد طلعت من أعماق تقتيرها، أحسّت بالصدمة، وفاجأها جوّ المطعم الفاخر الحميم. لكن صدمتها كانت عابرة وآنيّة، لأن إحساسها الأكبر كان منصبّاً على يانوش سبتنكي الذي -بغاية اللطف، وبأخلاقية الطبقة العليا الجميلة- قبّل يد أرجي التي لم يعرفها. جامل شاري مُثنِياً على حُسن اختيارها لصديقاتها، وقاد السيدتين إلى الطاولة حيث كان صديقه بانتظارهما. وقدّمه قائلاً:

- مونسنيور لوتفالي سوراتغر.

اخترقت عينَي أرجي سهامٌ لا ترحم، جاءتها من حدقتين نسريَتين توضَعتا فوق منقارٍ نسريّ معقوف. اهتزّت أرجي، وذُهلت شاري. انتابهما إحساس أوليّ بأنهما تجلسان الآن إلى طاولة نمرٍ وديع ظاهرياً.

لم تدرِ أرجي أيّهما أخافها أكثر من الآخر. سبتنكي النشّال الذي تحدّث الفرنسية بطلاقة، وتفنّن باختيار هذه القائمة المنوّعة من الأطعمة التي لا يتقنها غير المحتالين الخطرين (تذكّرت أرجي كم كان زولتان يخشى نُدَلَ الأماكن الباريسية الفخمة، وكيف كان، لخشيته، صعب المراس حيالهم)، أم الفارسيّ الذي جلس صامتاً بابتسامته الأوروبية اللطيفة المصطنعة وغير اللائقة، كربطة عنقه. انحلّ لسان الفارسيّ من أول كأس نبيذ من نوع هورس ديوڤر، فقاد الحديث على إثر ذلك، بلغةٍ فرنسية مكسّرة غريبة خرجت من صدره.

تمكّن في حديثه من الاستئثار بانتباه مستمعيه. فاض من هذا الرجل شيءٌ من الابتهاج الرومانسي، شيءٌ من ميزات العصر الوسيط، شيء من البشرية الأصدق، والأكثر فجاجة، والبعيدة عن التصنّع. لم يكن هذا الرجل يحيا بالقروش، والفرنكات، بل بعملة الورود، والصخور، والنسور. ومع ذلك ظلّ قائماً إحساسُهما بأنهما يجلسان إلى المائدة مع نمرٍ وديع في ظاهر الأمر. هذا الإحساس ولّدته عيناه.

تبيّن أن لديه في إيران حدائق ورود، ومناجم حديد، ومزارع خشخاش بالدرجة الأولى، وأن مهنته الأهمّ هي صناعة الأفيون. كان يمقت أشدّ المقت عصبة الأمم التي تمنع شحن الأفيون عالمياً، وتسبّب له أضراراً مادية فادحة، ما اضطرّه لإنشاء عصابةٍ على حدود تركستان لتهريب أفيونه إلى الصين.

قالت شاري:

- ولكن يا سيدي، إنك بهذا عدوّ للإنسانية. تنشر السمّ الأبيض، وتفسد حياة آلاف مؤلّفة من الصينيين الفقراء، وتستغرب كيف يتضامن ضدّك كلّ إنسان شريف!

فقال الفارسيّ بحماس صادم:

- لا تتكلّمي بما لا تفهمين. الصحف الأوروبية تضلّلك بخطاباتها الإنسانية. كيف للأفيون أن يؤذي «الفقراء» الصينيين؟ هل لدى أولئك الأموال؟ يسعدون إذا ما أشبعوا بطونهم بالأرزّ. لا يستنشق الأفيون في الصين إلا الأثرياء لأنه باهظ الثمن. ما تقولينه أشبه بأن أقول يقلقني إفراط العمال الفرنسيين في تناول الشمبانيا. وما دامت عصبة الأمم لا تمنع الأثرياء الفرنسيين من شرب الشمبانيا، فكيف تريد أن تمنع الأثرياء الصينيين من تعاطي الأفيون؟

- تشبيه أعرج. الأفيون أكثر ضرراً بكثير من الشمبانيا.

- وهذا أيضاً توهُّمٌ أوروبي. الصواب أن الأوروبي إذا ما بدأ تعاطي الأفيون فلن يتوقف عنه، لأن الأوروبيين مُفرِطون في كلّ شيء. في الشراهة، وبناء المنازل، وسفك الدماء، بدرجة واحدة. أما نحن فبوسعنا الحفاظ على معيارٍ سليم. لعلّك تعتقدين أن الأفيون يؤذيني؟ مع أنني أتعاطاه على الدوام. بل آكله.

وسّع صدره، ثم عرض عضلات ذراعيه، ثم بحركة أشبه بحركات السّيرك أراد أن يرفع قدميه، لكن شاري أنزلتها قائلة:

- لا، لا. دع شيئاً لمرّة قادمة!

- عفوك! الأوروبيون شرهون أيضاً في شرب الكحول، على الرغم مما يثيره من اشمئزاز إحساسُ المرء بأن حالته ستسوء من كثرة النبيذ في معدته. يتفاقم تأثير النبيذ حتى ينهار المرء. لا يمنح النبيذ تلك النشوة المنتظمة الثابتة التي يمنحها الأفيون. لا يوجد متعةً أعظم على وجه الأرض... ما الذي يعرفه الأوروبيون أنفسهم؟ عليهم أولاً أن يتعرّفوا على الظروف قبل أن يتدخّلوا في شؤون الأرض.

وأضاف سبتنكي متوجّهاً إلى شاري:

- من هنا جاءت رغبتنا في إنتاج هذا الفيلم الدعائي الإعلامي.

- كيف؟ فيلم دعائي يروّج لتعاطي الأفيون؟

سألت أرجي التي تعاطفت طوال الوقت مع موقف الفارسيّ، لكنها أصيبت الآن بالارتعاد.

- ليس لتعاطي الأفيون، بل يقف إلى جانب حرية تجارة الأفيون، إلى جانب الحرية الإنسانية. طموحنا أن يكون الفيلم صرخةً كبرى مؤمنة بالفردانية، ومناهضة لكلّ أشكال الاستبداد.

سألت أرجي: «ما قصّة الفيلم؟».

- يُشاهد في بدايته منتِج أفيون، طيّب، بسيط، محافظ، بين أفراد أسرته. لا يستطيع أن يزوّج ابنته، بطلة الفيلم، بطريقةٍ لائقة بمكانته، للشابّ الذي تحبّه إلا بعد أن يضع إنتاجه السنوي من الأفيون في مكانٍ آمن. لكن الشخص المتآمر، المغرم بالفتاة،

وهو شيوعيٌ وغد، على استعدادٍ للقيام بكلّ شيء، يشي بوالدها لسلطة الرقابة، فيطبَون عليه ليلاً ويصادرون كامل مخزونه من الأفيون. سيكون مشوّقاً للغاية مع السيارات وصفّارات الإنذار. لكن براءة الفتاة، ونبل روحها، تهزّان العقيد المتجهّم الصارم، فيعيد لأبيها أفيونه المصادر، ليقوم بترحيله بعربات مصلصلة مرحة تمضي به نحو الصين. هذه قصة الفيلم بشكل عام.

لم تعلم أرجي ما إن كان سبتنكي يهذر أم لا. كان الفارسيّ يصغي له بكامل الجدية والانتباه، لا بل بافتخارِ ساذج، فقد يكون هو من ابتدع هذه القصة. وبعد العشاء توجّه الجميع إلى مرقصٍ فخم حيث انضم إليهم معارف آخرون، فاحتلّوا طاولة كبيرة، وتحدّثوا كيفما اتفق، على قدر ما يتيح لهم صخب المكان. حلّقت أرجي بتأثير الشمبانيا بعيداً. طلب سبتنكي مراقصتها، ورقصا معاً.

سألها سبتنكي خلال الرقص: «ما رأيك بالفارسيّ؟ شخصٌ طريف أليس كذلك؟ رومانسيّ تماماً».

قالت أرجي وقد التمعت فجأة أناها المفكّرة:

- تحضرني قصيدة إنكليزية قديمة ومجنونة، كلّما نظرت إليه: «نمر، نمر، لهب أصفر في غابة ليلتنا...».

رمقها سبتنكي مندهشاً، فخجلت أرجي، قال لها:

- نمر.. لكنّه مسافرٌ صعب للغاية. لكنه على الرغم من سذاجته، مرتاب، وحذِر في القضايا التجارية. حتى صنّاع السينما لا يتمكّنون من الاحتيال عليه. مع أنه لا يريد أن يصنع فيلماً من

منطلق تجاري، بل لأسبابٍ دعائية، وأعتقد أن السبب الرئيسي في كل هذا، هو أن يجنَد لنفسه حريماً من نساء الموديل. ولكن متى أتيت من إيطاليا؟

سألته أرجي: «عرفتَني؟».

- طبعاً. ليس الآن. قبل أيام في الشارع حين كنتِ مع شاري. عيناي صقريّتان. لقد رتّبت هذه الأمسية كي أتحدّث معك... لكن، كيف تركت صديقي الممتاز ميهاي؟

- على حدّ زعمي أن صديقك الممتاز ما يزال في إيطاليا. نحن لا نتراسل.

- أمرٌ مثير. انفصلتما في شهر العسل؟

أومأت أرجي بالإيجاب.

- يا للهول! هذا هو أسلوب ميهاي. لم يتبدّل هذا الشاب العجوز في شيء. طالما تخلّى عن كلّ شيء عبر مسيرة حياته. سرعان ما يفرغ صبره. على سبيل المثال، كان أفضل من يحتلّ المركز الأول في مدرسته الثانوية، بل على مستوى ثانويات البلد، كما أجرؤ على الزعم. وفي يوم جميل...

- كيف تعرف أنه من تخلّى عني، وليس أنا من تخلّيت عنه؟

- عفواً. لم اسألك في هذا. طبعاً، أنت من تخلّيت عنه. أتفهّم ذلك. شخص لا يطاق. بوسعي أن أتصوّر حجم المعاناة مع شخص متبلّد مثله... من لا يغضب أبداً، من...

- أجل، هو تخلّى عني.

- هكذا، تماماً. هذا ما خطر لي على الفور. منذ قابلتكما في راڤينا. أكلّمك الآن بكامل الجدية. ميهاي لا يصلح زوجاً. هو... كيف أعبّر لك... هو شخص بحّاثة... على الدوام يبحث عن شيء ما في حياته. شيء ما مختلف. شيء ما يعرف عنه هذا الفارسيّ أكثر بكثير مما نعرفه نحن. ربما يحتاج ميهاي إلى تعاطي الأفيون. أجل، بالتأكيد، هذا ما يتحتّم عليه أن يفعله. أصدُقك القول إنني لم أفهم هذا الرجل في يوم.

وأومأ بيده مُنهياً هذا الحديث.

لكن أرجي شعرت أن تصرُّفه لإنهاء الحديث عن ميهاي كان مجرّد شكلٍ ظاهري، وحقيقة الأمر أن سبتنكي في غاية الفضول ليعرف ما حصل بينها وبين ميهاي.

جلس إلى جانبها، ولم يدع أحداً يقترب منها. في هذه الأثناء، كان فرنسيٌّ وقور مُسِنّ يغازل شاري، وكان الفارسيّ يجلس بعينين متوهّجتين بين امرأتين تتمتّعان بوجهين سينمائيين.

مثيرٌ للاهتمام! -فكّرت أرجي- كلّ شيء مختلف، ولا شيء على الإطلاق! حين زارت باريس للمرة الأولى، كانت متخمة بالخرافات التي جمّعتها في سنوات المدرسة. ظنّت أن المدينة العالمية باريس مدينة انحرافية، إجرامية، وأن المقهيَين الوديعين، مقهى الفنّانين، ومقهى المهاجرين، ليسا في عينيها سوى فكّي شدقٍ جهنّميّ. والآن، وهي تجلس هنا بين أشخاص من المحتمل أن يكونوا منحرفين، ومجرمين، انجلى كل شيء أمامها، وبات مفهوماً بشكل تلقائي.

لم يكن لديها الوقت للمضيّ في التذكّر، فقد كانت مصغية بانتباه لسبتنكي، آملة أن يُطلعها على أيّ أمرٍ مهمّ يخصّ ميهاي.

كان سبتنكي مبتهجاً وهو يحكي عن السنوات المشتركة، لكنه بطبيعة الحال كان يشوّه كلّ ما يتعلّق بميهاي. تاماش وحده بقي رائعاً: ملك شابّ أراد الموت، ولا تعنيه الحياة في شيء، رحل مبكراً قبل أن يضطرّ إلى التملّق والاستسلام.

تاماش في رأي سبتنكي كان رقيقاً، فلم يستطع النوم إن تحرّك أيّ شيء على بعد ثلاث غرف، وكان يمكن لرائحة قوية أن تخرجه من العالم. مشكلته أنه كان مغرماً بأخته، وكان هنالك علاقة بينهما، وحين غدت إيڤا حاملاً، لجأ إلى الانتحار بدافع تأنيب الضمير. كان الجميع مغرمين بإيڤا. من بينهم أرفين الذي صار راهباً نتيجة حبّه اليائس لإيڤا. وميهاي كذلك، أحبّ إيڤا حباً لا أمل فيه. كان يتبعها مثل جرو. كان مضحكاً. وكانت إيڤا تستغلّه، وانتزعت كلّ ما لديه من نقود، وسرقت ساعته الذهبية.

إيڤا إذاً هي التي سرقت الساعة الذهبية، وليس هو، لكنهم لم يشاؤوا أن يخبروا ميهاي بالحقيقة من باب زيادة الطين بلّة، لأن إيڤا لم تحبّ أيّ أحدٍ سوى يانوش سبتنكي.

- وما أخبار إيڤا منذ ذلك الوقت. هل رأيتها في يوم؟

- أنا؟ طبعاً. من يومها ونحن على ما يرام. أدارت إيڤا عملاً كبيراً، ليس من دون مساعدتي طبعاً. أصبحت امرأة مهمّة جداً.

- ماذا تقصد بذلك؟

- كان لها على الدوام رعاتُها الداعمون: أمراء صحافة، ملوك بترول، أبناء ملوك، فضلاً عن الكتّاب الكبار والرسّامين الذين تحتاجهم لأهداف دعائية.

- وما أحوالها الآن؟

- الآن في إيطاليا. تسافر إلى إيطاليا كلَما سنحت لها الفرصة. هذه هوايتها. تجمع أشياء قديمة، كأبيها.

- وأنت، كيف لم تخبر ميهاي أن إيڤا في إيطاليا. ثم ما دافعك للذهاب إلى راڤينا؟

- أنا؟ كنت لتوَي في بودابست في زيارة عابرة، وبلغني هناك أن ميهاي تزوَج، وأنه يمضي شهر العسل في البندقية. لم أستطع مقاومة رغبتي في رؤية الشاب العجوز وزوجته بهذه المناسبة، ولهذا جئت إلى باريس عبر البندقية. وخلال وجودي في البندقية علمت أنكما في راڤينا فقصدتكما.

- ولمَ لم تكلّمه عن إيڤا؟

- دار في ذهني، لكنّه قد يبحث عنها.

- كيف يبحث عنها وهو مع زوجته في شهر العسل؟

- لا تغضبي، لكن لا أظن أن ذلك يشكّل عائقاً بالنسبة إليه.

- حقاً. عشرون عاماً، ولم يخطر له أن يبحث عنها.

- لأنه لا يعرف مكانها. ثم إن ميهاي أشدّ سلبيّةً بكثير، لكنه إذا ما عرف ذات مرة...

- وما الذي يسوءك في الأمر إذا ما عثر ميهاي على إيڤا أولبيوش؟ غيور؟ أما زلت مغرماً بإيڤا؟

- أنا؟ لا أبداً، ولم أكن في يوم. إيڤا هي من أُغرِم بي. لكني لم أشأ أن أثير مشكلة حول زواج ميهاي.

- أنت شخص ملائكيّ في طيبتك، أليس كذلك؟

- لا، لكنّك كنت محبّبة إلى نفسي من أول نظرة.

- ممتاز! لكنك في راڤينا قلت عكس ذلك تماماً. أهنتني كثيراً.

- نعم. قلت ما قلته بدافع فضولي: تُرى هل سأتلقّى صفعةً من ميهاي؟! لكن ميهاي لا يصفع. هذه هي مشكلته. مع أن الصفعة انعتاق... لكن لأرجع إلى الموضوع: كان لك تأثير كبير عليّ منذ اللحظة الأولى.

- عظيم. فلأشعر الآن بالزهو والتقدير أليس كذلك؟ ألا تجيد المغازلة على نحوٍ أبرع؟

- لا أجيد المغازلة ببراعة. تلك للضعفاء، والعجزة. إن أعجبت بامرأة لا أفكر إلا بأن أخبرها بذلك. إما أن تستجيب، أو لا. لكنهنّ يستجبن على العموم.

- لست أنا «على العموم».

تبيّن لها أنها محطّ إعجاب يانوش سبتنكي، وأنه يشتهيها جسدياً بطريقة مراهقة شرهة خالية من الحكمة الذكورية، وببساطة على نحوٍ يثير القرف. ولقد وقع الأمر موقعاً حسناً في نفسها حتى أن الدورة الدموية أخذت بالتسارع في سائر أنحاء جسدها، مثلما يشعر المرء بنشوة الشرب. لم تألف مثل هذه الغريزية الفجّة. في العادة، يتقرّب منها الرجال على العموم بالحبّ وبالكلام الرقيق. كان حبّ الرجال لها على الدوام

يخاطب فيها امرأة تنحدر من عائلة محترمة مثقفة. ثم جاء سبتنكي آنذاك وأهان غرورها الأنثوي. لعلّ زواجها بدأ عند ذلك بالانهيار، ومنذ تلك اللحظة، وأرجي تحمل في نفسها كلمات سبتنكي. والآن، ها هو ذا الدواء، والرضا: سلكت مع سبتنكي سلوكاً جذّاباً مغرياً استغربت أنها قادرة عليه، فأحجمت عن سلوكها هذا انتقاماً لما حصل في راڤينا.

ما جعلها بشكل خاص، وخارج كلّ شيء، تستجيب لتقرُّب سبتنكي هو كونها أحسّت بغريزة المرأة أن هذا التقرّب يخاطب زوجة ميهاي بالدرجة الأولى. كانت تعرف أي علاقة غريبة تربطه بميهاي، فأراد دائماً وبكلّ الوسائل أن يثبت أنه المميّز بينهما، ولهذا السبب بالذات يريد الآن أن يحظى بزوجة ميهاي. قلّبت الأمور، وتمعّنت جيداً في رغبة سبتنكي، فانتابها إحساسٌ أنها، بإظهاره لهذه الرغبة، تستحيل الآن إلى زوجة ميهاي حقاً. كما أنها للتوّ تخطو خطوتها الأولى في الانضمام إلى تلك الدائرة السحرية، دائرة أولبيوش القديمة، الواقع الوحيد بالنسبة لميهاي.

- دعنا نتحدّث بأمور أخرى -قالت، وقد تلامست الركب بشدة تحت الطاولة- ماذا تعمل الآن في باريس؟

- وسيط أعمال تجارية كبيرة. كبيرة فقط -قال سبتنكي، وبدأ يداعب فخذي أرجي تحت الطاولة- لديّ عقود ممتازة مع الإمبراطورية الثالثة. يمكنني القول إنني المندوب التجاري للإمبراطورية الثالثة هنا. وعملي الجانبي الآن التوسّط في إقامة هذا العمل التجاري بين لوتفالي، وشركة أفلام مارتيني ألڤير، لأني في حاجة إلى النقود. لكن، ألا نتكلّم كثيراً؟ هيّا نرقص!

احتفلوا حتى الثالثة صباحاً، وعندئذٍ ركب الفارسيّ السيارة مع فتاتيه السينمائيتين اللتين أمضى معهما حفلته، فيما وجّه للآخرين الدعوة لزيارته في الڤيلا عصر يوم الأحد. ومضى الآخرون إلى منازلهم. مضت شاري إلى المنزل بصحبة سيّد فرنسي، ورافق أرجي سبتنكي.

- سأصعد معك - صرّح سبتنكي أمام المدخل.

- هل جُنِنت؟ ثم إنني أسكن مع شاري.

- تباً. أنت إذاً تأتين معي!

- يبدو، يا سبتنكي، أن فترة طويلة مضت على مغادرتك بودابست، وإلا كيف أفسر سوء فهمك لامرأة من نوعي؟! أفسدتَ بهذا كلّ شيء.

وتركته دون تحية وداع، لكن بشعورٍ هائل بالانتصار.

قالت شاري حين أصبحتا في السرير: «ما هذا التودّد مع سبتنكي هذا؟ حاذري!».

- انتهى الأمر. تصوّري، كان يريدني أن أذهب معه!

- وماذا بعد؟ أراك تتصرفين وكأنك في بودابست. لا تنسي يا ابنتي أن بودابست المدينة الأكثر أخلاقية في أوروبا. هنا لا يفهمون هذه التصرّفات كما عندنا.

- لكنها الأمسية الأولى يا شاري.. ينبغي أن تتمتّع المرأة بقدرٍ من الكرامة فلا...

- طبعاً. لكن لا تدخلي في أحاديث مع الرجال... إنها الطريقة الوحيدة هنا لتحفظ المرأة كرامتها، كما أفعل أنا. لكن لمَ الحفاظ على الكرامة، قولي رجاءً، لمَ؟ أتعتقدين أنه لم يكن يسرُّني أن أذهب مع ذلك الفارسيّ، لو دعاني؟ هل دعاني؟ فكّري بالأمر. يا له من شخص رائع! على أي حال، حسناً فعلت أنك لم تنخرطي بسبتنكي هذا. لا أنكر أنه وسيم، ورجولي بما فيه الكفاية، بمعنى أنه... بالمعنى الذي قلته، لكنه محتال، كما تعلمين. يمكن أن يبتزّك في نهاية الأمر، و«يكوّش» على نقودك. حاذري يا ابنتي! مرّةً، سرقوا مني خمسمئة فرنك في مناسبة كهذه. والآن، تصبحين على خير!

محتال! - فكّرت أرجي وهي مستلقية في سريرها.

هذه هي الحقيقة بالضبط. كانت أرجي طوال حياتها الفتاة المميزة: حبيبة جدَّيها، وجدّتَيها، وفخر أبيها، وأفضل تلميذة في صفّها، ويختارونها للاشتراك في المسابقات الدراسية. سارت حياتها على نحو منظّم، وبكثير من الحماية، ومع التزامها، أمام أعين الجميع الصارمة، بالقوانين المقدّسة للحياة المدنية الصالحة. ولمّا حان الوقت وتزوّجت رجلاً ثرياً، ارتدت أفخر الملابس، وسكنت أفضل البيوت، وعرضت نفسها سيدة منزل مثالية. اعتمرت دائماً القبعات نفسها التي اعتمرتها النساء من طبقتها الاجتماعية. قصدت المصايف اللائقة، وأبدت رأيها المناسب في ما تحضره من المسرحيات، ورددت الأقوال المأثورة كما ينبغي. تكيّفت مع كل شيء وكانت «ممتثلة»، على حدّ تعبير ميهاي. لكنها ملّت هذه الحالة في ما بعد، ووصل بها السأم إلى اضطراب القلب والأعصاب، وآنذاك اختارت لنفسها ميهاي، بعد أن شعرت أنه ليس «ممتثلاً» كليّاً. لديه ما هو غريب تماماً عن دوائر الحياة المدنية. كانت تظن أنها بمعيّته ستقفز

من فوق الجدران إلى ضفاف مفتوحة مكتظّة بالأجمات البريّة تقودها إلى مطارح وأمدية مجهولة. لكن ميهاي كان يريد أن «يمتثل» من خلالها، واستخدمها وسيلةً ليبدو أمام الجميع شخصاً مدنيّاً عادياً. في حين تابع مسيره خلسةً إلى تلك الضفاف، لمجرّد أن سئم حالة الامتثال، وهرب وحيداً عائداً إلى البراري. تُرى هل يانوش سبتنكي، الذي لا يرغب في الامتثال، والذي اتخذ الاحتيال مهنة خارج الجدران، والأشد بأساً ومقاومة للكسر، والأكثر عافية من ميهاي، تُرى... نمر، نمر، في غابة ليلتنا لهب أصفر؟!

كان عصر يوم الأحد في ڤيلا الفندق جميلاً، ومضجراً. لم يكن هناك ظواهر سينمائية. كان كلّ شيء ذا طابع نبيل، ودنيويّ، ممثلاً بالبرجوازية الفرنسية العليا، لكن أرجي لم يهَمها هذا العالم الأكثر امتثالية، والأقل تنمّراً من العالم البودابستي. لم تتنفّس الصعداء إلا حين جاء سبتنكي باتجاه البيت واصطحبها إلى العشاء. وذهبا بعد ذلك إلى الرقص. كان يانوش شيطاناً. جعلها تُكثِر في الشراب، وتألّق في الكلام، وبكى، وكان رجلاً بين الحين والآخر. ولكنّه، في حقيقة الأمر، لم يكن في حاجة إلى كل هذه التصرفات المبالغ فيها. حتى لو لم ينطق بحرفٍ واحد، لكان محتملاً من أرجي أن تمضي الليلة عنده، تبعاً للمنطق الداخلي للأشياء، وبحثاً عن النمور الصفراء.

(********) مدينتان صغيرتان في المجر. (المترجم).

(********) العبارة باللغة الإيطالية في الأصل. (المترجم).

(********) رهاب الخلاء، يخشى المصاب به الأماكن أو المواقف التي قد تتسبب له بالذعر، أو توحي له بأنه محاصر أو عاجز أو محرج. (المترجم).

(********) منطقة تاريخية وجغرافية في جنوب شرق البلقان، تضم شمال شرق اليونان، وجنوب بلغاريا، وتركيا الأوروبية. (المترجم).

(********) حسب الميثولوجيا الرومانية فإن رومولوس وريموس توءم، أمهما هي الكاهنة ريا سيلفيا، ووالدهما هو مارس إله الحرب. تخلّى الوالدان عن الطفلين، فرضعا من ذئبة، ولمّا كبرا أسّسا مدينة روما على هضبة تشرف على نهر التيبر. (المترجم).

(********) Giotto و Fra Angelico رسامان إيطاليان شهيران كرّسا لوحاتهما لخدمة الدين. (المترجم).

الفصل الثالث: روما

اذهب أنت إلى روما

حيث الجنّة، القبر،

المدنية، البريّة.

شيلي: أدونس (Shelley: Adonaïs)

- ١ -

صار ميهاي في روما منذ أيام، ولم يحدث معه شيء بعد. لم يهبط من السماء أيُّ منشور رومانتيكي يرشده إلى طريقه كما كان ينتظر في سرّه، بعد كلمات أرفين. فقط روما هي ما حصل معه، إن كان يصحّ التعبير.

إلى جانب روما، تضاءلت كلّ المدن الإيطالية الأخرى. قياساً بها كانت البندقية، التي زارها مع أرجي رسميّاً، ضحلةً. وضحلة كانت سيينا حيث كان مع ميليسنت مصادفة. ذلك لأنه في روما كان وحيداً وبتوجيهٍ أعلى. هذا ما أحسّ به. ما شاهده في روما في حكم المميت. لقد انتابه في ما سبق مثل هذا الإحساس، حين يكون في نزهة مبكّرة عند الفجر، أو عند أواخر عصرٍ صيفيّ فريد، يمضي كلّ شيء على نحوٍ نادر، وعصيّ على التعبير عنه بالكلمات. أما هنا فلم يفارقه هذا الإحساس لحظة واحدة. في مرّاتٍ أخرى كذلك ولّدت فيه الشوارع والمنازل ظنوناً سارحة، لكن ليس كشوارع روما، وقصورها، وآثارها، وحدائقها. التجوال بين جدران مسرح

مارسيللو الهائلة، أو التحديق عند الساحة الرئيسية (الفوروم) كيف تبرز الكنائس الباروكية الصغيرة بين العمدان الأثرية، أو الإطلالة من أحد التلال على الشكل النجمي لسجن ريڤينا شيلي، أو التطواف في أزقة الغيتو، أو الانتقال عبر أفنية خاصة من سانتا ماريا سوبرا مينيرفا، إلى البانثيون، الذي من خلال فتحته السقفية الضخمة ترمق سماءُ الليالي الصيفية الغامقةِ الزرقة، الأرضَ. هكذا انقضت أيامه. وإذا ما حلَّ الليل ارتمى متهالكاً من شدة تعبه فوق السرير، في غرفة الفندق الصغيرة الدميمة ذات الأرضية الحجرية، في جوار السكّة الحديدية حيث استطالت ليلته الأولى من شدّة الذعر، ولم يعد يملك من القوّة ما يكفي لتبديل المسكن.

من نشوته الشديدة، هزّته رسالة تيڤادار التي حوَلها له أليسلي من فولينغو.

كتب تيڤادار:

عزيزي ميشي! كم أقلقنا كونك كنت مريضاً. لعدم دقّتك المعتادة نسيت أن تخبرنا ما خطبك، مع أنك تعلم علم اليقين أننا نودّ كثيراً أن نعرف، فتلافَ ذلك رجاءً من الآن فصاعداً. هل تعافيت تماماً؟ أمُّك قلقة عليك. لا تُسِئ فهمي إن كنتُ لا أستطيع إرسال النقود سوى هذه المرة. تقدّر مدى الصعوبة في إرسال العملة. آمل ألا يكون التأخير قد أوقعك في مشاكل. كتبت لي أن أبعث لك كثيراً من النقود. كلام يفتقر إلى الدقة، لأن «كثير من النقود» مسألة نسبية. قد تجد أن النقود المرسلة قليلة لأنها لا تزيد كثيراً عمّا عليك من ديون، والتي كتبت من أجلها. هذا المبلغ بالنسبة لنا مبلغ ضخم قياساً بسير العمل، والحالة التجارية هذه الأيام، لكنه سيكون كافياً لتسديد أجرة

غرفتك وعودتك إلى الوطن. لا سيما أن بطاقة عودتك مسبقة الدفع. لا حلّ لك سوى العودة. خاصة وأن شركتنا ضمن الظروف الحالية لا تستطيع أن تتحمّل نفقات إقامة خارجية غير مبرّرة لأحد أفرادها، والاستمرار في تمويله. وخاصة، ونتيجة لهذه المعطيات، فقد واجهتنا زوجتك بمتطلّبات محقّة، وعلينا تلبيتها. زوجتك الآن في باريس، ونحن من يتكفّل حالياً بتكلفة إقامتها هناك. وما تبقّى من حسابات سيصار إلى ترتيبها فور عودتها إلى الوطن. وغنيّ عن التوضيح أن هذه الحسابات النهائية ستوقع الشركة في حالة رديئة، تعلم جيداً أن الأحوال التي أسهمت بها زوجتك في الشركة أنفقناها على الآلات، والدعاية، وتطوير الشركة. وإنك تدرك مدى الصعوبة في تحويل هذه الأمور إلى سيولة، أظن أن أي رجل آخر كان ليضع كلّ ذلك بعين الاعتبار قبل أن يطلّق زوجته في شهر العسل. وبغضّ النظر عن التبعات الاقتصادية، فإن سلوكك هذا غير مقبول، وبعيد كل البعد عن النُّبل، فكيف إن كان حيال امرأة لطيفة صالحة لا غبار عليها كزوجتك؟!

هذا هو الوضع. ليس بوسع أبيك أن يكلّف نفسه عناء الكتابة إليك. لك أن تتخيّل كم وتّرته الوقائع، وكم كسرت خاطره وأوهنته، وكم يقلقه الآن أنه عاجلاً أم آجلاً سوف يسدّد لزوجتك ما يترتب عليه من أموال. نفكر بإقناعه باستراحة صيفية يقضيها في غاستاين، لكنه يأبى أن يصغي إلينا، لِما يتطلّبه الأمر من تكاليف إضافية.

وأخيراً، عزيزي ميشي، أرجو أن تكون بخير بعد تسلّمك رسالتي. وضّب أغراضك، وعُدْ إلى الوطن عاجلاً لا آجلاً!

نحيّيك جميعاً بحبّ.

خطَّ تيقادار هذه الرسالة بمنتهى الاستمتاع، وسرّه غاية السرور، وهو المستهتر المسرف في العائلة، أنه للمرة الأولى قد وُضع في موقف خوّله أن يلقّن ميهاي، الجادّ، والصلب، مواعظ في الأخلاق. لكنه شعر أنه يرغم أخاه على العودة.

على ما يبدو، لم يكن أمام ميهاي حلٌّ آخر سوى العودة. فإن سدّد المبلغ لميليسنت فلن يتبقّى لديه نقود كافية للبقاء في روما. أقلقه عميقاً ما كتبه شقيقه عن والدهما. وكان على يقين أن تيقادار لم يبالغ في ما يقول، فوالده مؤهَل للاكتئاب. والقضية بكل جوانبها مادية كانت أو اجتماعية، أو عاطفية، بلغت من التعقيد ما يجعل أباه يفقد سلامه الروحي. وبغضّ النظر عن تضافر كلّ هذه العوامل، يكفيه سوءاً أن يسلك أعزّ أبنائه هذا السلوك المستحيل، المشين. عليه أن يعود إلى الوطن ليصحِّح ما ارتكبه على الأقل، ويبرِّر أمام أبيه كم كان مرغماً على ما قام به، وكم كان عاجزاً عن فعل أيّ شيء آخر، حتى في ما يخصّ أرجي. عليه أن يثبت أنه ليس فارّاً، وأنه يتحمّل مسؤولية ما جناه كما يليق بجنتلمان.

وعليه في الوطن أن ينخرط في العمل، العمل كلّ شيء هذه الأيام: العمل هو نعمة الشاب المبتدئ، من أجل دراساته، والعمل كفّارة وعقاب لأولئك الذين فشلوا في أمرٍ ما. وإن عاد إلى الوطن، ومارس عمله كالمعتاد، فسيصفح أبوه عنه عاجلاً أم آجلاً. لكن حين خطرت له تفاصيل «العمل»، والمكتب، والعملاء الذين عليه أن يفاوضهم، وخاصة تلك القضايا التي يمضي بها أوقاته خارج العمل: البريدج، مقهى الدانوب، النساء الراقيات، استاء حتى البكاء.

سرح متأملاً.. مثلما يقول طيف آخيل: «أفضّل أن أكون أجيراً في منزل أبي، ولا إمبراطوراً بين الأموات»، والعكس هو الصحيح هنا: أجيرٌ هنا بين الأموات، ولا إمبراطور في بيت أبي في الوطن. لو كان لديّ فكرة أوضح عما هو الأجير... هنا بين الأموات.

كان آنئذ يمشي في الخارج، متجاوزاً أسوار المدينة، وراء هرم سيستيوس، في مقبرة البروتستانت الصغيرة. هنا يرقد زملاؤه، الموتى الشماليون الذين قادهم حنينهم العارم إلى هذه الأمكنة، وقضوا هنا. كانت هذه المقبرة الجميلة، بأشجارها الوارفة لا تنفكّ تلاحق النفوس الشمالية بهذا الوهم: الموت هنا أحلى. الشاعر غوته في نهاية إحدى رحلاته إلى روما، هنا وقف ليقول: Cestius' Mal vorbei, leise zum Orcus hinab. «ها قد مررنا بسيستيوس، والآن ننزل بخطا خفيفة إلى العالم السفلي(********)».وكتب الشاعر شيلّي في رسالة رائعة له أنه يريد أن يرقد هنا، وهو يرقد هنا في الواقع، قلبه على الأقل وعليه لائحة كتب عليها Cor cordium (قلب القلوب).

أوشك ميهاي أن يغادر المقبرة، حين لمح في أحد أركانها مجموعة قبور منفردة. تقدّم منها وقرأ ما كتب على شواهد حجرية إمبراطورية بسيطة. كتب على أحد القبور بالإنكليزية: «هنا يرقد من كَتَبَ اسمه على الماء». وعلى قبر آخر: «هنا يرقد سيڤرن، الرسّام، أعزّ الأصدقاء والراعي الوفيّ للمحتضر على فراش الموت الشاعر الإنكليزي جون كيتس الذي أبى أن ينقشوا اسمه على الشاهدة المجاورة التي يرقد تحتها».

اغرورقت عينا ميهاي بالدموع. ها هو ذا أعظم شعراء التاريخ يرقد هنا، وتتولى قصائده حراسة روحه، في حين أن جسده لم يعد هنا منذ مدة طويلة، ما أعظمها من حالة لها نفحتها الإنكليزية في كونها طريقة مرنة لطيفة منافقة، أن يصار إلى تلبية آخر رغباته في أن يُدفَن في روما. وفي الوقت نفسه أن يعلن من دون أدنى شك أن الشخص الذي يرقد هنا، تحت هذا القبر، هو كيتس.

حين رفع عينيه، كان يقف إلى جانبه مجموعة من الناس، امرأة في غاية الجمال، إنكليزية ولا ريب، وإلى جانبها ممرضة، وصبيّ، وفتاة، إنكليزيان في منتهى الجمال. اكتفوا بالوقوف بلا حراك، يرمقون القبر، وميهاي، ويتبادلون نظراتٍ مرتبكة. تريّث ميهاي لعلّهم يقولون شيئاً، لكنهم لم يفعلوا. وبعد لحظاتٍ وصل سيّدٌ أنيق يشبه المرأة وكأنه شقيقها التوءم. وقف أمام القبر مبدّلاً نظراته المرتبكة بين الأسرة وميهاي، من دون أن ينبس هو الآخر بكلمة. انتحى ميهاي جانباً ظناً منه أنهم خجلون أمامه، غير أنهم ظلوا واقفين يتبادلون النظرات المرتبكة الموحية. ولقد شمل الارتباك وجهي الولدين الجميلين كوجوه الكبار.

حيت التفت ميهاي ورمقهم بنظرات اندهاش خفيّ، سرعان ما انتابه إحساس بأن هؤلاء ليسوا بشراً، بل دمىً شبحية، أو كائنات مجهولة فوق قبر الشاعر. لو لم يكونوا على هذا القدر الكبير من الجمال لما كانوا مدهشين إلى هذا الحد، لكن جمالهم كان جمالاً فوق بشريّ، كصور الإعلانات، فمسّ ميهاي الذعرُ، ثم غادرت العائلة الإنكليزية المكان بخطواتٍ بطيئة وقسمات موحية، فرجع ميهاي إلى وعيه. وما إن استرجع بوعيه المتّزن ما مضى من لحظات، حتى ذُعِر حقاً.

ما الذي حصل لي؟ ما لي وقعت مجدداً في حالة عصبية وضيعة تذكّرني بأسوأ فترات مراهقتي؟ لا شيء فريداً يميّز هؤلاء الأشخاص سوى كونهم إنكليزاً خجولين في غاية البلاهة، صدمتهم مواجهة واقع أن هذا هو قبر «كيتس»، ولم يملكوا الحيلة لفعل أيّ شيء حيال هذا، ربما لأنهم لا يعرفون من هو كيتس هذا، أو ربما يعرفون، ولكنهم لم يفطنوا إلى ما يليق بإنكليزيٍّ صالح أن يفعله فوق قبر الشاعر، فخجلوا أمامي وأمام أنفسهم. لا يمكن حقاً تصوّر مشهد أكثر من هذا عاديةً وخلوّاً من المعنى، ومع ذلك يملأ قلبي أشدّ ما في العالم من رعب وبشاعة. أجل إن أشدّ البشاعات وأقسى أنواع الرعب لا تكمن في الليل، وفي ما قد يزرعه من خوف، بل عندما نجد البشاعة والرعب يحدّقان فينا في يومٍ مشرق، من خلال أمرٍ يوميّ، من خلال واجهة، من خلال وجهٍ مجهول، مختلساً النظر من بين فروع شجرة.

وضع يديه في جيبيه، ومضى مسرعاً.

اتخذ قراراً بالسفر يوم غدٍ إلى الوطن. تعذّر سفره في اليوم نفسه لأنه استلم رسالة تيقادار فترة الظهيرة. وكان عليه أن ينتظر صباح الغد، ليصرف الشيك الذي أرسله شقيقه، ويبعث لميليسنت النقود التي استدانها. قضى آخر لياليه في روما، وتسكّع في الشوارع براحةٍ أكثر من أيّ وقت، ووجد كلّ شيء أكثر أهمية وجمالاً.

ودّع روما. لم تستأثر بقلبه أبنيةٌ بعينها هناك، لكن روما برمّتها تركت في نفسه أعظم الانطباعات قياساً بما زار من مدن عالمية: طاف حائراً بلا هدف محدّد يملؤه إحساسٌ عارم بأن المدينة ما تزال تخفي آلافاً مؤلّفة من التفاصيل المدهشة التي

لن تقع عيناه عليها الآن، وشعر من جديد أن الأشياء المهمة في أمكنة أخرى، لا حيثما يطوف الآن من غير أن يتلقى الإشارة السريّة المرجوّة.

لم تقُده طريقه إلى مكانٍ، فظلَّ حنينه ماضياً في تعذيبه الأبدي له دونما إشباع مهما تابع التجوال، «ها قد مررنا بسيستيوس، والآن ننزل بخطا خفيفة إلى العالم السفلي».

حلّت الظلمة فيما كان ميهاي يتجوّل برأس محنيّ، من دون أن يعير انتباهاً حتى للشوارع، إلى أن اصطدم في أحد الأزقة بأحد المارّة الذي بادر يقول: Sorry (آسف!). رفع ميهاي رأسه لسماعه اللفظة الإنكليزية، فشاهد أمامه الإنكليزي الذي أوقع فيه الدهشة عند قبر كيتس. شيء ما اعترى وجه ميهاي حين نظر إلى الإنكليزي، لأن الأخير رفع قبعته، وغمغم شيئاً، وأسرع الخُطا. استدار ميهاي ولاحقه بنظره.

ما هي إلا لحظة حتى أسرع وراءه بخطواتٍ واثقة، من دون أن يفكّر لمَ يفعل ذلك. حين كان صبياً وتحت تأثير الروايات البوليسية، كانت واحدة من تساليه المحبّبة أن يتبع الغرباء محاذراً أن يفطنوا إليه يقتفي أثرهم. هكذا لساعاتٍ طويلة. لم يكن يتبع أياً كان، وكيفما اتفق، إلا إذا كان المعنيّ ذا معنى ما على نحوٍ صوفيّ، كما الآن ما لهذا الفتى الإنكليزي من معنى. فمن غير المعقول أن يصادفه مرتين في اليوم ذاته في هذه المدينة الكبيرة. وفي كلتا المرتين كان يبدي دهشة لا مبرر لها. لا بدّ أن سرّاً ما يحتجب وراءه، وينبغي المضيّ حتى النهاية.

وبتوتّر رجل البوليس، لاحق ميهاي الشابّ الإنكليزي عبر الأزقة حتى كورسو أومبرتو. وتمكّن، بمهارته السابقة نفسها، أن يتبعه كالظلّ من دون أن يلحظه الشاب. جلس الإنكليزي في مقهى

ليستريح، فجلس ميهاي أيضاً، وتناول القيرموت وهو يحدّق بانفعال في الشاب. أدرك أن شيئاً ما سيحصل. كأن الإنكليزي أيضاً لم يعد الآن في حالة من الطمأنينة، كما بدا على وجهه. وكأن شيئاً من حياة قد ارتعش على مظهره الإنكليزي، أشبه بارتعاشة سطح بحيرة مسّها جناحا طائر. عرف ميهاي أن الشاب ينتظر أحداً، وهذا ما ضخّم من اضطرابه، كما يتضخّم الصوت في مكبّر الصوت.

بدأ الإنكليزي ينظر إلى ساعة يده. كذلك ميهاي، بصعوبة استطاع أن يبقى في مكانه. تململ متوتراً وطلب القيرموت مرة ثانيةً، ثم كأساً آخر من الماراشينو متغاضياً الآن عن تقتيره، باعتباره سيسافر يوم غد.

أخيراً توقفت سيارة أنيقة أمام المقهى. انفتح بابها وأطلّت منه امرأة. ما كان من الإنكليزي في اللحظة ذاتها إلا أن نهض قافزاً إلى داخل السيارة التي انطلقت بكلّ تروٍّ وهدوء.

هي لمحة بصر، هكذا أطلّت المرأة من باب السيارة، لكن ميهاي عرف بقوّة حدسه أنها إيڤا أولبيوش، فهبّ واقفاً ليرى أن إيڤا لمحته بنظرة خاطفة منها، لا بل إنه لمح على وجهها ابتسامة في غاية الرقة. هي لمحة بصر وغابت إيڤا مع السيارة في جنح الظلمة. سدّد الفاتورة، وغادر المقهى ذاهلاً. لم تخيّب أمله ولم تخدعه الإشارات، فكان عليه أن يأتي إلى روما لأن إيڤا هنا. صار يدرك الآن أن حنينه بلغ مرفأ الأمان: إيڤا، إيڤا!

وأدرك أيضاً أنه لن يسافر إلى البلد، حتى ولو اضطرّ لحمل الحقائب، والانتظار خمسين عاماً. وأخيراً ثمة في هذا العالم مكان يملك سبباً للإقامة فيه، مكان ذو معنى. لقد أحسّ لا وعيه بهذا المعنى، منذ أيام في شوارع روما، وأبنيتها، وآثارها،

وكنائسها، وفي كل مكان فيها. لا يقال عن هذا المعنى أنه أنهي بفرصة سعيدة. لا تتوافق السعادة مع روما وألفيّاتها، والذي انتظره من الآتي لم يكن ما يفضي في العادة إلى توقّع سعيد. لقد انتظر مصيره، قدره المنطقي اللائق بروما.

كتب من فوره لتيقادار أن حالته الصحية تمنعه من السفر الطويل، وأنه لن يرسل النقود لميليسنت، فهي فتاة طيبة ولن تضغط عليه، وستمنحه مهلة أخرى ما دامت أمهلته كل هذه المدة. وحمّل تيقادار مسؤولية تأخره في العودة لكونه لم يرسل له نقوداً كافية.

ولتوتّره الشديد، أكثر من الشرب في مساء ذلك اليوم. وحين استيقظ في الليل على خفقان قلبه الشديد، عاوده إحساس الهلاك الذي كان يصاحب إحساسه بحبّ إيڤا في فترة المراهقة. أدرك الآن جيداً وعلى نحو أكثر جلاءً من يوم أمس أن عليه أن يعود إلى البلد، لألف سببٍ وسبب، ولكنه مع ذلك، بسبب إيڤا، التي قد لا يصادفها أبداً، يبقى في روما، ويستسلم لمغامرة كبرى واضعاً نفسه في موقع مناهض لعائلته الغاضبة عليه غضباً لا يزول، ويناقض حياته المدنية، ويوغل في الأيام الخالية من اليقين. ولكن، لم يخطر له للحظة أن بوسعه أن يتصرّف على نحو آخر. وأن هذه المغامرة، وهذا الإحساس بالهلاك، هما من أصول اللعبة.

ليس غداً ولا بعد غد، لكنهما سيلتقيان ذات مرة، وأنه سيحيا حتى ذلك الوقت، سيحيا من جديد، لا كما فعل في السنين الماضية.

Incipit vita nova (سيبدأ حياة جديدة).

- ٢ -

طالع يومياً الصحف الإيطالية بمزيجٍ من الأحاسيس. كانت الصحف الإيطالية تشطح في إظهار الابتهاج والسعادة، وكأن من يكتبها ليسوا بشراً، لكنهم قدّيسون منتصرون مبارَكون هبطوا لتوّهم من إحدى لوحات «فرا أنجيليكو»، ليحتفوا بنظام الدولة المثالي. هنالك على الدوام سبب يستدعي السعادة. وفي حال أقيمت منشأة ما، وبادر أحدهم لإلقاء خطبة شاملة واسعة النطاق، هبّ الشعب للاحتفاء بها بحماسة، حسب شهادة الصحافة على الأقل.

وككلّ أجنبي، أثارت ميهاي أيضاً المسألة: تُرى هل يتحمس الشعب للاحتفال بكل شيء؟ وهل هو دائم الابتهاج بلا كلل ودونما انقطاع، كما تزعم الصحافة؟ كان ميهاي يعلم أن من الصعب على أجنبي أن يبلغ درجة الغبطة والصدق اللذين يتحلّى بهما الإيطالي، لا سيما إن كان الأجنبي لا يكلّم أحداً، ولا يمتّ بأيّ صلة للحياة الإيطالية. وكان يعلم أيضاً كم هي قليلة، وسخيفة تلك الأشياء الكافية لكي تجعل الإنسان -فرداً كان أم جمهوراً- سعيداً!

غير أن هذه المسألة لم تشغله طويلاً. قالت غرائزه: لا يهمّ في إيطاليا من هم الحاكمون وعلى رأس السلطة، وباسم أي أفكار يحكمون الشعب. السياسة لا تلامس سوى السطح، والشعب الإيطالي النائم، يحمل على ظهره الزمن المتغيّر بسلبية عجيبة، ولا يرجع تاريخه العظيم لمجتمع بعينه. حتى روما الإمبراطورية، والجمهورية بكل إيماءاتها العملاقة، وبطولاتها الفذّة، وحماقاتها، إنما هي مجرد مسرحية رجولية تجري على السطح، قام بأدوارها بعض الممثلين العباقرة الذين كانت كلّ

هذه «الرومانية» قضيتهم الشخصية، في حين استمر الإيطاليون، في الوقت نفسه، يأكلون الباستا، ويغنّون الحب، وينجبون ما لا يحصى من ذرّياتهم.

وفي ذات يوم وقعت عيناه في جريدة «بوبولو دي إيطاليا» على اسمِ معروف «محاضرة ڤالدهايم». قرأ المقالة التي تبيّن منها أن رودلف ڤالدهايم، عالم الفقه وتاريخ الأديان، ألقى محاضرة في أكاديمية ريالي، بعنوان «جوانب الموت في الأديان القديمة». احتفى بالمحاضرة الصحفيُ الإيطالي الناريّ بصفتها محاضرة تلقي ضوءاً جديداً، ليس على مفهوم الموت في الأديان القديمة فحسب، بل على جوهر الموت عموماً، وأنها كانت توثيقاً مهماً لمدى الصداقة الإيطالية المجرية. كان احتفاء الحضور شديداً بالبروفيسور اللامع الذي فاجأ مستمعيه بشخصيته المحبّبة كشابّ.

ليس هذا سوى رودي ڤالدهايم. أكّد ميهاي، وخالجه إحساس لطيف لكونه يوماً أحبّ رودي ڤالدهايم كثيراً، كانا زميلين في الجامعة، لكن أياً منهما لم يكن ذا طبيعة صداقية: ميهاي لأنه كان يحتقر الغرباء الذين لا يؤمَون منزل أولبيوش، وڤالدهايم لأنه شعر أن الجميع مقارنةً به جهَلة، وسطحيّون ورخيصون. إلا أن نوعاً من صداقة نشأ بينهما من خلال تاريخ الأديان. لم تستمرّ الصداقة طويلاً. كان ڤالدهايم قد بات غزير المعرفة يطالع الكتب بلغات عديدة، ويشرح بامتيازٍ ورحابة صدرٍ لميهاي، المصغي بصدرٍ رحب كذلك. إلى أن تبيّن له أن اهتمام ميهاي بتاريخ الأديان ليس عميقاً، ورأى فيه هاوياً، فانكمش عنه مرتاباً. أما ميهاي فقد أذهلته مؤهّلات ڤالدهايم الفذّة، ودار في ذهنه أنه إذا ما تمتّع مؤرّخٌ مبتدئ بكل هذا القدر من المؤهّلات، فما الذي يبقى لمؤرّخ متدرّب ملتحٍ؟ فكفّ عن

حماسه. وفعلاً لم يطل الوقت حتى تخلّى ميهاي عن دراسته الجامعية، في حين سافر ڤالدهايم إلى ألمانيا لإتمام علومه على أيدي كبار الأساتذة هناك، فكان أن افترقا بطبيعة الحال. وبعد مضيّ سنوات عرف ميهاي، من خلال الصحافة، مقدار التقدّم السريع الذي يحققه ڤالدهايم في مهنته العلمية بعد أن صار أستاذاً جامعياً، وأوشك أن يكتب له رسالة تهنئة، لكنه لم يفعل، ولم يتسنَّ له أن يقابله شخصياً.

والآن حين طالعه اسم ڤالدهايم، أول ما خطر له لطفه منقطع النظير، الذي كان قد نسيه تماماً مع مرور الوقت: رأسه الحيوي الثعلبي المستدير الوضاء الحليق الأصلع، إسهابه المدهش في الحديث، لأن ڤالدهايم كان يقوم بشروحاته على الدوام بصوتٍ جهير وأسلوب ممتع، وعبارات طويلة سليمة النطق، حتى ليظنّ المرء أنه في حلم، دائماً ما كان يركّز على مفهوم «الروح». وكان يعبد التجلّي العظيم القديم للروح، ويمقت كل ما هو «مسطّح» و«رخيص» وخالٍ من المعايير. كان ينطق بكلمة «الروح» وكأنها على ما يبدو كانت تعني له الشيء الكثير.

أنعشته ذكرى حيوية ڤالدهايم. ودفعه الشوق للقائه ولو لفترة قصيرة. خطر له فجأة مدى العزلة التي عاشها منذ أسابيع مضت. عزلة انتظار القدر، شغله الشاغل الوحيد في روما، التي لا يمكن لأحد أن يشاطره إياها. لكنه أحسّ الآن مدى استغراقه في بحر هذا الانتظار الصبور الحالم، ومدى إيغاله في مياه وعي الهلاك، الذي أودى به إلى أعماق مليئة بأعشابٍ مُهلكة، تسحبه إلى قيعان تعيش فيها كائنات المياه العميقة العجائبية. وفجأة ها هو ذا يخرج إلى السطح، وينفض رأسه من الماء، ويأخذ شهيقاً.

عليه أن يقابل ڤالدهايم. لاحت له إمكانية عملية للحل. لقد تضمّن المقال الذي تناول محاضرة ڤالدهايم ذكراً عن حفل استقبال أقيم في كنيسة كلية هنغاريكوم، في قصر فالكونيري. تذكّر ميهاي أن في روما كلية هنغاريّة تستقبل على نفقتها طلاب علوم وفنون. لا بدّ أنهم هناك سيعرفون عنوان ڤالدهايم، هذا إن لم يكن مقيماً هناك أصلاً.

لم تكن معرفة العنوان أمراً شاقّاً. في ڤيا جوليا غير بعيد عن مسرح مرسيللو، حيث طاب له أن يتجوّل في تلك الأنحاء الريفية. عَبَر أزقة الغيتو اليهودي، وسرعان ما صار أمام قصر فالكونيري.

رحّب موظف الاستقبال بميهاي قائلاً له إن البروفيسور في الكلية، لكنه نائم الآن. نظر ميهاي مستغرباً إلى ساعته التي أشارت إلى العاشرة والنصف.

قال موظف الاستقبال: «أجل، السيد البروفيسور ينام كل يوم حتى الظهيرة، ويحظّر إيقاظه. ثم إن نومه عميق من الصعب إيقاظه».

- إذاً، ربما أعود بعد الغداء.

- للأسف، ما إن يتناول البروفيسور الغداء حتى يعود إلى الاستلقاء والنوم، وعندئذٍ لا يمكن إزعاجه.

- ومتى يكون مستيقظاً؟

- طوال الليل.

- الأفضل إذاً أن أترك بطاقتي وعنواني، وسيعلمني البروفيسور لاحقاً إن كان يرغب في لقائي.

وفي المساء حين عاد إلى المنزل، كانت تنتظره برقية من ڤالدهايم، يطلب فيها أن يقصده على العشاء. فأسرع ميهاي واستقلّ تراماً نحو قصر فالكونيري. لقد أحب خط الترام C المذهل، الذي أقله من المحطة إلى هناك لافاً نصف المدينة، عابراً غابة هنا وغابة هناك، توقف أمام المدرج، مسح آثار بالاتينوس مندفعاً على ضفة التيبر. تحركت على جانبي السكة مواكب آلاف من السنوات، فيما لم تستغرق الرحلة أكثر من ربع ساعة.

«تفضّل!» صاح ڤالدهايم حين طرق ميهاي الباب، لكن الباب لم يشأ أن ينفتح لسببٍ ما. «انتظر، حالاً...» صاح مجدداً من الداخل، وبعد لحظات فتح الباب.

«الباب ممترس قليلاً»، قال ڤالدهايم مشيراً إلى كوم المخطوطات والكتب على الأرض، ثم أضاف: «ادخل لا عليك!».

لم يكن الدخول سهلاً، لاكتظاظ أرضية الغرفة بشتى أنواع المواد: مخطوطات، كتب، ملابس ڤالدهايم الداخلية، ملابسه الصيفية الفاتحة، كثير من أزواج الأحذية، مختلف معدّات السباحة والرياضات الأخرى، صحف، علب كونسروة، علب شوكولا، رسائل، مستنسخات وصور نسائية.

نظر ميهاي حوله مصدوماً. فسّر ڤالدهايم الحالة:

- لا أحبّ أن يقوموا بالتنظيفات في أثناء إقامتي هنا، عاملات التنظيف يقمن الفوضى فلا أعثر على شيء. اجلس رجاء.

وانتظر قليلاً...

وأنزل عن قمّة إحدى الكومات بعضاً من الكتب، لتكون كرسياً، فجلس ميهاي بحياء. طالما أربكته الفوضى، فضلاً عن كون هذه الفوضى قد نضحت بهالة قدسية للعلم تفرض الاحترام.

وجلس ڤالدهايم كذلك، وأخذ من فوره يشرح لمَ هو فوضوي، وأن لفوضاه أكثر من سبب روحي مجرّد، لكن للوراثة أيضاً دوراً في المسألة.

- كان والدي رساماً، كما قلت لك في ما مضى، ولعلّك تذكر اسمه. لم يسمح لأحدٍ أن يمدّ يده إلى أدواته في المشغل. ومع مرور الوقت أصبح الوحيد الذي يتمكن من السير في مشغله. كان وحده من يعرف مواقع تلك الجزر حيث يمكن للمرء أن يتحرك دون أن يصطدم بشيء، ولكن هذه الجزر طُمرت في ما بعد في زحام المواد. عندئذ عمد والدي إلى إغلاق المشغل، ليبتاع واحداً آخر، وبدأ حياة جديدة. وتبيّن بعد وفاته أنه كان يملك خمسة مشاغل وكلّها شديدة الاكتظاظ.

ثم أخذ ڤالدهايم يروي قصة حياته منذ رؤيته الأخيرة لميهاي. مرحلته الجامعية، شهرته العالمية في فقه اللغة، التي فاخر بها بلطفٍ وسذاجة كطفل صغير. فجأة كُتبت عنه المقالات بلغات مختلفة، وكانت إحداها تلك التي قرأها ميهاي في مجلة بوبولو دي إيطاليا. ثم وفدت إليه الرسائل، وعلماء أجانب ذوو شهرة، وأرتال الأصدقاء من الكتّاب، ودعوة إلى الاجتماع السنوي لمجموعة العمل الأثرية التابعة للإمبراطور الألماني، الذي يقام كل صيف في دورن في هولندا. وحصل من إحدى الجهات على كأس فضّي عليه رمز الإمبراطور الألماني السابق.

- انظر، هذا منه، بعد أن احتست المجموعة كلّها النبيذ المجري «توكاي» على شرفي.

ثم أراه صوراً جماعية يبدو فيها إلى جانب شخصيات علمية من الرجال، وشخصيات نسائية أدنى مستوى علمي.

- حضرتي بالبيجاما، حضرتي مخجلة... السيدة تخفي وجهها من شدة خجلها...

ثم ظهر ڤالدهايم مع امرأة دميمة، وصبيّ صغير.

سأل ميهاي: «من هذه المرأة البشعة، ومن هذا الصبي؟».

قال ڤالدهايم: «هذه أسرتي، زوجتي وابني»، وضحك.

سأله ميهاي مصدوماً: «ولديك عائلة؟ أين يقيمان؟».

لم يكن ميهاي يتصوّر أن أحداً مثل ڤالدهايم، بغرفته هذه، وطباعه الخاصة ومسيرته الجامعية، يمكن أن يكون له زوجة وينجب أبناءً.

- أنا متزوّج منذ قرون.. هذه الصورة الفوتوغرافية قديمة جداً. من ذلك اليوم شبّ ابني، وتبشّعت زوجتي أكثر فأكثر. حصلت عليها منذ كنت في هايدلبرغ. اسمها كيتشين، أليس رائعاً؟ وهي في السادسة والأربعين. لكنّ أحدنا لا يزعج الآخر. هما يعيشان في ألمانيا عند والديها اللطيفين، ويحتقرانني. وفي الآونة الأخيرة صارا يحتقرانني ليس فقط لما أتمتّع به من خلق، بل لأنني لست ألمانياً.

- لكنك ألماني، من حيث العرق على الأقل.

- حسناً، حسناً، لكن ألمانياً من خارج ألمانيا، أو براتيسلافياً، أو مقيماً في حوض الدانوب، لا يعتبر مساوياً لهم. هذا ما يقوله ابني على الأقل، ويخجل مني أمام زملائه، فماذا أفعل؟ لا شيء. لكن كُل أرجوك. أووه! لم أجلب العشاء بعد... انتظر، حالاً... الشاي يغلي. لكنك لست ملزماً بشرب الشاي. يمكنك شرب النبيذ الأحمر.

أخرج كيساً كبيراً من بين الأماكن الخفيّة في الأرضية، وتناول بعض الأغراض والمخطوطات عن طاولة الكتابة، ووضعها تحتها، ثم وضع عليها الكيس وفتحه، فبان الكثير من الشونكا الإيطالية، والسلامي والخبز.

قال ڤالدهايم: «لا آكل إلا اللحم البارد، ولا شيء آخر، ولكن لكي لا يضجرك الأمر فقد أجريت بعض التغييرات، انتظر، حالاً...».

وبعد تفتيش مطوّل أخرج موزة واحدة، وقدّمها لميهاي بابتسامة قائلاً:

- هل رأيت ربّ منزل بمثل هذا التدقيق؟

عدم التطلّب، والإهمال والتقشف الطلابي، فتّنت ميهاي. وشعر بالحسد، غابطاً ڤالدهايم الذي يأكل الشونكا ولا يتوقف عن الشرح. وفكر: هو ذا الشخص الذي حقّق المستحيل، هو ذا من ضرب جذوراً في عمرٍ مناسب له. لكل امرئ عمرٌ مناسب خاص يتجذّر فيه. هذا مؤكّد. لكن هنالك من يظلون أطفالاً مدى الحياة، وهنالك من هم منكمشون، غريبو الأطوار لا يجدون أماكنهم إلا في عمر الشيخوخة الجميلة، الحكيمة، رجالاً كانوا أم سيدات. المدهش في ڤالدهايم أنه استطاع أن يبقى في روحه طالباً جامعياً، من دون أن يتخلّى عن العالم، والنجاح،

والحياة الروحية. خاض ميداناً، حيث التخلف الروحي لا يكون مزعجاً، بل مفيداً، ولا يتقبّل من الواقع إلا ما يتوافق مع ثوابته. أجل هو ذا! لو كان بوسعي أن أتأهّل هكذا!

- يا للسماء! لديّ مسألة نسائية مستعجلة بالقرب من هنا، أرجو منك أن ترافقني، وتنتظرني، لوقتٍ قصير جداً، وبعد ذلك نجلس في مكانٍ ما ونتابع حوارنا.

فكّر ميهاي: لم يفطن ڤالدهايم إلى أن هذا الحوار من طرف واحد، ولم ينبس هو بكلمة واحدة.

- بكلّ سرور!

قال ڤالدهايم خلال الطريق:

- أحبّ النساء كثيراً، بل إلى حدّ المبالغة. كما تعرف عني أنني لم أحظَ بالكثير منهن كما ينبغي، وكما رغبت في شبابي. من جهة لأن المرء في تلك المرحلة يكون غبياً، ومن جهة أخرى لأن تربيتي حظّرت ذلك. أمي هي التي قامت بتربيتي، وكانت ابنة قسّ امبراطوري ألماني. مرةً زرتهم في طفولتي، ولم أعد أذكر الآن ما سبب تلك الزيارة، فسألت السيد العجوز من كان موزارت؟ فأجابني: كان Scheunepuzler. وهذا يعني أنه مهرّج يسلّي الجمهور بالحلقات في إسطبل. بهذا المفهوم لخّص العجوز الفن. حالياً أشعر أنني لن أعوّض بعد الآن ما فاتني حتى سنّ الخامسة والعشرين من النساء... وصلنا. أرجوك انتظرني، سأعود في الحال.

وغاب في أحد المداخل المظلمة، فيما كان ميهاي مرحاً ممتلئاً بالأفكار، يذرع المكان جيئةً وذهاباً. وبعد حين سمع سعالاً

غريباً مرحاً أيضاً. رفع عينيه فلمح رأس ڤالدهايم الدائري الوضّاء مطلّاً من نافذة.

- احمْ، احمْ. سآتي حالاً.

وحين جاء قال:

- امرأة شديدة اللطف. ثدياها متهدّلان، لكن لا بأس، ينبغي التكيّف مع المسألة. تعرّفت عليها في الفوروم. استأثرت بها بفكرة من تاريخ الأديان. قلت لها: للحجر الأسود معنى القضيب. طبعاً يشقّ عليك أن تتصوّر مدى تأثير التاريخ الديني على النساء. يأكلون تاريخ الدين من يدي. على أي حال يمكن الاستئثار بالنساء حتى بعمليات الحساب التفاضلي، أو بالمحاسبة المزدوجة إذا أجاد الرجل حديثه بحماسٍ كاف، فهنّ لا ينتبهن إلى النص، وحتى إن انتبهن لا يفهمن شيئاً، ومع ذلك فإنهن يحيّرن المرء في بعض الأحيان. وفي بعض الأحيان تراهنّ وكأنهن من البشر. لا بأس. أحبهنّ. وهنّ يحببنني. وهذا هو المهم. هيا ندخل إلى هذه الحانة!

أبدى ميهاي تكشيرة ما إن لمح الحانة التي رغب الآخر ارتيادها.

- ليست جميلة، لكنها رخيصة.. لكني أرى أنك ما تزال ولداً ناعماً كما كنت في الجامعة. لكن لا يسوءني أن نذهب هذه المرة إلى مكانٍ أفضل لأجل خاطرك.

قال ذلك بابتسامة تنمّ على استعداده للسخاء من أجل خاطر ميهاي.

ارتادا حانة أفضل مظهراً. فاستأنف ڤالدهايم ثرثرته حتى شعر بشيء من الكلل. سرح قليلاً ثم التفت على حين غرّة نحو ميهاي: «لكن ما الذي كنت تفعله طيلة الوقت؟».

ابتسم ميهاي وقال:

- تعلّمت المهنة، وعملت في مؤسسة والدي.

- عملت فقط؟ والآن؟

- لا أعمل الآن شيئاً. هربت من المنزل. وأتسكّع هنا، وأفكّر في ما عليّ أن أعمله.

- وما الذي عليك أن تفعله؟ وهل هذا تساؤل؟ اعمل بالتاريخ الديني. ثق أنه أفضل العلوم في هذه الآونة.

- ولمَ تفكر أن عليّ أن أعمل بالعلم؟ كيف أصل أنا إلى العلم؟

- على كلّ شخصٍ غير مخبول، أن يعمل بالعلم، أو الفن، أو الموسيقا... أما أن يعمل المرء بالتجارة، فهذا خبل... سأقول لك ما هذا: إنه تكلّف.

- تكلّف؟ كيف تفهم ذلك؟

- انظر رجاء: كانت انطلاقتك بالتاريخ الديني سليمة تماماً. صحيح أن استيعابك كان بطيئاً، لكن الاجتهاد يعوّض كل شيء. وهناك العديد من الأشخاص الذين أصبحوا علماء وهم أقل موهبة منك بكثير... لكني أستطيع أن أتصوّر ما دار في خلدك. تبيّن لك أن ميدان العلم لا يوفر إمكانية الحياة، خاصة إذا ما كنت مدرّساً في المدارس الثانوية، إلخ... فكان عليك إذاً أن

تخوض الميدان العملي آخذاً الضرورات الاقتصادية بعين الاعتبار. هذا ما أسمّيه تكلّفاً، تصنّعاً، زيفاً. لأنك تعلم تمام العلم أن ليس هناك ضرورة اقتصادية. الحياة العملية أسطورة. خدعة أوجدها لتعزية أنفسهم أولئك الذين يعجزون عن ممارسة المسائل المعنوية. وأنت أرجح عقلاً من أن تكون بينهم. إنك تصنّعت ذلك، ولا شيء آخر. والآن حان الوقت أكثر من أيّ وقت مضى لتنزع عنك هذا القناع، وتعود أدراجك إلى حيث تجد نفسك حقاً في الحياة العملية.

- وممَّ أكسب لقمة عيشي؟

- يا إلهي! هذا ليس مشكلة. كما ترى أعيش بطريقة ما.

- أجل، من راتبك بصفتك أستاذاً جامعياً.

- صحيح. لكن بوسعي أن أعيش من دونه. على المرء ألا ينفق. سأعلّمك في ما بعد كيف يمكنك العيش بالسلامي والشاي. أمرٌ صحيّ للغاية. أنتم لا تستطيعون أن تقتصدوا، هذه هي المشكلة.

- لكن يا رودي، هناك مشكلة أخرى، لا أظن أن المهنة العلمية ترضيني بقدر ما ترضيك. لا حماس لديّ. ليس بمقدوري أن أؤمن بأهمية هذه المسائل.

- أي مسائل؟

- مثلاً، مسألة وقائع التاريخ الديني واستنتاجاته. أظنّها أحياناً أنه لا يهم معرفة لماذا اعتنى الذئاب بتربية رومولوس، وريموس.

- كيف لا معنى لها بحقّ الجحيم! هل جننت؟ لا، إنك توارب وتتكلّف، ولا شيء آخر. والآن تكلّمنا كثيراً. عليّ أن أذهب إلى البيت لأعمل.

- الآن؟ عند منتصف الليل؟

- أجل، عند منتصف الليل. لا أحد يزعجني. وفي مثل هذا الوقت لا أفكّر في النساء، أعمل حتى الرابعة فجراً، ثم أجري لمدة ساعة.

- ماذا؟

- أجري. وإلا لا أستطيع النوم. أنزل إلى ضفة التيبر، وأتريّض هناك جيئةً وذهاباً. باتت الشرطة تعرفني، ولا يعيقونني، كما عندنا في الوطن. هيّا! سأحدّثك في الطريق ماذا أشتغل الآن. مثير للغاية. أما زلت تذكر مقطوعات صوفيانا الشعرية التي ظهرت إلى السطح منذ مدة قصيرة؟

وما إن انتهت الشروحات، حتى كانا أمام قصر فالكونيري.
وقال ڤالدهايم: «لكي أعود إلى ما عليك أن تعمله.. البداية هي فقط الشاقّة. سأستيقظ غداً باكراً من أجل خاطرك. تعال عند الحادية عشرة والنصف. سأصطحبك إلى ڤيلا جوليا. أراهن أنك لم تزر المتحف الأتروسكاني. أليس كذلك؟ وهناك إن لم يجئك الحماس لتلتقط طرف الخيط مجدداً، فأنت رجل ضائع.
فاذهب عندئذ إلى مصنع أبيك. رافقك الله!».

ودخل مسرعاً إلى القصر المظلم.

- ٣ -

وفي اليوم التالي قصدا ڤيلا جوليا. شاهدا القبور، والناووسات الحجرية التي حُفرت على أغطيتها منحوتات الأموات الأتروسكانيين، يأكلون ويشربون ويمرحون ويعانقون زوجاتهم، تعبيراً عن الفلسفة الأتروسكانية التي لم يدوَنونها، لأن الأتروسكانيين بلغوا من الحكمة بحيث لم ينتجوا أدباً عبر حياتهم الحضارية، إذ كان يُقرأ على وجوه النُصُب بما لا يدعو للشك: لا أهمية إلا للحظة، واللحظة الجميلة لا تنقضي.

أشار ڤالدهايم إلى صحائف الشرب الواسعة التي كان يستخدمها الإيطاليون القدماء لشرب النبيذ، كما تقول الكتابة على اللوحة:

«Foied vinom pipafo, cra carefo».

- استمتع بشرب النبيذ اليوم، فغداً لن يتوفر -ترجمها ڤالدهايم- قل لي هل هناك تعبير أكثر تكثيفاً وأصالة؟! هذه العبارة بروعتها الأركيوليوجية (ما قبل التاريخ) قانون، ولا تتزحزح، كأسوار القلعة الكثيرة الأضلاع، كالمنشآت السيكلوبية العملاقة. Foied vinom pipafo, cra carefo.

توضَعت في خزانة مجموعة من التماثيل: رجال حالمون يقودون نساءً، ونساء حالمات يقودهن أنصاف آلهة، أو يسبونهن.

سأل ميهاي مندهشاً: «ما هؤلاء؟».

- هذا هو الموت -قال ڤالدهايم، واحتدَ صوته فجأة كعادته دائماً حين يجري الحديث عن مسألة علمية جادة- هذا هو الموت، أو الوفاة بتعبير أدقّ. لأنهما أمران مختلفان. هؤلاء

النسوة اللواتي يغرين الرجال، هؤلاء الأنصاف الآلهة الرجال، الذين يسبون النساء، شياطين الموت. ألا تلاحظ؟ النساء يسبيهن شياطين رجال. والرجال تغريهم شيطانات. هؤلاء الأتروسكانيون كانوا يعرفون أن الفناء فعل شهواني.

ارتعشت أوصال ميهاي. هل من المعقول أن آخرين يعرفون هذا، وليس تاماش أولبيوش فقط؟ أمن المعقول أن هذا الإحساس الأساسي للحياة عند الأتروسكانيين كان ذات يوم واقعاً روحياً موصوفاً، وبديهياً، وغنيّاً عن القول؟ ثم جاء حدس ڤالدهايم العبقري في تاريخ الأديان ليفهم هذا الواقع، شأنه شأن مختلف الخفايا المرعبة في معتقدات القدماء؟

أربكته المسألة بحيث لم ينبس بكلمة، لا في المتحف، ولا في أثناء عودته بالترام، لكنه حين التقى ڤالدهايم في المساء، ومنحه النبيذ الأحمر الشجاعة، طرح سؤاله محاذراً ألا يرتعش صوته:

- قل لي أرجوك، كيف تفهم أن الفناء فعل شهواني؟

- أفهم كل شيء كما أنطق به دون مواربة، لست شاعراً رمزياً. الفناء فعل شهواني، أو لذّة جنسية إن شئت، أقلّه بالنسبة للحضارات القديمة: بالنسبة للأتروسكان، بالنسبة للإغريق الهوميروسيين، بالنسبة للكلتيين.

- لا أفهم. كنت أعتقد دائماً أن الإغريق يخشون الموت إلى حدٍّ كبير، لأن الإغريقي عند هوميروس لا يواسيه العالم الآخر، على ما أذكر في كتاب Rohde. حتى الأتروسكان الذين عاشوا اللحظة العابرة، كان يرهبهم الموت أكثر.

- كل هذا صحيح. هذه الشعوب خشيت الموت أكثر مما نخشاه نحن. لأننا بتأثير التحضّر قد اكتسبنا جهازاً نفسياً عظيماً يجعلنا، في الجزء الأعظم من حياتنا، ننسى أننا سنموت ذات مرة. إننا نقصي فكرة الموت من وعينا، كما أقصينا وجود الله. هذه هي الحضارة. أما بالنسبة للإنسان الأركيولوجي ما قبل التاريخ، فلم يكن أيّ شيء حاضراً كحضور الموت والميت. ومصير الميت نفسه، واستمرارية حياته الغامضة، ونقمته هي ما كانت على الدوام تشغل إنسان ذلك العصر. كانت خشيتهم من الموت والموتى فائقة. لكنهم في أعماقهم كانوا متردّدين مثلنا، والمتناقضات الكبيرة كانت أكثر تلاصقاً. الخوف من الموت، والرغبة في الموت أمران متجاوران في أرواحهم، وكثيراً ما كان الخوف رغبة، والرغبة خوفاً.

- يا إلهي! الرغبة في الموت ليست مسألة أركيولوجية، بل مسألة إنسانية أبدية -دافع ميهاي عن أفكاره- كان هناك، وسيكون على الدوام من تعبوا من الحياة، ومن سئموها وينتظرون خلاصهم بالموت.

- لا تتغابَ، وكأنك لم تفهمني! أنا لا أتحدّث الآن عن المتعبين، والمرضى، والمرشحين للانتحار، بل عن أولئك الذين بتمام حياتهم، لا بل لكونهم بتمام الحياة، يتشوّقون للموت، كأعظم انتشاء مثلما يتكلّمون عن الحب القاتل. هذا هو الموضوع. إما أن تفهم، أو لا تفهم، أمر لا يمكن شرحه، لكنه كان مفهوماً من تلقاء ذاته، بالنسبة للإنسان الأركيولوجي. لهذا أقول إن الفناء فعل شهواني: لأنهم رغبوا فيه، وبالنتيجة: كل رغبة هي شهوانية، وبالأحرى نطلق تسمية شهواني على كل ما يكمن فيه الإله إيروس، أو الرغبة. قال أصدقاؤنا الأتروسكانيون إن الرجل في رغبة دائمة للنساء، فالموت إذاً، الفناء هو امرأة، امرأة

بالنسبة للرجل، لكن الرجل نصف إلهٍ عنيف بالنسبة للمرأة. هذا ما تقوله هذه التماثيل التي رأيتها قبل ظهر اليوم. لكنني سأريك أشياء أخرى، صور غانيات الموت على مختلف النقوش الأركيولوجية، الموت فتاة غانية تغري الكائنات. صوّروها بمهبل شديد الضخامة. وقد يعني هذا المهبل أكثر من ذلك. منه جئنا، وإليه نعود. هذا ما قاله أولئك. لقد ولدنا من خلال فعل شهواني يمرّ عبر امرأة، وعلينا أن نموت من خلال فعل شهواني يمر عبر امرأة، عبر سَبْعات الموت. فعندما نموت نولد من جديد، أتفهم؟ وهذا هو موضوع محاضرتي الماضية في الأكاديمية الملكية، تحت عنوان Aspetti della morte (جوانب الموت)، وقد لاقت نجاحاً باهراً في الصحافة الإيطالية، انتظر.. عندي نسخة منها!

التفت ميهاي إلى الفوضى المضحكة التي تعمّ غرفة ميهاي. وتذكّر الغرفة القديمة في منزل أولبيوش. بحث عن إشارة حقيقية في شكل تامّ وملموس. بحث عن مقاربة تاماش التي يحاضر فيها الآن ڤالدهايم بنقاءٍ علميّ وموضوعية. صار صوت ڤالدهايم حاداً مؤثراً. كان صفيراً كعادته حين يشرح ما هو «جوهريّ». اجترع ميهاي كاساً من النبيذ بسرعة، وخطا نحو النافذة، ليعبّ الهواء. شيءٌ ما قد أثقل عليه.

استأنف ڤالدهايم شروحاته، لكن لنفسه الآن، وبأشد الحماس:

- رغبة الموت إحدى أهم القوى المولّدة للأسطورة. إن قرأنا الأوديسا بتمعّن، لن نعثر على شيء آخر، عاهرات الموت، كيركي الساحرة، كاليبسو الحورية، واللواتي يقمن بجذب المسافر إلى جزيرة الموت السعيدة، ولا يرغبن في إطلاق سراحه. ممالك الموت، لوتوفاجي آكلة اللوتس، أرض الفايا.

ومن يدري إن لم تكن إيثاكا نفسها بلد الموت؟ في الغرب البعيد، يبحر الموتى غرباً مع الشمس... ولعل حنين أودسيوس وعودته إلى إيثاكا تعنيان حنيناً إلى العدم، والبعث. لعل اسم بينلوب يعني بطة، وكانت في الأصل طائر الروح، لكني لا أستطيع إثبات ذلك حتى الآن. مثل هذا الموضوع كما ترى، ينبغي الخوض فيه على وجه السرعة، أنت أيضاً... يمكنك أن تعمل في جانب منه، لكي تتمكن من التآلف مع المنهج العلمي لتاريخ الأديان. كأن تكتب مثلاً عن بينلوب بوصفها بطّة الروح. سيكون أمراً طريفاً للغاية.

رفض ميهاي التكليفَ بامتنان، لأنه بعيد عن اهتمامه في هذه الآونة. وسأل: «ولمَ إغريق ما قبل التاريخ وحدهم من أحسّوا بالواقع الحاضر للموت؟».

- لأن طبيعة الحضارة في كل مكان، وعند الإغريق كذلك، هي أن تصرف انتباه الإنسان عن واقع الموت، فتراهم يركّزون على رغبة الموت، مقلّلين في الوقت ذاته من الرغبة الفجّة في الحياة. وهذا ما قامت به الحضارة المسيحية أيضاً. مع أن هذه الشعوب التي كان على المسيحية أن تخضعها، قد جلبت معها عبادة الموت، التي كانت لدى الإغريق. لم يكن الشعب الإغريقي شعباً موتيّاً، بل كانوا يجيدون التعبير أكثر من غيرهم. الشعوب الشمالية هي التي كانت شعوباً موتيّة بحقّ، والجرمان في أنصاف لياليهم العميقة في غاباتهم، والكلت، الكلت بشكل خاص. أساطير الكلت ملأى بجزر الموت، وقد حوّلها المدوّنون المسيحيون اللاحقون بطريقة نموذجية إلى جزيرة السعداء، ثم جاء باحثو الفولكلور الأغبياء وقفزوا فيها. بحقّك هل جزيرة السعداء تلك التي ترسل بمبعوثتها الجنيّة كقيد لا يقاوم إلى الأمير بران؟ أو أن يتحوّل الشخص العائد من السعادة فجأة

إلى غبار ورماد، ما إن يغادر الجزيرة؟ بحقّك، وما رأيك؟ لماذا يضحك أولئك البشر الضاحكون في الجزيرة، وهم على الجزيرة الأخرى؟ هل من السعادة؟ لا، طبعاً، إنهم يضحكون لأنهم موتى، وضحكهم هو تلك التكشيرة البشعة للجثة التي نراها على الأقنعة الهندية ووجه المومياء البيروفية. لكن للأسف، هذا ليس ميداني في العمل. بوسعك أنت أن تعمل عليه. عليك أن تتعلّم على الفور اللغة الويلزية، والإيرلندية وتسافر إلى دوبلن.

- حسناً. لكن استمرّ في حديثك، لا تتخيّل كم يهمّني الموضوع.. كيف توقفت الإنسانية عن التوق إلى جزر الموتى، أم لعلها ما زالت في شوق حتى الآن؟ ما نهاية القصة؟

- لا أستطيع أن أعطي إجابة إلا حسب فلسفة سبينغلر، لكن بنظرتي الشخصية. وذلك أنه بانضمام الشعوب الشمالية إلى عصبة الأمم المسيحية، والحضارة الأوروبية، كانت أولى التبعات، إن كنت تذكر، أنه على مدى قرنين من الزمن لم يجرِ الحديث إلا عن الموت: في القرنين العاشر، والحادي عشر، فترة الإصلاح الرهباني التي بدأت في كلوني. وفي العصر الروماني المبكر وقعت المسيحية تحت خطر أن تصبح أكثر أديان الموت قتامة، شيء مشابه لأديان هنود المكسيك. لكن مع ذلك برز طابعها الإنساني الأصيل العائد لحوض البحر المتوسط. ماذا حدث؟ لقد استطاع حوض البحر المتوسط أن يسمو برغبة الموت، ويعقلنها. لقد خفّفوا هناك رغبة الموت ولطّفوها إلى رغبة تنشد الآخرة، وحوّلوا القوة الجنسية الرهيبة في بوق الموت إلى نغمة موسيقية ملائكية تعزفها الأذرع والترتيبات السماوية. والآن صار المعتنق يرغب، بكلّ اطمئنان، في الموت الجميل، ليس في مُتَع الفناء الوثنية، بل في متعٍ شريفة

ومتحضرة يجدها في الجنة. أما رغبة الموت الوثنية، القديمة، الفجّة، فقد انتفت، إلى طبقات ما تحت الدين، بين العناصر الخرافية، والشعوذة، والعناصر الشيطانية. كلّما قويت الحضارة، ازداد حبّ الموت هبوطاً إلى ما تحت الوعي.

دقِّق في الأمر: في المجتمع المتحضّر، صار الموت، على العموم، من التابوهات. لا يجوز الحديث عنه، ولا ذكر اسمه إلا مواربة، كأنه من الحماقات. وما لا تتحدّث عنه، لا يليق أن يُفكّر فيه. هكذا تدافع الحضارة عن نفسها ضد الخطر النابع من اصطراع غريزتين في الإنسان: غريزة الحياة، وغريزة أخرى معاكسة تدعوه نحو الفناء بجاذبية قوية، حلوة، ماكرة. وهي غريزة شديدة الخطورة بالنسبة للنفس المتحضرة، نتيجة تضاؤل رغبة الحياة الخام في الإنسان المتحضر. لهذا ينبغي استبعاد الرغبة الأخرى ولو بالحديد والنار. لكنه استبعاد غير ناجح بالضرورة دوماً. في عصور الانحطاط تبرز الرغبة الثانية بقدر كبير، وتطغى على مساحة الروح برمّتها. وفي بعض الأحيان تقوم طبقات اجتماعية بالكامل بحفر قبورها، بوعي تقريباً، كما حصل للأرستقراطية الفرنسية قبل الثورة. وهناك مثال آخر مع القومية المجرية غرب البلاد، في منطقة دونان تولي.

لا أدري إن كنت تفهمني. غالباً ما يسيئون فهمي حين أتكلّم بهذا الموضوع. سأجري تجربة.. هل تعرف هذا الإحساس: يسير المرء على رصيفٍ مستوٍ، ويتزحلق. تنزلق من تحته إحدى رجليه فيأخذ بالسقوط إلى الوراء. في هذه اللحظة من فقدان توازني تنتابني سعادة مفاجئة. تستمر للحظة طبعاً، فأرجع رجلي تلقائياً إلى الوراء، وأستعيد توازني، فتملؤني البهجة لعدم وقوعي. لكن للحظة فقط. للحظة تخلّصت فجأة من وطأة

قوانين التوازن الفظيعة، وتحررت، وحلّقت إلى حريّة مدمّرة... أتعرف هذا الشعور؟

قال ميهاي بهدوء: «أعرف الفكرة أكثر مما تظن».

وفجأة رمقه ڤالدهايم بنطرة اندهاش:

- ما لك تتكلّم بغرابة يا عزيزي؟ ما لك قد شحب وجهك؟! ما الذي حصل لك؟ تعال نخرج إلى الترّاس.

استعاد ميهاي صوابه في الحال.

قال ڤالدهايم:

- يا للشيطان! ما هذا؟ هل انتابتك الحمى، أم الرغبة الهيستيرية؟ أحذّرك من أن تثيرك كلماتي وتقدم على الانتحار. أنكر أنني عرفتك في يوم. ما أنطق به لا يتعدى كونه ذا طابع فردي. أمقت البشر الذين يصلون إلى نتائج عملية من الحقائق العلمية، الذين «ينقلون العلم إلى الحياة»، كالمهندسين الذين يفبركون أدوية قاتلة للبعوض من مواضيع الكيمياء الرعناء. الأمر معكوس تماماً كما قال غوته: «كل حياة رمادية، وخضراء هي الشجرة الذهبية للنظرية». لا سيما وإن كان الحديث يخصّ نظرية ما زالت خضراء، كهذه. والآن، آمل أنني أعدت إليك توازنك الروحي. وإياك... أن تعيش حياة روحية! أظن أن هذه هي مشكلتك. ليس للرجل الذكي حياة روحية. تعال إليّ في الغد وسأصطحبك إلى حديقة المعهد الأركيولوجي الأميركي. ينبغي أن تروّح عن نفسك قليلاً. أما الآن فاذهب إلى بيتك، وسأتابع عملي.

- ٤ -

المعهد الأركيولوجي الأميركي ڤيلا فخمة وسط حديقة كبيرة، في تل جانيكولو. الاحتفال المقام مرّة كلّ عام في الحديقة حدثٌ ضخم بالنسبة للجالية الأنكلوسكسونية في روما، لا يقتصر تنظيمه على الأركيولوجيين الأميركان، بل، بالدرجة الأولى، على الرسامين والنحاتين الأميركيين المقيمين في روما، ويسهم فيها أيضاً كلّ من تربطه بهم علاقة قريبة أو بعيدة. المحتفلون إذاً خليطٌ طريف من الحضور، اعتاد المشاركة في هذه التظاهرة الضخمة.

غير أن ما اكتسبه ميهاي من تنوّع هذا الحشد وطرافته، كان ضئيلاً. كان في حالة نفسية لم تسمح لمجريات الحفلة أن تصل إليه إلا من خلال وشاحٍ ضبابي: الليلة الصيفية الحارّة، وسعادته الشخصية، امتزجتا بالموسيقا الراقصة، وذابتا بأنواع المشروب، والنساء اللواتي كلّمهنّ بأحاديث لا يدري ما هي. لكن زي المهرجين وأقنعة الدومينو أزعجته تماماً. شعر أنه لم يكن هناك هو نفسه، بل أحدٌ آخر. دومينو نعسان.

مرّت الساعات بنشوةٍ مدوّخة لطيفة. تأخّر الوقت، وبات الآن يقف مجدّداً على قمة التل الصغير المعشوشبة، تحت الصنوبرة، وما يزال يسمع تلك الأصوات الغريبة التي أقلقته طوال الأمسية.

تناهت إليه الأصوات من وراء سورٍ ضخم، ضخم جداً. وكلّما ولجت هذه الأصوات إلى داخل الحفلة، ارتفع السور أكثر فأكثر، حتى طال عنان السماء. جاءت الأصوات من وراء السور صاخبة تارة، خافتة تارة أخرى، ومصمّة للآذان تارة ثالثة،

لتكون أحياناً أنيناً في البعيد. كأن أناساً ينتحبون على ضفة بحيرة نائية أو شاطئ بحر بعيد، تحت سماء رمادية. ثم كان أن توقفوا عن النحيب، وطالت فترة صمتهم، حاول ميهاي أن يتناسى أمرهم، وبدأ يحسّ كما لو أنه في حفلة. ولكنه ما إن بدأ يسمع أصوات النحيب حتى انتظر من ڤالدهايم أن يجمعه بامرأة جديدة.

بدأ جوّ الاحتفال يصفو ويستحيل إلى حالة تبعث على راحة النفس. لقد منحت الثمالة الحضور كافّةً مزيداً من القوة، مزيداً من النشاط. تلك الثمالة التي يمنحها الجوّ الاحتفالي ممزوجاً بتأثير الكحول، حين يتجاوز المرء شعوره بالنعاس، وقد انقضى موعده المعتاد للخلود إلى النوم. وبات كل شيء خارج حالة تأنيب الضمير، فاستسلم تماماً للأمسية. أدّى ڤالدهايم مقطوعة غنائية من هيلين الجميلة، وانشغل ميهاي بامرأة بولندية. كان كلّ شيء في غاية الروعة حين سمع مجدّداً ذلك النحيب. طلب العذر وصعد إلى قمة التل. وقف هناك وحيداً بشيء من خفقان القلب، يفكّر مشدوداً كيف سيحلّ هذا اللغز وكأن كلّ شيء يتوقف عليه.

سمع الآن بجلاء أن الغناء خارج السور، وأن كثراً يقومون بأدائه، لعلّهم رجال. أغنية حزينة لا تشبه أي غناء، أغنية موحية بشيء محدّد، لكن بكلماتٍ مجهولة. كان في الأغنية شيء من الألم العميق المروّع، لكن غير الإنساني، والأشبه بعويل حيوانات في ليلة مديدة، ألمٌ ما يزال باقياً من عصر الأشجار، من عصر الصنوبر.

جلس ميهاي تحت شجرة الصنوبر، وأطلق عينيه. لا، لا، من يغنّون ليسوا رجالاً، بل نساء، وسرعان ما رآهنّ أمامه. مجموعة

غريبة تذكّر بناكسوبان، سكان بلاد العجائب في لوحات غولاتشي المجنون، بملابس ليلكية مدوّخة. ثم دار في ذهنه أنهن يبكين آلهةً، أمثال أتيس، وأدونيس... وتاماش، يبكين تاماش الذي فارق الحياة ولم يبكِه أحد في البداية، وهو الآن مسجّى في نعشه خارج السور، ووجهه مُنار يضيئه فجر النهار القادم.

حين فتح عينيه، كانت امرأة تقف فوقه مستندة بكتفيها إلى شجرة الصنوبر، بزيّها الكلاسيكي مثلما تخيّلت قصائد غوته الإغريق، ووجهها المقنّع. استقام ميهاي بلطف، وسأل المرأة بالإنكليزية:

- أتعرفين أولئك النسوة اللواتي يغنّين في الخارج؟

أجابت المرأة: «كيف لا؟! في الجوار ديرٌ سوريّ، وأولئك راهباته ينشدنَ كل ساعتين. أمرٌ شجيّ أليس كذلك؟».

- أجل.

وصمتا قليلاً، ثم بادرت المرأة قائلة:

- جئتك برسالة، من أحد معارفك القدماء جداً.

نهض ميهاي فجأة.

- إيڤا أولبيوش؟

- أجل، إيڤا أولبيوش. توصيك ألا تبحث عنها، فلن تعثر عليها أبداً. فات الأوان. وتقول لك إنه كان عليك أن تفعل ذلك في

المنزل اللندني حيث كانت مختبئة وراء الستارة، لكنك آنذاك ناديت باسم تاماش. لقد فات الآوان.

- كيف يمكنني أن أكلّم إيڤا أولبيوش؟

- ولا بأي طريقة.

واشتدّت الآن الأغنية - المرثاة خارج السور، وكأنهن يبكين أمام جدار، أو يرثين الليلة المتتابعة، والآن بعويلٍ متقطّع كسير، مصحوب بتمزيق أنفسهن، على نحو مهلك.

ارتعدت المرأة.

- انظر! قبّة القديس بطرس.

كانت القبّة تسبح في البياض. والبرودة فوق المدينة كالأبدية التي لا تُقهَر. نزلت المرأة مسرعة عن التلّ.

أحسّ ميهاي بتعبٍ شديد، وكأنه حتى هذه اللحظة، كان يقبض بكلتا يديه، بمنتهى القوة على حياته، ثم أفلتها الآن لتفرّ منه.

وفجأةً استعاد سيطرته على نفسه، وعدا مسرعاً وراء المرأة المتوارية.

كان قد اضطرب الجوّ في الأسفل وراح الحاضرون يتبادلون الوداع ، لكن ڤالدهايم كان ماضياً في شروحه ضمن حلقة صغيرة. فيما راح ميهاي يتراكض هنا وهناك، ثم انطلق مسرعاً باتجاه البوابة، على أمل العثور على المرأة بين أولئك الذين يصعدون إلى عرباتهم.

وصل في اللحظة المناسبة. استقلّت المرأة حنطوراً مفتوحاً، قديماً، جميلاً، كانت قد جلست فيه امرأة أخرى، وانطلقت العربة مسرعة. عرف ميهاي المرأة الأخرى على الفور. كانت إيڤا.

- ٥ -

امتدَ التفاوض بين البنوك لفترة طويلة. كان من الممكن حلّ القضية ببساطة، لو جلس على الطاولة رجلٌ ذكيّ واحد. لكن رجلاً كهذا ليس بمتناول اليد كثيراً في الحياة، راح الحقوقيّون يبهرون بعضهم بعضاً بمؤهّلاتهم، ويتزحلقون على منحدرات الكلام من دون أن تودي بهم إلى السقوط. رجال المال أقلّوا في الحديث، وأنصتوا بارتياب يريد أن يقول عند كل كلمة يسمعونها: «لا أعطي مالاً».

- لن يفضي هذا إلى اتفاقٍ تجاريّ.

قال زولتان باتاكي زوج أرجي الأول مستسلماً.

لقد صار أكثر توتّراً، وفاقد الصبر تماماً.

في الآونة الأخيرة، لاحظ غير مرّة أنه بات مشتّت الذهن خلال ما يجريه من مفاوضات، ومن ذلك اليوم بات أكثر توتّراً، لا يطيق احتمالاً.

تناهى الآن إلى سمعه هدير سيارةٍ مديد تحت النافذة. في ما سبق، كثيراً ما انتظرته أرجي بالسيارة إذا ما طالت المفاوضات.

- أرجي...

لا داعي للتفكير بذلك الآن، ما زال الأمر مؤلماً جداً، لكن الزمن هو الشافي. لنتابع، لنتابع. جزافاً، وعلى نحو أجوف، فارغ، كالسيارة التي ترجّلا منها، لكن لنتابع.

أبدى بيده حركة استسلام، ومطّ فمه بغرابة، وقد أحسّ بإرهاقٍ شديد، شديد. تذكّر أرجي، وأبدى إيماءة مستسلمة، مطّ فمه، وأحسّ بإرهاق شديد. ترى هل يتحتّم عليه زيارة الطبيب بسبب هذا الإرهاق؟ ستتجاوز الحالة يا ولد، ستتجاوزها!

ركّز الآن انتباهه. تحدّثوا الآن عن ضرورة سفر أحدهم إلى باريس، للتفاوض مع تلك المجموعة المالية. قال سيّد آخر إن السفر لا معنى له ويمكن ترتيب المسألة بالمراسلة.

أرجي الآن في باريس، وميهاي في إيطاليا. أرجي لا تكتب ولو كلمة واحدة، كم تشعر الآن بالوحدة المروّعة هناك، أتملك نقوداً يا ترى؟ لعلها ستقصد نفق المترو للتسوّل. إن كانت تذهب قبل التاسعة، وتعود بعد الثانية، ينبغي أن تحصل على بطاقة عودة أيضاً، فذلك أقلّ كلفةً. مسكينة، لا بدّ أن هذا ما تقوم به. ولعلّها ليست وحيدة. من الشاقّ على امرأة في باريس أن تكون وحدها، وأرجي امرأة لافتة.

هنا، لم يبدِ بيده إيماءة مستسلمة، بل صعد الدم إلى رأسه: الموت، الموت، ولا حلّ آخر سواه.

في أثناء المناقشات، تشكّلت قناعة لدى المجتمعين بأنه لا بدّ من إرسال أحد إلى باريس. طلب باتاكي كلمةً، أعلن فيها أن من الضروري إجراء تفاوضٍ شخصيّ مع العملاء الفرنسيين. وتبيّن له خلال حديثه أنه لا يمتلك فكرة دقيقة عما يجري، وأنه قد

طرح حججاً واهية. لكنه أقنع الحضور. وكان من نتيجة ذلك أن عاوده إحساسه بالإرهاق الشديد.

طبعاً، ينبغي السفر إلى باريس. ليس بوسعي أن أسافر وأترك البنك هنا الآن. ثم إنه لا داعيَ لسفري. أرجي لم تدعُني. ومن المغامرة أن أمضي وراءها وأبوء بالفشل. لا، لا يمكن... للإنسان كرامة في نهاية المطاف.

تلا الاجتماع أصعب فترات اليوم: المساء. قرأ باتاكي مرّة أن أكثر الفروق جوهرية بين المتزوّج والعازب هو أن المتزوّج يعرف دائماً من سيشاركه طعام العشاء. وهذا أعظم الخطوب التي واجهها باتاكي بعد أن هجرته أرجي. مع من أتناول العشاء؟ لم يحب الرجال في يوم، ولم يعرف قطّ العلاقات الصداقية. أما النساء فهنّ أكثر الأمور غرابة! حين كان متزوّجاً من أرجي، عرف نساء لا حصر لعددهن، وفي كل مرة امرأة جديدة. كلّهنّ أثرن إعجابه. واحدة لأنها نحيلة، وأخرى لأنها بدينة، والثالثة لأنها متوسطة البدانة. لقد أمضى كل أوقات فراغه، وغير أوقات فراغه مع النساء. كان له علاقات كثيرة. منها بين آونة وأخرى علاقات حبّ مع زوجات زملائه، لكن غالبية علاقاته كانت مع ضاربات الآلة الكاتبة، ولا يخلو الأمر أحياناً من علاقة مع الخادمات من باب التغيير. مرض متنوّع فظيع. محقّةً كانت أرجي حين شعرت بالإهانة، وباتاكي في أشد لحظاته تفاؤلاً يقول لنفسه إنها تخلّت عنه لهذا السبب. لكنه في لحظات التشاؤم كان أكيداً من أن هنالك أسباباً أخرى، نقائص لم يستطع تلافيها. حين غادرته أرجي تخلّى عن النساء كافّةً، وبدّل سكرتيراته من النساء، بأبشع مَن عليها، وعاش حياته المعتكفة.

كان ينبغي أن ينجب طفلاً. وشعر فجأة أنه كان سيحبّه كثيراً. لو كان ولداً من أرجي.

قرّر بسرعة وتلفّن لابنة عمه التي لديها ولدان جميلان، وقصدها للعشاء. ابتاع خلال الطريق حلويات شديدة التحلية أدّت إلى توعُّك أمعاء الولدين لأيامٍ ثلاثة.

وبعد العشاء ارتاد أحد المقاهي، وطالع الجرائد، وتردّد فيما إن كان سيقصد النادي للعب الورق. لم يستطع اتخاذ قرار، فذهب إلى البيت.

ما يزال المنزل كئيباً ومحطّماً بلا أرجي. حقاً كان عليه أن يفعل شيئاً بخصوص الأثاث. من غير المعقول أن تبقى غرفة نومها على حالها وكأنها ستعود في أي لحظة. عليه أن يرحّلها، ويجعل من الغرفة ما يشبه النادي المليء بالكراسي.

أبدى إشارته المستسلمة، ومطّ فمه، وشعر مجدّداً بالإرهاق الشديد. بات لا يطيق المنزل، وعليه أن ينتقل من هنا، ليعيش في فندق كما يفعل الفنانون، ثم يكتّف تنقّلاته من فندق إلى آخر. أو في منتجعٍ صحيّ مثلاً. كان باتاكي يعشق المنتجعات الصحية، بسكينتها الخالصة، ورعايتها الطبية. أجل سأقصد جبل شقاب(********). مناسب لأعصابي. لا ينقصني سوى زوجة أخرى تتركني، وبعدها سأصاب بالجنون.

تمدّد على الفراش، وسرعان ما نهض لشعوره بأنه لن يتمكن من النوم. ارتدى ملابسه من دون أن يخطر له مكان يقصده، ففضّل أن يتناول حبّة منوّم على الرغم من إدراكه بأنها لن تفيده في شيء. خلع ملابسه مجدداً.

ما إن صار في السرير حتى خطر له البديل. أرجي في باريس، وحيدةً تثقل عليها الوحدة، وتفتقد الطعام الجيد، ومن يدري؟ لعلّها تتسكّع هنا وهناك وترتاد أماكن غير لائقة. ولعلها ليست وحيدة. فكرة يصعب احتمالها. أَلِفَتْ ميهاي على نحو ما. لكن لا يمكن الوثوق بميهاي، على الرغم من أنه أقدم على خطف أرجي. ميهاي ليس رجلاً. كان على يقين أنها ستكتشف أن ميهاي ليس رجلاً. صحيح أن أرجي وميهاي كانا على علاقة، وتزوّجا، لكن من المستبعد أن تربطهما علاقة رجل وامرأة. ميهاي غير مؤهل لمثل ذلك. والآن في باريس. الرجل المجهول... الرجل المجهول أكثر إيلاماً بمئة مرة من أي شخص يفتنها من المعارف. لا، إن هذا لا يطاق.

يجب الذهاب إلى باريس، والوقوف على أحوال أرجي. قد تكون جائعة. ولكن ماذا عن الكرامة؟ أرجي لفظته، أرجي ليست في حاجة إليه، أرجي لا تريد حتى أن تراه.

وماذا بعد؟ ألا يكفي أنني أريد أن أراها؟ وبعد ذلك لكل حادث حديث... والكرامة؟ منذ متى تتمتع بهذا الشعور يا سيد باتاكي؟ لو كنت في حياتك التجارية بمثل هذا الإحساس بالكرامة، أين كنت الآن رجاءً؟ لمَ إذاً حيال أرجي بالتحديد؟ ليكن المرء هكذا في حالات الخطر، أمام الرئيس مثلاً، أمام رئيس مجلس الوزراء، لا، لا، بات أمراً مبالغاً فيه. أن تمتلك شعوراً كهذا أمام امرأة، ليس من الفروسية في شيء، ليس من النبالة في شيء. أمرٌ يثير الضحك.

وفي اليوم التالي بذل مساعي مجهِدة، ليقنع البنك، ومن يهمّهم الأمر، بعدم كفاءة ذلك السيد الشاب للتفاوض مع الفرنسيين،

ولا بدَ من شخص آخر أكثر خبرة. إلى أن اقتنع المجتمعون بأن باتاكي هو الشخص الخبير المناسب.

- لكن هل تجيد الفرنسية، سيّدي المدير؟ - سأل أحدهم.

- ليس تماماً. لكنهم لن يرفضوني، لا سيما وأن الذين نعقد معهم الصفقات يعرفون الألمانية مثلك أو مثلي. هل قابلت رجل مال لا يعرف الألمانية؟ Deutsch is ä Weltsprache (الألمانية هي لغة العالم!).

وسافر في اليوم التالي.

أنجز الجانب التجاري من رحلته في غضون نصف ساعة. الفرنسي المدعو لويو الذي كان عليه أن يفاوضه، كان يجيد الألمانية إضافة إلى ذكائه الشديد. حُسمت المسألة على الفور، لأن باتاكي لم يأخذ الأمور الاقتصادية والمالية بتلك الصرامة، على العكس من أولئك غير المتخصصين، ومن هم خارج المهنة. سلك معهم سلوك الطبيب مع مرضاه. كان يدرك أن اللا موهوبين في هذا الميدان، كما في غيره من الميادين، كثيراً ما يُفلحون أكثر من أصحاب المواهب. وكثيراً ما يحتلّ رجال مال زائفون أرفع المواقع، ويقومون بتوجيه الاقتصاد العالمي، في حين يجلس الأصلاء يتأملون في سجن «شفارتسر» وسجن «ماركو». الصراع هنا كذلك يجري في تخيّل خرافي لا أساس له، كما في العلم حين يبحثون عن حقيقة لا وجود لها، وغير مرغوب فيها. أما هنا فيبحثون عن الممتلكات التي لا قيمة لها البتة قياساً إلى حجمها، فيضيّعون بذلك الثروات القيّمة. وفي نهاية الأمر، كلّ هذه المطاردة إنما هي تافهة ككل شيء في العالم.

كان فخوراً بمعرفته أمراً كهذا، في حين لا يتمتع ميهاي مثلاً بهذه المعرفة. ميهاي لثقافته ما يزال مؤمناً بالمال، لكنه في الوقت نفسه يشكّ في أيّ شيء آخر. يقول ميهاي مثلاً: «علم النفس على حالته هذه اليوم غير جدير بالثقة على الإطلاق، علم بدائيّ...». أو يقول: «لا قيمة اليوم للشعر...». أو يقول: «الإنسانية؟ عبثاً نخطب ضد الحرب التي تهدأ وتندلع...». لكن شركة Váralja للكتان والقنب، شيء مختلف، لا يمكن قول شيء عن ذلك. لا يمكن الهذر حيال المال. وضحك باتاكي في سرّه. «شركة Váralja للكتان والقنب.. يا إلهي، لو يدري ميهاي وشركاؤه! سيكون الشعر الغنائي قضية أكثر أهمية!».

«والآن يمكنني أن أهتم بالنقطة الأخرى لبرنامجي».

لقد عرف باتاكي من أسرة ميهاي عنوان أرجي في باريس. لأن باتاكي حافظ كالآخرين غيره على علاقته الجيدة مع هذه الأسرة (حقاً لا حيلة لهم في كل ما جرى)، وحمل لأرجي هدية من قبل شقيقة ميهاي المتزوّجة. كان على يقين أن أرجي لا تقطن في الضفة اليسرى، في بودا الباريسية في حيّ المهاجرين البوهيمي المريب، بل في الضفة اليمنى المتزنة، في جوار إيتوال.

كانت الساعة الثانية عشرة. بعون من نادل المقهى أجرى اتصالاً هاتفياً مع فندق أرجي، لعدم ثقته بمعرفة اللغة الفرنسية. لم تكن المدام في الغرفة. خرج باتاكي يتفسّح في المكان.

ولج الفندق الصغير، وطلب غرفة. ولأنه لا يجيد الفرنسية فقد استطاع أن يلعب دور الأجنبي المخبول. عبّر بالإيحاءات أنه وجد سعر الغرفة باهظاً، ورحل. كان قد انطبع في ذهنه أنه فندق مرتّب يؤمّه أسياد، ويقطن فيه إنكليز على الأرجح. لكن

لمَ انتقلت إليه أرجي من الضفة الأخرى؟ ألأنها راغبة في حياة أكثر أناقة أم لأن لديها عشيقاً يتمتع بالأناقة؟

وهتف مجدداً عند الرابعة عصراً. كانت المدام هناك.

- هالو، أرجي؟ زولتان يتكلّم.

- أووه! زولتان...

أن يسمع أن صوت أرجي يخنقه خفقان القلب. هل هذه إشارة إيجابية؟

- كيف حالك يا أرجي؟ كل شيء على ما يرام؟

- نعم، زولتان.

- أنا في باريس. حصلت بعض التعقيدات في أمور تخصّ شركة Váralja، وكان عليّ أن آتي. ثلاثة أيام من التحرّك حتى الكلل. أنا فعلاً قرفت هذه المدينة.

- أجل، زولتان.

- وفكّرت أن أطمئنّ عنك ما دمتُ هنا، ولديّ بعض الوقت.

- أجل... هذا لطفٌ منك.

- هل أنت بخير؟

- بخير.

- ما رأيك؟ هالو... أيمكنني رؤيتك؟

- لأي شأن؟ - قالت أرجي بصوت بعيد، بعيد.

انتابت باتاكي حالة من الذهول، ومالَ على الجدار. لكنه تابع باشاً:

- وكيف لأيّ شأن؟ لمَ لا أراك وأنا هنا في باريس؟ صحيح؟

- صحيح.

- أيمكنني الصعود إليك؟

- حسناً زولتان، لا، لا تأتِ إلى هنا، دعنا نلتقي في مكان ما.

- عظيم. أعرف هنا مطعماً لطيفاً جداً. تعلمين أين تقع مكتبة سميث الإنكليزية في شارع دي ريڤولي؟

- أظنّ.

- حسناً. في طابقها العلوي كافتيريا. سأكون هناك بانتظارك.

- حسناً.

لقد اختار هذا المكان لأن أيّ مكان فرنسي آخر كان يثير شبهته في ما يتعلّق بأرجي. لقد وضع في تصوّره أن فرنسا، وكل ما هو فرنسي يعني بالنسبة لأرجي نقصاً يعاني منه، وليس بوسعه أن يقدّمه لها. في المقاهي الفرنسية (التي يمقتها أصلاً، لأن نُدُلها لم يحترموه بما فيه الكفاية، ولم يحضروا الماء مع القهوة) كل ما هو ذو طابع فرنسي يدعم أرجي في صراعها معه، فتغدو كفّتها راجحة. ومن أجل اللعب النظيف اختار مكاناً حيادياً هو المقهى الإنكليزي.

حضرت أرجي، أوصيا بما يرغبان، وحاول باتاكي أن يتصرف وكأن شيئاً لم يحدث بينهما، لا زواج ولا طلاق. شخصان بودابستيّان ذكيّان، رجلٌ وامرأة تقابلا في باريس. روى لها بإسهاب ومتعة أخبار معارفهما المشتركين. أنصتت له بانتباه.

فكّر باتاكي خلال ذلك: هذه أرجي هنا. لم تتغيّر بشكل جوهري، لا سيما وأنه لم يمضِ وقتٌ طويل على كونها زوجتي. وترتدي ملابس باريسية، ليست كما أظن من أفضل الأنواع. أرجي كسيرة بعض الشيء. يشوب صوتَها بحّةٌ خفيفة توجع قلبي. مسكينة. الوغد ميهاي! هل كان عليه أن يفعل بها ما فعل. لعلها لم تتخلّص بعد من أذيّته لها. ولعلها تعاني من خيبات آمال جديدة في باريس؟ الرجل المجهول... أووه، يا إلهي! ها أنذا أثرثر هنا عن أخت زوجة بيتر بودروغي، بينما كلّ ما أتمناه هو أن أموت.

هذه هي أرجي. في عظمة الحياة. أمامي المرأة التي لا أستطيع العيش من دونها. لماذا؟ ترى لماذا؟ لمَ تكون هي المرأة الوحيدة المرغوبة، من قبلي، عندما لا أكون راغباً في النساء على الإطلاق؟ قابلت نساء «أفضل بكثير»، غيزي مثلاً، وماريا... اللتان ما إن رأيتهما حتى بدأ دمي يغلي، وكانتا أكثر شباباً منها. أرجي لم تعد فتيّة تماماً. لماذا مع ذلك، هنا، والآن حالاً، وبلا تفكير أو تردُّد، أدفع نصف ثروتي مقابل أن تنام معي؟

نادراً ما نظرت أرجي في عيني زولتان، لكنها أصغت لحكاياته عن المعارف متبسمة وهي تفكّر: كم يعرف من حكايا عن المعارف. معه يشعر المرء أنه في الوطن. أما ميهاي فلا يعرف شيئاً عن أحد. كان عاجزاً عن تذكُّر مَنْ صهر مَنْ، أو مَنْ صديقة مَنْ. لا أفهم لمَ ساورني الآن الخوف، ولمَ صرت على هذه

الحالة من التوتر. ألهذا الحدّ يمكن لـ«كليشيه» الزوج المهجور أن تظل حيّة في النفس؟ رغم أني كنت أكيدة من أن زولتان لن يصل إلى حالة ولو يسيرة من المأساوية. لا تخلو عيناه من الابتسام، ولو كتب له القدر أن يموت إعداماً، أظنّه سوف يروي فكاهة، أو حكاية قبل موته، ليبعد الجانب التراجيدي للمسألة. لا بدّ أنه عانى الكثير، وبات أشيب أكثر من قبل. ولكن لا بدّ أنه روّح عن نفسه وتخلّص مما يعانيه. لا يستحقّ الشفقة.

سألها زولتان فجأة: «وماذا عنك؟».

- عني؟ لا شيء. من المحتمل أنك تعرف سبب مجيئي إلى باريس.

- أعرف الحادثة بخطوطها العامة. لكني لا أعرف سبب حصولها. أتمنّى أن ترويها لي.

- لا، يا زولتان. لا تغضب، لا أستطيع استيعاب أنني أحدّثك بما حصل لي مع ميهاي. ولم أقل لميهاي أيّ شيء، عنك، بالطبع.

فكّر زولتان: هذه هي أرجي. رقيقة وحسنة التربية، وغير فضولية. انضباط داخلي على قدم وساق. تجاملني بنظرات الملامة، الباردة. لن أسمح لنفسي أن أخيفها هكذا.

قال لها: «لكن يمكن أن تخبريني عن مشاريعك القادمة».

- لا مشاريع لي حتى الآن. سأبقى في باريس.

- وهل أنت سعيدة هنا؟

- جداً.

- هل طالبت بأرباحك المستحقّة؟

- لا.

- لم لا؟

- زولتان. لمَ تسأل كثيراً؟ لم أطالب بها لأن الوقت لم يحن بعد.

- أتظنّين أن ميهاي... لا تغضبي... أن ميهاي سيعود إليك؟

- لا أعلم. ربما. ولا أدري ما إن كنت أودّ أن يعود. ربما لن أكلّمه. لا يناسب أحدنا الآخر. لكن... ميهاي ليس كالآخرين، أريد أولاً أن أعرف مقاصده. ومن يدري، ربما يستيقظ في صباح يوم ويشعر أنه يفتقدني، ويخطر له فجأة أنه أضاعني في القطار، ويبحث عني في إيطاليا.

- أتظنّين ذلك؟

أطرقت أرجي.

- أنت محقّ، لا أظن.

ثم لاكها السؤال: لمَ كنت صريحة معه إلى هذا الحد؟ لم استسلمت له كما ليس لأحد آخر؟ يبدو أن شيئاً ما يزال قائماً بيني وبين زولتان. شيء من الألفة التي لا تزول. يستحيل محو أربع سنوات من الزواج. لم أتحدّث عن ميهاي مع أحد في العالم، سوى زولتان.

وفكّر زولتان في نفسه: لم يحِن وقتي بعد. ما تزال تحب ذلك البقرة. لكن ميهاي سيفسد كل شيء مع الوقت، لحسن الحظ.

وسألها: «ما الذي سمعتِه عن ميهاي؟».

- لا شيء. لكن أظن أنه في إيطاليا. وهنا في باريس أحد أصدقائه ممن أعرفهم، يدعى سبتنكي. يقول إنه يبحث عن ميهاي، وسيعرف عما قريب أين هو وماذا يفعل.

- وكيف سيعرف؟

- لا أدري. سبتنكي رجل من نوع غريب.

- حقاً؟

قبض زولتان على فوديه، وحدّق في أرجي بشدّة.

أجابته بلهجة متحدّية: «حقاً. رجل من نوع غريب. أغرب شخص قابلته في حياتي. وهنا أيضاً شخصٌ فارسيّ...».

حنى باتاكي رأسه، وارتشف رشفة كبيرة من الشاي. أيّ واحد من بينهما؟ أم كلاهما؟ يا إلهي، يا إلهي، الأفضل أن أموت!

وبعدئذٍ لم يستمرّ لقاؤهما طويلاً، لأمرٍ هام لدى أرجي لم تفصح عنه.

- أين تقيم؟ - سألته مشغولة البال.

- في إدوارد VII.

- حسنٌ. وداعاً يا زولتان. لقد سررت بلقائك... عش براحة بال، ولا تفكّر بي! - قالت بهدوء، وابتسامة حزينة.

في ذلك اليوم، اصطحب باتاكي امرأة باريسية فتيَة، «ما دمت في باريس» فكر، وكم قرف رائحة الغريبة الصغيرة التي تشخر قربه في السرير.

وحين رحلت المرأة في الصباح، نهض باتاكي، ولمَا همَّ بحلاقة ذقنه، طرق الباب.

- ادخل!

ودخل رجل أنيق فارع الطول، وضَاء الوجه.

- أبحث عن السيد المدير باتاكي، لقضيَةٍ في غاية الأهمية.

- أنا هو. من حضرتك؟

- يانوش سبتنكى.

(********) سيستيوس هو الهرم الوحيد في أوروبا، وOrcus هو إله العالم السفلي بحسب الأساطير الرومانية، ويستخدم الاسم أيضاً للإشارة إلى العالم السفلي أو الجحيم. (المترجم).

(********) في ذلك الوقت كانت المصحَة الأكثر رقياً وأناقة تقع في جبل شقاب. (المترجم)

الفصل الرابع: بوابة الجحيم

من أبواب جهنم.

نجِّ أرواحهم يا رب.

صلاة لراحة الموتى

- ١ -

حلَّ المساء. تهادى ميهاي نحو ضفة التيبر. كان منذ مدّة طويلة يسكن في جيانيكولو، وفي غرفة صغيرة جدّ قديمة أمّنها له ڤالدهايم لدى امرأةٍ عجوز مسنّة، غالباً ما طبخت له الباستا على الغداء، وأحضر هو الجبنة، وأحياناً برتقالة. وعلى الرغم من قِدم الغرفة إلا أنها كانت تبدو غرفة أكثر من أيّ واحدة أخرى في فندق. كان أثاثها القديم عريقاً في أصالته، وقِطعُه كبيرة مختلفة تماماً عما في الفنادق من أثاثٍ زائف. كان يمكن أن يحبّ غرفته لولا أن شحنته الظروف الصحية الملحقة، وظروف النظافة، وأثارت فيه شعوراً بالانحطاط متجدّداً على الدوام. شكا أمره لڤالدهايم الذي سخر منه، وألقى من خلال خبراته الإغريقية والألبانية، محاضرة مطوّلة لا تفتح الشهية تماماً.

دهمه شعور بالفقر وسوء الحال. كان عليه الآن حقّاً، أن يفكّر جيداً بالشحّ المالي الذي صار إليه. تنازل عن القهوة السوداء، ودخّن أسوأ أنواع السجائر، فتهيّجت حنجرته طوال الوقت. بات لا يفارقه الإحساس بأن ما تبقّى لديه من النقود القليلة يوشك أن يَنفَد. طمأنه ڤالدهايم بأن أموره سرعان ما تتحسّن.

كم من النساء المسنّات الأميركيات المجنونات يُقِمن هنا، فلا بدّ أن يحظى بواحدة منهن توكل إليه مهمة إدارة أعمالها، أو تقبله مربّياً لأحفادها، أو تعيّنه ناظر بناية وهو عملٌ مريح إلى أبعد حدّ. إلا أن المرأة الأميركية ما تزال في مخيّلة ڤالدهايم، إضافة إلى قرفه الشديد من الأعمال كافةً، كما تكشّف له في بودابست.

حسبُه عملان يقوم بهما. عمله الأول: اتباع تعليمات ڤالدهايم و«تثقيف نفسه» وانكبابه على دراسة الأتروسكانيين، وارتياده المكتبات والمتاحف، وإصغاؤه كلّ ليلة لأحاديث ڤالدهايم وأصدقاء ڤالدهايم المهتمين بالعلوم التاريخية. لم يشعر حتى اللحظة بالحماس الڤالدهايمي الحقيقي الكبير حيال المواضيع، لكنه تشبّث بقوة بالدراسة المنهجية، لكونها خفّفت من الوطأة الخانقة لموقعه المدنيّ السيّئ، الذي أحسّه عبثاً، نتيجة حياته الخاملة. لم يحبّ ميهاي العمل في يوم، ومع ذلك فقد كان يبذل مجهوداً كبيراً في العمل خلال سنواته المدنية، لأنه أحبّ كثيراً ذلك الإحساس المسائي بأنه كان صاحب إنجاز نهاري. إضافة إلى أن الدراسة -وهي أحد عملين يقوم بهما- كانت تصرفه لبعض الوقت عن عمله الآخر، وهو انتظار لقاء إيڤا.

لم يكن بوسعه أن يُبعِد عنه فكرة عدم لقائها إلى الأبد. في اليوم التالي لتلك الليلة طاف ذاهلاً في المدينة، لا يدري ماذا يفعل، لكنه اكتشف لاحقاً أنه لا «يريد» سوى أمرٍ وحيد، إن كان يصحّ هنا استعماله كلمة «إرادة». لقد لقّنه المدرّسون أن للوجود درجاته، ولا وجود حقيقياً فعلياً إلا للمثالي. الوقت الذي صرفه للبحث عن إيڤا أكثر كمالاً من حيث الوجود، وأكثر حقيقة من الأشهر والسنوات التي مضت من دون إيڤا. وبناء على هذا فإنه لا معنى لأيّ وجود بغياب إيڤا، إلا في التفكير بإيڤا، وانتظارها.

كان يشعر بالتعب حتى درجة الهلاك، ونقَل رجليه كأنهما تعرجان.

حين بلغ ضفَة التيبر خالجه إحساسٌ بأن أحداً يقتفي أثره، لكنه أبعد عنه إحساسه هذا، لأنه أيقن أنه مجرّد توهَمٍ ناتج عن إرهاق عصبي. ثم عاوده هذا الإحساس بقوة وهو يعبر أزقة حي تراستيڤر. بدأت تهبّ رياحٌ شديدة، وكانت الأزقة أقل اكتظاظاً بالناس من أيّ وقتٍ آخر

«إن كان أحدٌ يتبعني، فعليّ أن أراه»، فكّر، والتفت إلى الخلف بين الحين والآخر. لكن كثيرين كانوا يسيرون وراءه. «ربما يكون أحدٌ ما يتبعني، وربما لا».

وهو يمضي صاعداً الأزقة الصغيرة، أثقل عليه إحساسه بأن أحداً يتبعه، فلم ينعطف يساراً نحو الشارع المؤدي إلى الجبل، بل تابع مسيره في أزقة الحي، يحدوه التفكير في أنه سوف ينتظر تابعه في مكان مناسب. وهكذا توقف أمام حانة صغيرة.

إن أراد مهاجمتي -فكّر، لأن من السهل توهُّم مثل هذا الأمر في أزقة تراستيڤر- يمكنني هنا أن ألجأ إلى طلب العون، لا بدّ أن يخرج أحدٌ من الحانة، لمجرّد صراخي. لكنني سأنتظره في جميع الأحوال.

توقف أمام الحانة وترقّب. مرَّ أمامه كثيرون ممن ساروا وراءه في الأزقة، لكن أحداً لم يحفل به، ومضى كلٌّ في طريقه، وحين أوشك أن يهمّ بالرحيل اقترب منه أحدهم في غبش الظلمة. وعلى الفور عرف ميهاي الشخص المنتظر. اشتدّ خفقان قلبه وهو يراه يتقدّم نحوه.

حين أصبح على مسافة قريبة منه عرفه: يانوش سبتنكي. إن أكثر الأمور استثنائية في القصة، ولعله الأمر الاستثنائي الجيّد فيها، أنه لم يكن مندهشاً.

قال ميهاي بهدوء: «مرحباً!».

قال سبتنكي بصوتٍ ودود مرتفع: «مرحباً ميهاي! حسنٌ أنك انتظرتني أخيراً. كنت سأدعوك إلى هذه الحانة بالتحديد. هيّا ندخل!».

دخلا الحانة الصغيرة التي عمّتها الظلمة فضلاً عن رائحتها العابقة. احتمل ميهاي الرائحة، لأن الروائح الإيطالية، لسببٍ غريب، لم تكن تزعج أنف ميهاي الحسّاس. حتى في هذه النتانة كان ثمة شيء من الإثارة، شيء من الرومانسية. لكنه لم يُطِق الظلام. نادى سبتنكي على الفور من أجل مصباح. أحضرت المصباح فتاةٌ إيطالية قذرة بديعة الجمال، بأقراط ضخمة، وعينين ومَاضتين، وكانت شديدة النحول. وكانت على ما يبدو من معارف سبتنكي القدامى، لأنه ربّت عليها فتبسّمت بأسنانٍ كبيرة بيضاء، ثم أخذت تروي قصّةً من قصصها، بلهجة تراستيڤرية، لم يفهم ميهاي كلمة منها، لكن يانوش، الذي كان موهبة لغوية شأن المحتالين على العموم، أدلى بتعليقات بارعة. أحضرت الفتاة نبيذاً، وجلست على طاولتهما، وتحدّثت. سمعها يانوش مستمتعاً، وأهمل ميهاي تماماً، إلا ببعض التعليقات باللغة المجرية، مثل:

«امرأة رائعة أليس كذلك؟ يا لهم من طليان!».

«أتلاحظ عينيها كيف تتحرّكان؟ من يعرف مثل هذا في بودابست؟».

«تقول إنهم سجنوا كلّ خطّابيها، والآن جاء دوري لأزجّ في السجن. صاحبة عقل أيضاً، أليس كذلك؟».

اجترع ميهاي متوتراً كأساً بعد أخرى. إنه يعرف يانوش سبتنكي، ويعرف أنه لن يصل عما قريب لما يريد قوله. كان يلزم سبتنكي إعدادٌ رومانسيّ مناسب لكلّ شيء. لذلك افتعل هذه الكوميديا مع الفتاة الإيطالية. يجب انتظار نهايتها. لعلّه شكّل عصابة سرقة في تراستيفر، وهذه الفتاة وحانتها ينتميان إلى هذه العصابة كواجهة. لكنه عرف كذلك أن سبتنكي لم يأتِ ليشكّل عصابة للسرقة، بل لأنه يبغي منه أمراً، وقد أرّقه كثيراً ما هو هذا الأمر.

- دع هذه المرأة وشأنها، وأفصِح عن سبب ملاحقتي، وما الذي تريده مني؟! لا وقت لديّ، ولا مزاج لأشاطرك مهازلك.

سأل سبتنكي بوجه بريء: «لماذا؟ لعل المرأة لم تُثِر إعجابك؟ أم هذه الحانة؟ فكّرت أن نتسلّى قليلاً، بعد طول غياب كلٌّ منّا عن الآخر».

وعاد إلى الانشغال بالفتاة.

فنهض ميهاي، وتهيّأ للرحيل.

- لا، يا ميهاي، بحقّ الله، لا تذهب! جئت من روما لأتحدّث معك. ابقَ للحظةٍ فقط-والتفت نحو الفتاة- اسكتي أنت قليلاً!

سأله ميهاي: «من أين تعرف أنني في روما؟».

- أووه! دائماً أعرف كلّ شيء عنك، عزيزي ميهاي، منذ سنوات خلت. وعبر كل تلك السنوات، لم يكن لديك ما يستدعي

الاهتمام. الآن بدأت تثير الفضول. لهذا علينا أن نلتقي بكثافة.

- حسناً. والآن أرجوك أن تقول لي ما تريده مني.

- يجب أن أتفاوض معك.

- وتتفاوض أيضاً؟ عمَّ؟

- ستضحك! بأمورٍ تجارية.

اربدَّ وجه ميهاي.

- هل تحدّثت مع أبي؟ أو مع إخوتي؟

- لا. حتّى الآن لا. لا شغل لي معهم حتى الآن. معك فقط. لكن قل لي أليست هذه المرأة رائعة؟ انظر ما أنعم يديها! لكن المؤسف أنها جدّ قذرة.

والتفت ناحية الفتاة، وراح يثرثر بالإيطالية.

نهض ميهاي قافزاً وخرج من الناحية، وانطلق صاعداً الجبل. تبعه سبتنكي، وسرعان ما لحق به. لم يستدِر ميهاي إلى الوراء، وترك سبتنكي يتحدّث وراء ظهره، خلف كتفه الأيسر، كمن يعاكسه.

تكلّم يانوش بسرعة وهدوء وهو يلهث بفعل صعود الجبل.

- اسمعني يا ميهاي! تعرّفت بالمصادفة بسيّدٍ يدعى زولتان باتاكي، وتبيّن أنه زوج زوجتك الأول. لكن القضية ليست هنا، بل تبيّن لي أن باتاكي هذا ما يزال يحبّها حتى درجة العبادة، ويريد أن يسترجعها. وهو الآن على أمل، وقد تخلّيت عنها، أن

تعود هي إلى صوابها، وتتزوّجه. وهو أفضل الحلول لكم أنتم الثلاثة. أليس لديك ما تقوله؟ حسناً. لم تفهم بعد أين «العمل - الصفقة». وما علاقتي بالموضوع كله. لكنك تعرف أنني تخلّيت عن «براعاتي» منذ مدة طويلة. مجال عملي... اسمعني! زوجتك ليس فقط لا ترغب في الطلاق منك، ولكنها في دخيلة نفسها على قناعة أنكما ذات يوم ستكونان زوجين يسودهما الوئام والسعادة، ولعلّ السماء ترزقكما بمولود. إنها على معرفة بأنك غير الآخرين، لكنها لا تدرك معنى أن يكون المرء شخصاً من نوع آخر. تفتقدك كثيراً في الوقت الذي لا ينبغي عليها أن تفكر فيك. ولكن لا تنشغل بالأمر، ولا تأخذنّك الشفقة عليها، فهي على خير ما يرام، لكني لا أريد الثرثرة. إنها على خير ما يرام من دونك أيضاً.

صرخ ميهاي وقد توقف عن المسير: «ماذا تريد؟».

- لا شيء. هنالك صفقة. يفكّر السيد باتاكي بأن تخطو معها خطوتك النهائية بإقناع أرجي بأن علاقتكما باتت مغلقة، وغير ممكنة.

- وما هي هذه الخطوة النهائية؟

- تقدّم بطلب طلاقٍ ضدّها.

- وكيف ذلك، وأنا من تخلّيت عنها؟! وحتى لو كانت هي من طلبت الطلاق، لن أفعل ذلك. هذا شأن المرأة.

- صحيح. أمر طبيعي. لكن إن لم تشأ المرأة أن ترفع طلب الطلاق فعليك أن تفعل أنت. هذه وجهة نظر باتاكي على الأقل.

- لا شأن لي بوجهة نظر باتاكي، كما لا شأن لي بالقضية كلها. تكلّما مع أرجي، وسأفعل ما تريده هي.

- انظر، يا ميهاي! هذه هي الصفقة بالضبط. شغّل عقلك! لا يريد السيد باتاكي ذلك منك مجاناً. إنه على استعداد أن يدفع مبالغ طائلة. رجل ثريّ جداً، ولا يستطيع العيش من دون أرجي. حتى إنه كلّفني أن أعطيك دفعة أولى ليست قليلة.

- حماقة. وعلى أيّ أساس أرفع طلب طلاق ضد أرجي وأنا من تركتها؟ ماذا لو طلبت منها المحكمة أن تصلح حياتها الزوجية؟ ستوافق ما دامت راغبة في العودة. فماذا أفعل عندئذ؟

- لا تقلق بهذا الشأن. قدّم أنت طلب الطلاق، ونحن نتكفّل بما يلزم.

- وتحت أيّ عنوان؟

- زنا.

- هل جننت؟!

- لا، أبداً، ثِق بي! سأرتّب لك إثباتاً بالزنا لا مثيل له. لديّ خبرتي.

كانا قد صارا أمام بيت ميهاي. الذي لم يصدّق متى سيصعد إلى الغرفة.

- باركتك السماء، يا يانوش سبتنكي! لن أصافحك يداً بيد، ما نطقت به وصمة عار. آمل ألا أقابلك عما قريب.

وصعد سريعاً إلى غرفته.

- ٢ -

قال ڤالدهايم بحماس شديد: «لا أدري ما الأمر، لكني على يقين أن من الحماقة أن يخِزك ضميرك، ما زلت ابناً تقياً لأبيك «الأشيب» المحترم، وشخصاً برجوازياً ضيّق الأفق. إن رغبت أيُّ جهة أن تمنحك المال، عليك أن تقبله. وهذا ما تتفق معه كلّ اعتبارات تاريخ الأديان. لكنك لم تتعلّم بعد أن المال، بكلّ بساطة، ليس مهماً. إنه فقط غير مهمٍّ في حضرة الأمور الجوهرية. وحتى لو لم يكترث به هذا الشخص أو ذاك، فهو قائم وموجود بغضّ النظر عن مقداره، ومصدره، غير الجوهريين، شأنهما شأن أي شيء يتعلّق بالمال. لا تستطيع بالمال أن تحصل على شيء ذي قيمة، وكل ما يمكنك أن تكسبه بالمال حاجات عابرة عديمة الأهمية.

ما يستحقّ فعلاً الحياة من أجله، لا يقاس بنقودك. ولا يساوي قرشاً واحداً كل ما يستطيع فكرك أن يستوعبه من روائع لا حصر لها. لا يساوي قرشاً واحداً أنك في إيطاليا، وأن السماء الإيطالية فوقك، وأن بوسعك أن تتجوّل في الشوارع الإيطالية، وتجلس تحت أفياء الأشجار الإيطالية، لا يساوي قرشاً واحداً أنك تثير إعجاب امرأة، وتمنحك نفسها. لا يساوي قرشاً واحداً أنك سعيد أحياناً. لا يساوي مالاً إلا ما هو من حول السعادة، من إكسسوارات مملّة وسخيفة. لا يقدّر بالمال أنك في إيطاليا، ولكن ما يقدّر بالمال هو أن تتمكّن من السفر، وتنام تحت سقف. لا يقدّر بالمال أن المرأة عشيقتك، لكن ما يقدّر بالمال أنها ينبغي أن تأكل وتشرب خلال هذه العلاقة، وأنها ترتدي الملابس من أجل أن تخلعها وتتعرّى لك. لكن ضيّقي الأفق المتمدّنين يعيشون من خلال ما يزوّدونه لبعضهم من الأشياء المقدّرة بالمال، واضعين نصب أعينهم أن الأكثر جوهرية من بينها ما

بهظ ثمنه، غافلين عن سواها غير المقدّرة بالمال. لا، يا ميهاي، لا يجوز أن نشرك المال في حساباتنا. علينا أن نتقبّله كالهواء الذي يتنفّسه الإنسان من دون أن يسأل عن الجهة التي يجيء منها حين يكون بلا رائحة.

والآن، اذهب إلى الجحيم! عليّ اليوم أن أكتب محاضرتي لجامعة أوكسفورد. أما أريتك الرسالة التي دعيت بها إلى أوكسفورد؟ انتظر، حالاً... رائع ما كُتب فيها عني، أليس كذلك؟

طبعاً، إن قرأتها على عجل فإنها لا تقول شيئاً، ولكن إذا ما وضعت في اعتبارك أن الإنكليز يميلون إلى التكثيف، ويقولون أقلّ مما يدور في فكرهم، فإنك ستدرك ما معنى أن يكتبوا عن أعمالي إنها جديرة بالتقدير meritorious».

انطلق ميهاي سارحاً، متأملاً. يمّم شطر الجنوب بمحاذاة نهر التيبر، خارجاً من المدينة، إلى ماريما. نهض على حدود المدينة تلٌّ عجيب هو مونتي تستاتشو. صعد إليه. يسمّونه تل القرميد لكثرة الكسرات القرميدية فيه. كان هنا في العهود الرومانية سوق النبيذ، الذي كانوا يجلبونه من إسبانيا بدنانٍ قرميدية. تشقّقت هذه الدنان، فسكبوا النبيذ في زِقاق جلدية، وراكموا الكسرات فوق بعضها حتى نتج هذا التل.

التقط ميهاي بعض الكسرات القرميدية المائلة إلى الاحمرار، ودسّها في جيبه. فكّر: تحف.. قرميدات إمبراطورية حقيقية، لا ريب في أصالتها، وهو أمرٌ لا يمكننا قوله عن التحف كافةً.

على التل، لعب صبيان الرومان، المتحدرين من نسل Quirites(********)، «لعبة الحرب»، متراشقين بالكسرات القرميدية التي تعود إلى ألفي عام، من غير أي أثرٍ لعاطفة. هذه

هي إيطاليا. يتراشقون بالتاريخ، لأن آلاف السنين أمرٌ طبيعيّ عندهم كرائحة روث الحيوانات في القرية.

كانت الظلمة قد عمّت حين وقف أمام الحانة، التي قابل فيها سبتنكي الليلة الفائتة. اعتمر قبّعته اتّباعاً للعادة المحلية، ودخل الحانة العابقة بالدخان، وسرعان ما تناهى إلى سمعه صوت سبتنكي. كان منشغلاً بالفتاة كالعادة.

سأله ميهاي ضاحكاً: «ألا أزعجك؟».

- لا يُزعج سوى الشيطان. اجلس، أنتظرك بفارغ الصبر!

صُدم ميهاي، وأحسّ بالحياء، فقال: «رجاءً... أتيت فقط لتناول كأس نبيذ، وقصدت هذا المكان لإحساسي بأني سأراك».

- عزيزي ميهاي! لا داعي للكلام. سنعتبر القضية محلولة. ويسعدني ذلك، كما يسعد الأطراف كافةً. والآن أصغِ إلي. هذه الساحرة ڤانينا تجيد قراءة الكفّ. عرفت من أنا، وماذا أعمل، ورسمت لي صورة قريبة من حقيقتي. إنها المرأة الأولى التي لا تراني محتالاً. لكنها قرأت لي نهاية سيّئة، شيخوخة مضطربة مديدة. دعها الآن تقرأ لك كفّك! كلّي فضول لأعرف ما ستقوله عنك.

أحضروا مصباحاً، وشرعت الفتاة تتفحّص كفّ ميهاي. قالت: «أووه! السنيور رجلٌ سعيد الحظ، ستحصل على النقود من حيث لا تدري».

قال سبتنكي: «أرأيت؟».

- امرأة في الخارج تفكّر كثيراً بالسنيور. وهناك رجل أصلع أيضاً يفكر كثيراً بالسنيور. لكنّه أمرٌ غير حسن. خطّ اليد هذا يعني معركة حامية. يمكن للسنيور أن يعاشر النساء براحة بال، لن ينجب أطفالاً.

- ما معنى هذا؟

- لا يعني أنك عقيم، لكن لن يكون لك أطفال. لا وجود في كفّك لخطّ الأبوّة. لا تأكل المحار في الصيف. ستشارك في تعميد قريباً، رجل مسنّ سيأتيك من وراء الجبال. يزورك الأموات غالباً.

انتزع ميهاي يده وطلب نبيذاً. تمعّن في الفتاة. بدت اليوم بنحولها وضخامة نهديها أجمل بكثير من يوم أمس، وأكثر هيبةً، وأكثر امتهاناً للسحر من الساحرات. توهّجت عيناها بطريقة إيطالية فأظهرتا مزيداً من بياضهما، فخالجت ميهاي الفكرة التي دارت تلك الليلة في رأسه: هذا هو الشعب المجنون، وهذا هو سرّ عظمته.

التقطت الفتاة يد ميهاي، وتابعت التبصير، لكن، الآن، بعبوسٍ شديد: «ستتلقّى خبراً سيّئاً عمّا قريب. حذار من النساء! كلّ خطوبك مصدرها النساء. أووه! السنيور شخص طيّب جداً، لكنّك لا تصلح لهذا العالم. يا إلهي، ما أبأس السنيور!». ثم جذبت ميهاي إليها، وراحت تقبّله بكل ما لديها من قوة التقبيل، ودموع الإشفاق تنسكب من عينيها.

قهقه يانوش صارخاً: «براڤو!»، واضطرب ميهاي.

- تعال دائماً إلى هنا يا سنيورا! أجل، تعال دائماً. ستكون سعيداً هنا. ستأتي أليس كذلك؟ ستأتي؟!

- أجل، كيف لا؟! ما دمت تصرّين.

- ستأتي حقاً؟ ابنة عمي ستنجب طفلها عما قريب. طالما رغبت بعرّابٍ أجنبيّ للطفل. أمرٌ في غاية النبل. ألا تريد أن تكون عرّاباً للطفل الصغير؟

- قلبيّاً.

- عِدْهُ!

- أعده.

كان يانوش وغداً لبقاً. لم يتطرّق طوال الوقت لصفقات العمل. ولكنه حين تأخر الوقت، ورأى أن ميهاي يستعدّ للذهاب إلى البيت، صرف الفتاة وقال: «أرجوك يا ميهاي، رغبة السيد باتاكي أن تكتب له بخطّ يدك رسالةً مطوّلة بخصوص هذه القضية، تفيد بأنك تأذن له بأن يتقدّم باسمك بدعوى طلاقٍ ضد زوجتك، مقابل عشرين ألف دولار يسدّدها لك نقداً على دفعتين، بمعنى أن باتاكي لا يثق بي في ما أنقله عنك من أقوال. ومعه كلّ الحق. يريد أن يكون على اتصال شخصي بك. وحتى ذلك الوقت سأعطيك خمسة آلاف ليرة عربوناً».

عدّ النقود على الطاولة، فجعَدها ميهاي مرتبكاً ودسّها في جيبه. فكّر: هي ذي المسألة. هكذا يتم رمي النرد، هكذا يتم عبور روبيكون(********)، بكلّ سهولة، في خلسة عن انتباه المرء.

قال سبتنكي: «اكتب أرجوك لباتاكي أيضاً إنك استلمت مني النقود المرسلة، من دون ذكر المبلغ الإجمالي حتى لا تبدو وثيقة استلام، أو خطاب عمل. ليس من اللباقة...».

كان ميهاي على يقين أن سبتنكي «قصَّ» إلى جيبه مقداراً كبيراً من النقود المرسلة. قد يكون خمسين بالمائة. لا بأس، دعه يتكسَب!

قال يانوش: «إذاً، رافقتك السلامة! بهذا سأتكفّل أنا بتدبُّر الأمر، وسأسافر غداً. لكني سأمضي هذه الأمسية مع ڤانينا. يمكنني القول إنها امرأة رائعة، اقصدْها دوماً حتى لو لم أكن هنا».

- ٣ -

اشتد الحرّ. استيقظ ميهاي عارياً في السرير، لكنه عجز عن النوم. لم يحظَ بالسكينة منذ أن قبل نقود باتاكي، وخطّ تلك الرسالة.

نهض، اغتسل، ومضى يجول في الليل الصيفي. سرعان ما وصل أكوا باولا، وفتنه سقوط الماء الكلاسيكي الذي أنجز مهمته الماهرة بهدوءٍ أبديّ، وغطرسة وجدارة، في نور القمر. خطر له النحَات المجريّ الصغير الذي تعرّف عليه في كلية هنغاركوم عن طريق ڤالدهايم. جاء النحَات قاطعاً المسافة بين دريسدن وروما مشياً على الأقدام، سائراً عبر فلامينيا، متّبعاً الطريق التي تعلّم ميهاي في المدرسة الثانوية أنها كانت طريق الغرباء المنتصرين، الذين كانوا يأتون دوماً من جهة الشمال. وكان فور وصوله مساءً إلى جيانيكولو قد انتظر حتى خلت الحديقة من زوّارها، وأُغلق بابها، فقفز عن الجدار ونام في

أجمة معتلياً مدينة روما، التي أصبحت تحت قدميه. ونهض عند الفجر، وتعرّى من ثيابه، واستحمّ في حوض أكوا باولا، في المياه الكلاسيكية.

هكذا دخل الفاتحُ روما. قد لا يحصل شيء مع هذا النحّات الصغير، وقد يكون مصيره الجوع، ومن يدري ماذا بعد؟ ومع ذلك فهو فاتح لكن بلا جيوش. «حظاً طيّباً، ولا شيء آخر». إن درب الحياة دربٌ صاعد رغم كل شيء، حتى لو انتفت المسيرة الصاعدة. درب ميهاي تقود إلى الأسفل، إلى أن يصل إلى شيخوخته الضجرة الهادئة. جهات دروبنا كامنة في دواخلنا، وفي دواخلنا تشتعل النجوم أبداً مشيرة إلى مصيرنا.

طاف طويلاً في جيانيكولو على ضفة التيبر، وفي أزقة تراستيفر. كان الوقت متأخراً، لكن المرء إذا ما أمضى ليلة صيفية إيطالية صاحياً، مدندناً أغنية خطرت له -هذا الشعب لا يعرف نعاس البشر الشماليين، ولا فترة دوخانهم المقدسة- فإنه سيتعثر على الدوام بأولاد يلعبون الدحل في الشوارع حتى بين الثالثة والرابعة فجراً، أو يشاهد حلّاقاً يفتح دكانه، ليؤمّه بعض الشبّان المرحين لحلاقة ذقونهم.

كانت تسبح على صفحة مياه التيبر سفنٌ تعبر ببطء ومهابة كلاسيكية إلى جهة أوستيا، لم تكن سفناً، بل صوراً من كتاب اللغة اللاتينية في الثانوية تعبّر عن كلمة Navis. كان على السفينة رجلٌ يعزف على الغيتار، وامرأة تغسل الجوارب، وكلب ينبح، وتتبعها سفينة أخرى هي السفينة الشبح، جزيرة التيبر التي شكّلها القدماء على هيئة سفينة ضخمة، لأنهم لم يثقوا في ثباتها، معتقدين أنها ربما ستذهب ذات مرة في رحلة بحرية في أثناء الليل، وعلى متنها المستشفى والمحتضرون.

تلامع القمر على الضفة الأخرى فوق أنقاض مسرح مارسيللو الهائلة والمحزنة، وخرج من الكنيس المجاور -هكذا بدا لميهاي- حشدٌ كبير من اليهود القدماء بلحىً طويلة وأغطية الأموات، متجهين إلى ضفة التيبر، ليقذفوا بذنوبهم في النهر وهم يطلقون عويلاً خافتاً. حلَقت في الهواء ثلاث طائرات تبدو جوانبها مُضاءة، ثم طارت باتجاه القلاع الرومانية كأنها طيور عملاقة لتستريح على قمم الصخور.

وصلت شاحنةٌ ضخمة هادرة. «هذا هو الفجر» فكّر ميهاي. وبسرعةٍ مخيفة قفز من السيارة أشخاصٌ بثياب رمادية غامقة، ودخلوا في طريق فُتح أمامهم، ثم سمع صوت جرس، ونَهَرَ راعٍ صبيّ بقرةً ڤيرجيلية عجيبة.

فُتح الآن باب حانة، وتقدّم منه عاملان، وطلبا منه أن يطلب لهما كأسين من النبيذ الأحمر، ويحكي لهما قصة حياته. أوصى ميهاي على كأسي نبيذ، إضافة إلى بعض الجبن، لكنه لم يحدّثهما عنه لصعوبات لغوية، مع أنه قد استلطفهما أشدَ الاستلطاف، وقد شعرا بوحدته، وفتحا له قلبيهما، وقالا كلاماً طيباً، من الخسارة أنه لم يفهمه. لكنه سرعان ما أخذ يخشاهما، فسدّد الحساب ومضى.

كان في حيّ تراستيڤر. اكتظّ قلبه مجدداً بصور الموت العنيف، كما حصل له في عمر المراهقة، حين كانوا «يمثّلون» في منزل أولبيوش. كم كان عبثياً التحدّث مع هذين العاملين. كان من الوارد أن يقوما بقتله، ورميه في الدانوب، في التيبر من أجل فورنتاته(*********) الثلاثين. ها هو ذا يتجوّل في هذا الحيّ الشيطاني، حيث يمكن، تحت أيّ من القناطر، أن يتعرض للضرب ثلاث مرات قبل أن يستطيع فتح فمه. ما هذا الجنون؟

ما هذا الجنون أن يكمن في روحه ما يجذبه ويمضي به نحو الموت، والجريمة؟!

وقف أمام المنزل حيث تسكن ڤانينا. كان منزلاً مظلماً، منزلاً إيطالياً ذا سقف من الصفيح ونوافذ مقوّسة. من يسكنه يا ترى؟ أيّ مجرمين يقطنون مثل هذا البيت المظلم؟ أيّ أفعال شنيعة ستحصل إذا ما دخل إليه؟ ڤانينا يا ترى... أجل. ليس من العبث أن قامت ڤانينا بدعوته في المرة الماضية. عرف أنها حصلت من سبتنكي على كثيرٍ من المال. كلّ خطّابها زُجّوا في السجن... أجل، ڤانينا تفعلها.

ظلّ واقفاً مدة طويلة أمام الباب مستغرقاً في أوهامه المريضة، ثم ما لبث أن شعر بالإرهاق، واعتراه ذلك الحنين الذي رافقه في دروبه في إيطاليا من محطة إلى أخرى. لكن إرهاقه ناداه قائلاً: إنك على مقربة من المحطة الأخيرة.

- ٤ -

في اليوم التالي استلم ميهاي رسالة. خطّ الكتابة معروف، معروف جداً، لكنه لم يدرِ من يكون صاحبه. أحسّ أن من العار ألا يعرفه. أرجي هي من كتبت الرسالة. أخبرته فيها أنها جاءت إلى روما، وهي راغبة في الحديث معه لأمرٍ في غاية الأهمية. لا بدّ أن الأمر يخصّه، فهو يعرفها لدرجة أن موضوعها ليس بدافع النزوة الأنثوية، إذ تمنعها كبرياؤها من التقرّب من ميهاي، إن لم يكن دفاعاً عن مصلحة ميهاي في قضية شديدة الخطورة. ولهذا ترجوه أن يقصدها عند العصر في الفندق.

كان ميهاي حائراً، وخشي من مقابلة أرجي، لعدم تخمينه ما الذي تريده منه. لكنه في النهاية عزم على لقائها، بعد أن غلب عليه إحساسه بأن من المعيب أن يسبّب لها إهانات إضافية بعد كلّ ما سبّبه لها من أذيّة. تناول قبّعته الجديدة التي ابتاعها من النقود التي قبضها من باتاكي، وأسرع إلى الفندق حيث تنزل أرجي.

أعلمها بقدومه، فنزلت إليه خلال فترة قصيرة، وحيّته من دون أن تبتسم. كان انطباع ميهاي الأولي أن هذا اللقاء لا ينتظر منه الكثير من الأمور الحسنة. رفعت أرجي حاجبيها مثلما تفعل حين تكون غاضبة، وأبقتهما على هذه الحال. كانت جميلة، فارعة، أنيقة بكلّيتها، لكنها ملاك تقدح الشرار... سارا معاً صامتين، بعد أن أنهيا بإيجاز تساؤلاتهما المتعلّقة بالسفر والصحة.

سأل ميهاي: «أين نذهب؟».

- سيّان عندي. الحرّ شديد. دعنا نجلس ونتناول البوظة.

خفّفت البوظة عنهما، وعادا إلى الموضوع.

قالت أرجي باندفاعة كظيمة: «ميهاي! أعرف أنك كسول، ولا تعرف شيئاً عما يحدث في العالم، لكني كنت أعتقد أن ثمة حدوداً لحماقاتك».

- بداية جيدة - قال ميهاي. لكنه شعر بشيءٍ من السرور لأن أرجي تكتفي بوصفه مخبولاً، وليس وغداً. محقّة.

- كيف كتبت ذلك؟

سألت أرجي، ووضعت على الطاولة الرسالة التي كتبها ميهاي لباتاكي بطلب من سبتنكي.

احمرَ ميهاي، ومن شدَة خجله بات مرهقاً إلى حدَ أنه لم يقوَ على الكلام.

صرخت أرجي، الملاك التي تقدح الشرر: «انطق!».

قال ميهاي منكمشاً: «ماذا سأنطق، يا أرجي؟ أنت ذكيّة وتعرفين لماذا كتبتها. لا تقولي إنك جئت إلى روما في هذا الحرَ الشديد لتقولي هذا!».

قالت أرجي متوترة: «شيطان أم قوّاد.. أتمنّى لو كنت أحدهما. لكنك لست سوى مجنون».

سكتت، وقالت لنفسها: «لا يحقَ لي أن أكلّمه بهذه النبرة الصارخة، فلم أعد زوجته». وبعد قليل تكلّم ميهاي قائلاً:

- قولي يا أرجي، كيف وصلت إليك هذه الرسالة؟

- كيف؟ ما زلت لا تستوعب كل ما يجري؟ أوقعا بك. يانوش سبتنكي، وذلك التافه زولتان. كل ما أراداه أن تكتب فشلك بخطّ يدك. ثم أرسلها إليّ على الفور، بعد أن صدَق صورة عنها لدى كاتب العدل، واحتفظ بالصورة.

- زولتان؟ زولتان يفعل مثل هذا، يصدَق عند كاتب العدل... مثل هذه القضايا المظلمة، التي لا تخطر لي على الإطلاق، مثل هذه القذارات الخيالية؟ لا أفهم.

قالت أرجي بلهجة أكثر وداعة: «طبعاً لا تفهم. لست قوّاداً، لكنّك غبيّ، وزولتان، للأسف، يعرف هذا عنك».

- لكنه كتب لي رسالة لطيفة.

- أجل، زولتان شخص طيّب، لكنه ذكيّ، وأنت لست طيّباً، ولكنك غبيّ.

- لكن لمَ يفعل كل ذلك؟

- لمَ؟ لأنه يريد أن أعود إليه. يريد أن يثبت لي مدى صبيانيّتك. لكنه لم يضع في حسبانه أنني أعرف فيك هذه الخصلة قبل أن يعرفها بكثير، كما أعرف أيضاً مدى الوضاعة الكامنة وراء طيبته، وتشبّثه الحنون. وإن كان لا يريد إلا أن يسترجعني، فقد باء بالفشل، وانقلب الأمر عليه. لكن المسألة تتعدّى ذلك.

- تكلّمي!

- اسمعني! -أشارت تعابير وجه أرجي إلى الذعر- زولتان يريد أن يقتلك، أن يمحوك عن وجه الأرض.

- يده وما تطول! لكن كيف تتصوّرين الأمر؟

- انظر يا ميهاي، لا أعرف بدقّة لأني لست ماكرة مثل زولتان. لكني أخمّن. أول ما سيقوم به أن يفسد علاقتك بعائلتك. وهو أمر لن يكون شاقاً، مرحلياً على الأقل. لك أن تتصوّر وجه أبيك حين تصل إليه الرسالة، وربما وصلته.

- أبي؟ أتظنين أنه سيُريه الرسالة؟

- بل أكيدة من ذلك.

أصيب ميهاي بالذعر. رهبة مراهق من أبيه. خشية قديمة من فقدان الحنان الأبوي. وضع كأس النبيذ، وقبض على رأسه. عذرته أرجي لمعرفتها ما يحفّزه، ويؤثّر فيه. لا يملك المقدرة على النقاش أمام أبيه.

تابعت أرجي: «ويأتي بعدها دور فضيحتك في بودابست. سوف يبثّ أخباراً عنك فلا تعود تجرؤ على السير في الشارع. صحيح أن ما أردتَ أن ترتكبه من عار، ليس نادراً في بودابست، لكن زولتان سيتدبّر الأمر مع الصحافة ويسعى لتشويهك فلا يعود بإمكانك الظهور في الشارع، فتكون أنت مضطرّاً للبقاء خارج البلد، ولن يكون بوسع عائلتك أن تقدّم لك العون، لأن زولتان سيبذل أقصى جهوده للقضاء على مؤسسة والدك».

- أرجي!

- أجل. سيجد، على سبيل المثال، طريقة لإرغامي على استرجاع نقودي من الشركة، في حال انتشر خبرك في المدينة، فأضطرّ للقيام بذلك، وسيتقبّل والدك الفكرة، بإرادة منه.

لزما الصمت طويلاً.

قال ميهاي: «لو أني أعرف لمَ يكنّ لي هذا القدر الكبير من الكراهية؟ مع أنه في البداية أظهر كثيراً من التفهّم والسماحة غير الطبيعيين».

- غير الطبيعيين فعلاً. كم من الاستياء كان يخفي وراء طيبته، وكم من الكراهية كمنت في هذه السماحة! كان يدرك أنه سيلتزم جانب الصفح حتى تحين الفرصة للانتقام. كوحشٍ جارح تربّى على الحليب بصغره، وما إن اشتدّ عوده حتى صار يطلب اللحم.

- عهدته رخواً، مخاطياً على الدوام.

- وأنا كذلك. لكني أقول لك إنه شخص...

ولزما الصمت مجدداً.

- لكن أخبِريني! لا بدّ أن لديك خطة لما عليّ أن أفعله، أتيت من أجلها إلى روما.

- أردت أولاً أن أحذّرك. يظنّ زولتان أن بوسعه الاستمرار في الإيقاع بك في هذه المزالق. سيطرح عليك وظيفةً مهمّة، يغريك بالعودة إلى بودابست. بحيث تكون هناك حين تنتشر الفضيحة، فالزم مكانك الآن هنا. وأردت أيضاً أن أحذّرك من أحد أصدقائك. تعرفه.

- سبتنكي.

- أجل.

- كيف التقيته في باريس؟

- ضمن مجموعة.

- وهل قابلته كثيراً من المرات؟

- أجل، كثيراً. تعرّف عليه زولتان من خلالي.

- وكيف وجدت سبتنكي؟ شخص مختلف، أليس كذلك؟

- أجل شخص مختلف كلياً.

قالت ذلك بشيء من الأسف، والحزن، أذهل ميهاي، وساورته الظنون.

- شكراً لك يا أرجي أنك حذّرتني. أنت طيّبة معي ولا أدري ما إن كنت أستحقّ ذلك منك. لا أستطيع أن أتصوّر أنك يوماً ستنقلبين عليّ، كما فعل باتاكي زولتان.

قالت أرجي بكامل الجدية: «لا أظن ذلك. لا أشعر بشيء من النقمة عليك. ولا سبب يدعوني لذلك، على أي حال».

- أرى أنك تريدين قول شيء بعد. ماذا عليّ أن أفعل بعد؟

- عليّ أن أحذّرك من شيء آخر بعد، لكنه أمر مؤلم جداً، فقد تسيء فهمي وتظنّني أتصرّف هكذا من باب الغيرة.

- الغيرة؟ لست متزمّتاً لهذا الحد. أدرك أنني قامرت بكل أوراقي التي تجعلك غيورة عليّ.

كان في قرارة نفسه موقناً أن أرجي ليست في موقع الحياد، وإلا لما جاءت إلى روما، ولكنه شعر أن شيم الرجولة تتطلب منه ألا يفطن إلى أن أرجي ما زالت تميل إليه. حتى راحة الرجل تتطلّب هذا.

قالت أرجي متوترة: «لندع أحاسيسي جانباً، لا علاقة لها بالموضوع. ماذا أقول... انظر يا ميهاي، أنا أعرف جيداً من أجل مَنْ أنت في روما. سبتنكي قال لي. كتبت له المعنيّة أنكما قد رأى كلٌّ منكما الآخر».

أطرق ميهاي. شعر كم يؤلم أرجي أنه يحب إيڤا. لكن ما العمل؟

- أجل يا أرجي. حسناً أنك تعرفين. حكيت لك في راڤينا كل ما يمكن أن يُعرف عني. كل شيء كما ينبغي أن يكون. لكن من دون أن يسوءك.

- رجاءً. دعنا من هذا. لن أنبس بحرف واحد أنه يسوءني. المسألة ليست هنا، حقاً... أتدري من هي تلك المرأة؟ وكيف عاشت الحياة إلى الآن؟

- لا أدري، ولم أحاول.

- ميهاي! طالما أثار برودك استغرابي. لكني لم أعهد أحداً مغرماً بامرأة، ولا يتابع أخبارها ليعرف من تكون!

- لأنه لا يهمّني سوى من كانت في منزل أولبيوش.

- لعلك لا تعرف أنها لن تبقى هنا طويلاً؟ أقامت علاقة مع شابّ إنكليزي سيصحبها معه إلى الهند. سيسافران خلال أيام.

- ليس صحيحاً.

- بل صحيح.

وأخرجت رسالة أخرى من حقيبتها. كانت بخط إيڤا. تخاطب سبتنكي، وتذكر له باختصار استعداداها للرحيل إلى الهند، ولا تنوي بعدها العودة إلى أوروبا.

- ألمْ تعرف حتى هذا الأمر؟

- فزتِ عليّ.

قال ميهاي. نهض وسدّد الحساب، وخرج. حتى أنه نسي قبّعته هناك.

أحسّ بدوارٍ عنيف، وترنّح لبعض الوقت، ضاغطاً يده على قلبه. ولم يفطن إلا بعد دقائق أن أرجي تتبعه بقبّعته.

باتت أرجي أحداً آخر تماماً. وديعة، مذعورة، امتلأت عيناها بالدموع. كم من المؤثر أن تسير إلى جانبه امرأة جليلة فارعة والقبعة بيدها، وفي موقف طفولي كهذا. ابتسم ميهاي وأخذ القبعة.

«شكراً!»، قال وقبّل يدها، فكان منها أن مسحت على وجهه مستحيية.

قال ميهاي متنهداً: «إن لم تخبّئ حقيبتك رسائل أخرى، دعينا نتناول طعام العشاء».

أقلّا من الكلام خلال العشاء، ولكن بجوّ من الوداعة والحميمية. كانت أرجي ملأى بمشاعر العزاء والسلوى. أما ميهاي فقد خفّفت من وجعه كمية النبيذ الكبيرة التي اجترعها لألمه. شعر بمقدار ما تكنّ له أرجي من حبّ، وكم سيتولد بينهما من الوئام

والسعادة لو يستطيع أن يبادلها الحب، ويتمكّن من التخلص من الماضي والموتى. لكنه أدرك استحالة ذلك.

- أرجي! أنا في أعماق قلبي بريء، ولا ذنب لي في ما يخصّ علاقتنا. صحيح أنه قول يسير، لكنك تدركين أنني، عبر سنوات، قد بذلت كلّ ما بوسعي للتوافق والوئام، وحين ظننت أن كل شيء بات على ما يرام، وأنني أجريت مصالحة مع العالم، اتخذتك زوجة مكافأة لنفسي. ولكن سرعان ما ركبتني كلّ الشياطين، ودهمتني فترة الشباب، وكل الحنين، والتمرد. لا علاج للحنين. قد يكون من غير المناسب أنني جئت إلى إيطاليا. هذا بلد أقامه الملوك والشعراء من عناصر الحنين. إيطاليا جنّة الأرض، لكن فقط على النحو الذي رآه دانتي. جنة الأرض ليست سوى محطة عابرة على قمة جبل المطهر، ليست سوى مطار للعالم الآخر، تنطلق منه الأرواح نحو مدارات السماء النائية، حين تخلع بياتريس وشاحها، وحين الروح «تشعر بسلطان الرغبة القديمة...».

- أووه! ميهاي، العالم لا يحتمل أن يستسلم المرء لحنينه.

- لا يحتمل. العالم لا يحتمل أي انحراف عن نظامه، ولا أي فرارٍ أو تحدٍّ، وعاجلاً أو آجلاً سيطلق على الإنسان نيران الـ«زولتان»ـات.

- وماذا تريد أن تفعل؟

- لا أدري. ما مشاريعك يا أرجي؟

- سأعود إلى باريس. والآن وقد تكلّمنا في كلّ شيء، أظن أن الآوان قد حان لأذهب إلى البيت. سأنطلق عند الفجر.

سدّد ميهاي الحساب، ورافق أرجي إلى البيت. قال لها خلال الطريق:

- أودّ لو أعرف ما إن كان ذلك يشعرك بالراحة. قولي شيئاً يواسيني!

قالت أرجي، وكانت ابتسامتها الآن مترفعة حقاً، وراضية:

- لا يسوءني الأمر كثيراً كما تظن أنت.. حياتي الآن كاملة حقاً، ومن يدري أي أمور عظيمة تنتظرني. في باريس، وجدت نفسي إلى حدّ ما، وعثرت على ما بحثت عنه في العالم. ولكن ما يؤسفني حقاً، أن تبقى أنت خارج الحياة.

توقفا أمام فندق أرجي. وبنظرةٍ وداعية تمعنَ ميهاي مرة أخرى في وجه أرجي. أجل، لقد تغيّرت أرجي كثيراً. ولكن من يدري إن كان تغيُّراً نحو الأحسن، أو نحو الأسوأ. لم تبدُ حضوراً ناعماً كما في السابق، شيء ما قد تحطّم في داخلها، فبدت كسيرةً كما عبّرت عن ذلك ملابسها، وتبهرجها على الطريقة الباريسية. باتت أرجي أكثر «عاديّة» وأن ثمة على نحو ما رجلاً غريباً حولها، وأنها الآن ملكٌ للرجل الغريب الغامض الجدير بالحسد. لعل غريمه هو يانوش سبتنكي، هذا الشيء الجديد في المرأة القديمة التي يعرفها، كان جذاباً ومقلقاً.

- ماذا ستفعل الآن يا ميهاي؟

- لا أدري. لا أملك الرغبة للذهاب إلى البيت لألف سبب وسبب، كما لا أملك الرغبة للبقاء وحيداً.

رمق كلٌّ منهما الآخر بتلك النظرة المتواطئة التي شكّلتها سنة كاملة أمضياها معاً، ومن دون أن يتكلّما شيئاً، صعدا مسرعَين إلى غرفة أرجي. ودهم كلٌّ منهما ذلك الشغف الذي شدّ اللحمة بينهما حين كانت أرجي ما تزال زوجته، ومع ذلك حاول كلاهما أن يقاوم رغبته في الآخر، لكن الرغبة كانت أكثر عنفاً، حتى أن مقاومتهما لها جعلتها أكثر وحشية. إن ما حصل بينهما، والجروح التي بدت غير مندملة، وسّعت المسافة بينهما، وفرّقتهما بمنتهى البشاعة، لكن الشغف الذي بات الآن أشدّ بأساً وقوةً قذف بأحدهما بين ذراعي الآخر. وبمتعةٍ هائلة اكتشف ميهاي مجدّداً جسد أرجي، وتاق إليه بصفته جسداً، أكثر من أجساد النساء كافة. اشتهى وداعة أرجي، ووحشية أرجي، وكائنها الحيّ طوال هذه الليلة الذي لا يشبه بشيء كائن أرجي التي عهدها في وضح النهار. اشتهى أرجي الشغوف، العاشقة، المتمرّسة بحبّه. فيما كان جلّ اهتمام أرجي أن تجرّد ميهاي قدر الإمكان من بلادة لا مبالاته التي يمضي بها معظم أيامه.

استرخيا، وتبادلا نظرات السعادة، بعيونٍ مندهشة راضية بان عليها التعب. وطفا الآن منجلياً على صفحة الوعي، ما حصل بينهما، فانفجرت أرجي ضاحكة:

- ما كنت تتوقع هذا صباح اليوم، أليس كذلك؟

- أنا لا، وأنت؟

- ولا أنا. بل لا أدري. أتيت إليك ولا مانع عندي أن يحصل ذلك.

- أرجي.. أنت الأفضل في الكون!

حقاً، هذا ما دار في خلد ميهاي. أذهلته حرارة المرأة التي تدفّقت نحوه منها، كان ممتنّاً وسعيداً سعادة طفل.

- أجل يا ميهاي. عليّ أن أكون طيّبة معك على الدوام. لديّ إحساس بأنه لا يجوز لي أن أجرحك.

- قولي... ألا ينبغي علينا أن نجرّب زواجنا مرة أخرى؟

تجهّمت أرجي. كانت تترقّب مثل هذا السؤال، وقد رغب فيه أيضاً غرورها الشهواني بعد هذه المعاشرة، لكن هل يمكن الحديث عن الزواج واقعياً؟ تردّدت طويلاً ورمقت ميهاي بنظراتٍ متفحّصة.

قال ميهاي:

- عليّ أن أجرّب مرة أخرى. جسدانا متوائمان إلى حدٍّ كبير. وعلى العموم، الجسد على حقّ. صوت الطبيعة، ما رأيك؟! ما أفسدناه بأرواحنا، تصلحه أجسادنا. علينا أن نجرّب حياتنا مرة أخرى.

- لمَ تركتني هناك، إن كان... إن كان الأمر هكذا؟

- الحنين، يا أرجي، لكنّي الآن كأنني تحرّرت من ربقة سحرٍ ما. صحيح، أنني أحببت أن أكون عبداً، ومدانّاً، لكني أشعر الآن أنني طبيعيّ وقويّ. عليّ أن أظلّ معك، هذا مؤكّد. لكنها أنانية منّي. والسؤال هو ما الأفضل بالنسبة إليك؟

- لا أدري يا ميهاي. أنا أحبّك أكثر بكثير مما تحبّني. وأخشى أن تسبّب لي الكثير من المعاناة، و... لا أدري، ما حالك مع تلك المرأة؟

- مع إيڤا؟ أتظنّين أنني تحدّثت معها؟ فقط أشتاق إليها. مرضٌ نفسيّ. سأشفى منها.

- اشفَ منها أولاً، وبعد ذلك نتكلّم.

- حسناً. سترين أننا سنتكلّم عما قريب. نامي بهناء، يا حلوتي، يا حلوة!

ظلّ ميهاي ساهراً طوال الليل. كان يمدّ يده لإيڤا، ولم يدرك أنها يد أرجي إلا حين أمسك اليد المستلقية فوق الغطاء، فتركها وقد عذّبه ضميره أيّما تعذيب. عندئذٍ فكّر بامتعاض وحزن وإرهاق أن إيڤا مختلفة تماماً. أما أرجي فيشدّه إليها الرغبة الجامحة بين فترة وأخرى، لكنها سرعان ما تُشبع، ولا يبقى شيء بعدها، إلا الأخذ بالأفعال الموزونة المضجرة. أرجي شهيّة، وطيّبة، وذكيّة، وكل شيء، لكنها تفتقد إلى السرّ.

أمرٌ منتهٍ. كانت أرجي آخر العلاقات مع عالم البشر. وبقي الآن مَنْ لا يوجد: إيڤا، إيڤا... ولاحقاً، إذا ما رحلت إيڤا، يبقى الدمار.

أما أرجي فقد استيقظت عند الفجر، وفكّرت: ميهاي لم يتغيّر، أما أنا فتغيّرت. في ما سبق كان ميهاي يعني لي المغامرة، التمرّد، الغريب، الغامض. صرت أعرف الآن أن سلبيّة ميهاي فقط هي التي تتركه عرضة لقوى غريبة. هو ليس نمراً. أو على الأقل هناك من هم أكثر منه فرادة: سبتنكي، وأولئك الذين لا أعرفهم بعد. رغبة ميهاي بي ناجمة عن بحثه فيّ عن الانتظام المدني، عن الأمان، عن كلّ ما هربت منه لاجئة إليه. لا، لا معنى لكل ذلك، فقد شفيت من ميهاي.

نهضت، واغتسلت، وبدأت ترتدي ثيابها. واستيقظ ميهاي أيضاً، وبطريقةٍ ما، ألمَ بالحالة على الفور. فارتدى ملابسه، وتناولا طعام الفطور صامتين. رافق ميهاي أرجي إلى محطة القطار، ولوَح وراء المسافرة. عرف كلاهما أن كلّ شيء بينهما انتهى الآن.

- ٥ -

مرت أيام رهيبة بعد رحيل أرجي. وبعد فترة قصيرة سافر ڤالدهايم إلى أوكسفورد، فبقي ميهاي يعاني من الوحدة التامة. فقدَ رغبته في أيّ شيء، ولم يغادر البيت، وظلَّ مستلقياً في فراشه طوال النهار.

ما تضمنته أنباء أرجي من وقائع حقيقية، تسلّل كالسمّ الزُّعاف إلى جسده، وفكّر بمزيد من القلق في أبيه الذي أوقعه سلوكه وأزمته المالية الشديدة في حالة نفسية قاهرة.

امتثل أمام عينيه الرجل العجوز، وقد جلس محبطاً على رأس مائدة عشاء العائلة، يفتل شاربيه، ويفرك ركبتيه من فرط كآبته، متظاهراً بعدم وجود ما يؤرقه، فيلحق بتصنّعه المعاند هذا مزيداً من الكدر على وجوه البقيّة، فلا يستجيبون لفكاهاته، ويلزمون الصمت تباعاً، وكلٌّ منهم يسابق الآخر في إنهاء عشائه، بغية الهروب قبل غيره من جهامة اللمّة العائلية المنغّصة.

وما إن يفلح في محاولاته نسيان أبيه حتى تخطر له إيڤا، ورحيلها الأبدي إلى أماكن نائية لا سبيل لارتيادها. وما ينغّصه أكثر أن إيڤا لا تريد حتى أن تعرف عنه شيئاً. تظلّ الحياة

محتملة إذا ما عرف المرء أنها تسكن في مدينة يقيم فيها، ويبقى احتمال لقائها عن طريق المصادفة قائماً، أو احتمال رؤيتها من بعيد. لكنها إن رحلت إلى الهند، فقد انتهى كلّ شيء بالنسبة لميهاي.

وفي عصر أحد الأيام وصلته رسالة من فوليغنو كتبها أليسلي.

« عزيزي مايك،

عليّ أن أفيدك بخبرٍ جدّ حزين. الأب سڤرينوس راهب غوبيو يعاني مرضاً شديداً. وهو الآن في ذلك المستشفى بعد أن تعذّر بقاؤه في الدير. تحدّثت معه، ودخلت إلى عالمه النفسي المذهل. شخص كهذا، كما أظن، لو عاش في قرون قديمة، لنصّبوه قديساً. تكلّم عنك بلهجة تكنّ لك كثيراً من المحبة. عرفت منه -وكم هي مدهشة طرق العناية الإلهية- أنكما كنتما صديقين حميمين في الطفولة، وأحبّ كلٌّ منكما الآخر طوال الوقت. طلب إليّ أن أكلّمك إذا ما فارق الحياة. وها أنذا أستجيب لطلبه بعد أن توفّي ليلة أمس. ظلّ يذكرك حتى اللحظة الأخيرة. ولم ينقطع عن الصلاة برفقة زملائه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

عزيزي مايك. إن كنت تؤمن مثلي بالحياة الأبدية، فتقبّل هذا الخبر بهدوء وطمأنينة، لأني على ثقة أن صديقك الآن في المكان الذي تكتمل فيه الحياة الأرضية المجزأة بنتمتها المستحقة: أبدية الحياة.

لا تنسني نهائياً. اكتب أحياناً!

نصيرك: أليسلي.

أمر آخر: استلمت أنغرام ميليسنت النقود. ورأت أن اعتذاراتك مضحكة بين الأصدقاء. تبعث لك بتحياتها، وتتذكّرك بمحبّة. بالمناسبة صارت خطيبتي».

كان يوماً شديد الحرّ. تجوّل ميهاي دائخاً في حديقة بورغيسي. خلد إلى الفراش قبل الأوان، ونام مرهقاً، لكنّه سرعان ما استيقظ.

في حلم يقظته امتثلت أمامه منطقة وعرة. كان مشهداً مألوفاً بالنسبة له. تأمّل، وهو في حلم اليقظة، من أين له أن يعرف هذا الوادي الضيّق، هذه الأشجار المثارة، هذا الخراب المحدّد الطابع. لعلّه لمحها خلال سفره بالقطار في تلك المنطقة الرائعة بين بولونيا، وفلورنسا، أو خلال تجواله في سبوليتو، أو في لوحة لسلفاتور روسا في أحد المتاحف. كان للمنظر جوّه التشاؤمي الموحي بالهلاك. كما أوحت بالهلاك تلك الهيئة الضئيلة، ذلك المسافر الذي عبر المشهد معتمداً على عصاه، تحت نور القمر. عرف أن المسافر يمضي منذ زمن بعيدٍ بعيد عابراً مناطق مهجورة أكثر فأكثر كلّما تقدّم، تحت الخراب والأشجار المثارة، ترهبه العواصف والذئاب، ولا أحد سواه في هذا الترحال الأعزل، في هذه الوحدة.

رنّ الجرس. أشعل ميهاي المصباح، ونظر إلى ساعته. بعد منتصف الليل. من يكون هذا؟ من المؤكد أن أحداً لم يقرع الجرس. استدار على جنبه الآخر. رنّ الجرس ثانيةً. نهض مثاراً، وضع عليه شيئاً وخرج.

كانت إيفا تقف في الباب.

ولشدّة ارتباكه نسي ميهاي أن يلقي التحية.

هذه طبيعة الأحوال. إذا ما تاق المرء، يظلّ عبثاً يبحث عمّن تاق إليه ويلاحقه بهوس حتى الهلاك على تخوم الموت والجحيم، إلى أن تفنى حياته شوقاً وحنيناً. منذ أن قدم إلى روما، وهو على الدوام يترقّب هذه اللحظة، ويتهيّأ لها، حتى امتلأ يقيناً بأنه لن يعثر على إيڤا ولن يلتقيها. وفجأة تظهر، وعندئذٍ يحاول المرء أن يشدّ بيجامة نومه الرخيصة على صدره، خجلاً بشدّة من مسكنه، ومن ذقنه غير الحليقة، متمنّياً لو لم يكن أمامه الآن من تاق إليه بكلّ جوارحه.

لكن إيڤا لم تكترث بكل ذلك. ولجت إلى غرفة ميهاي بلا كلام، ولا تحيّة، وجلست على كرسي، وحدّقت أمامها بثبات.

تبعها ميهاي.

لم تتغيّر إيڤا. يحافظ الحب حتى النهاية على لحظة. على تلك اللحظة التي وُلد فيها. والمحبوب لا يشيخ أبداً ويبقى في عيون محبّيه في السابعة عشرة من العمر، ويبقى شعره الأشعث، وملابسه الصيفية الخفيفة ترفرف بفعل النسائم اللطيفة التي تظلّ تهبّ عليها مدى الحياة، كهبوبها الأول في تلك اللحظة المصيرية.

ارتبك ميهاي فلم يعرف إلا أن يبادرها بالسؤال:

- من أين حصلت على عنواني؟

هزّت إيڤا رأسها متوترة.

- تلفنت لأخيك في بودابست. مات أرفين يا ميهاي.

- أعرف.

- كيف عرفت؟

- كتب لي أليسلي، الدكتور الذي قال لي إنه قابلك يوماً في غوبيو، في المنزل الذي كانت فيه بوابات الموتى مفتوحة.

- أجل، أذكر.

- هو من أشرف على العناية بأرفين في ساعاته الأخيرة، في مشفى فوليغنو. هاك الرسالة!

قرأتها إيفا، وسرحت متأملة. ثم قالت بعدئذ:

- أتذكر معطفه الرمادي الضخم، وكيف كان يرفع ياقته ويسير مطأطئ الرأس؟!

- كان يمشي ورأسه في الأمام، وهو يتبع رأسه كالثعابين الضخمة التي تدفع برؤوسها إلى الأمام وتزحف وراءه أجسامها... كم كان يدخّن! كان يستهلك كل السجائر التي أضعها أمامه.

- وكم كان لذيذاً إن كان رائق المزاج، أو شرب...

غاب الأب سقرينوس، الشاب الفريد، والصديق الوفي، وأجمل ذكريات الشباب.

- كنت أعرف أنه مريض جداً، وحاولت أن أقنعه بأن يعالج نفسه. أتظنّين أنه كان يتحتّم عليّ أن أشدّد عليه، ولا أنقطع عن محاولاتي إقناعه؟ ربما كان عليّ أن أبقى في غوبيو، ولا أغادرها حتى أتدبّر مسألة علاجه.

- أظن أن الأب سڤرينوس لم يكن ليتقبّل رعايتنا، أو حناننا، أو قلقنا عليه. لم يعنِ المرض بالنسبة له مثلما يعني لغيره من البشر، المرض عنده ليس صدمة موجعة، لكنه هديّة، ونعمة. ما أدرانا نحن بهذا؟ كم كان من اليسير له أن يموت!

- كان الموت روتينه الدائم في السنوات الأخيرة، فلم ينشغل بسواه.

- ومع ذلك، من المحتمل أن الموت كان فظيعاً بالنسبة إليه. قلّة قليلة من الأشخاص مَنْ لا يموتون مع موتهم... تاماش أحدهم.

انعكس ضوء مظلّة المصباح برتقالياً على وجه إيڤا، فبدا أكثر من ذي قبل ذلك الوجه الذي ميّز إيڤا في منزل أولبيوش حين... حين كانوا يمثّلون، وكان تاماش، وميهاي يموتان من أجلها. فأي فانتازيا أو ذكرى تثيرها فيه الآن؟ ضغط ميهاي على قلبه المتوجع الخافق، وسرت في رأسه آلاف الأشياء: ذكرى المتعة المريضة لمسرحياتهم القديمة، والتماثيل الأتروسكانية في ڤيلا جوليا، محاضرات ڤالدهايم له، الرغبة الأخرى، وشيطان الموت.

- إيڤا، أنت من قتل تاماش!

اهتزّت إيڤا، وتبدّلت ملامح وجهها تماماً، وضغطت جبينها بكفّ يدها، ثم قالت:

- ليس صحيحاً، ليس صحيحاً. كيف يخطر لك هذا؟

- إيڤا، أنت من قتل تاماش!

- لا ميهاي، أقسم لك، لا. لست أنا من قتله... لا يجوز استيعاب المسألة على هذا النحو. تاماش انتحر. حكيت لأرفين، وأرفين، بصفته كاهناً، هو من قدّم الغفران.

- احكِ لي أيضاً!

- سأحكي. أصغِ إليّ! سأحكي كيف مات تاماش.

كانت يد إيڤا باردة حتى التجمّد، في يد ميهاي. اقشعرّ ميهاي وثقلت خفقات قلبه، وسرت في أوصاله رعشاتٌ عابرةً الممرات، والقنوات، والأنفاق، والبحيرات المالحة، حتى وصلت الآن أخيراً إلى الكهف حيث يكمن اللغز في أعمق أعماق الأشياء والليالي.

- تذكّرْ ماذا حصل حين تقدّم لي ذلك الخطيب، وكيف كان أبي عنيفاً، وطلبت منه أن يأذن لي بالسفر برفقة تاماش لبضعة أيام، قبل أن أتزوّج.

- أذكر.

- ذهبنا إلى هالستات. تاماش هو من اختار هذا المكان. حين وصلنا فهمت كلّ شيء. لا أستطيع أن أحكي لك... مدينة سوداء قديمة قرب بحيرة سوداء ميتة. في إيطاليا كذلك هناك مدن جبلية، لكن هذه المدينة أكثر قتامة، وأكثر فظاعة. مكان لا يصلح إلا للموت. كان تاماش قد قال لي في أثناء الطريق إنه سيموت عمّا قريب. لا بدّ أنك تذكر، المكتب... وأنه لم يستطيع أن يتقبّل فكرة الانفصال عني... وحتى لو... فإنك تذكر كم كان يتوق إلى الموت، وتعرف كذلك أنه لم يشأ أن يموت بالمصادفة، بل عن سابق إصرار. أعلم أن أحداً آخر غيري سيسارع إلى

طلب العون من أصدقائه، أو من الشرطة، أو رجال الإسعاف، ولا أدري من أين اختلقت هذه العادة. أنا أيضاً كان إحساسي الأولي بأن عليّ أن أفعل شيئاً، وأصرخ طلباً للنجدة. لم أفعل، واحترت في حرصي على خطوة تاماش. وفجأة انجلت أمامي فكرة أن تاماش محقّ. أما كيف انجلت فذلك ما لا يمكنني أن أقوله... لكنك تذكر كم كنا قريبين أحدنا من الآخر، وكم كنت أعرف ما يحدث في داخله، والآن أدركت أن نجدته مستحيلة. فإن ليس الآن فسيفعلها عما قريب عندما لا أكون هناك، وعندئذٍ سيموت وحيداً، ويكون الأمر فظيعاً بالنسبة لي، وله.

لاحظ تاماش أني رضخت، فصارحني بالموعد المحدد. في ذلك اليوم جذّفنا في البحيرة الميتة، لكن المطر هطل عند العصر، فدخلنا غرفتنا. لم يحدث أن كان خريف في الكون كذلك الخريف، يا ميهاي.

كتب تاماش رسالته الوداعية بكلماتٍ لا معنى لها، وبلا تفكير. ثم طلب مني أن أحضر له السمّ. أما لماذا استعان بي وكنت ضرورية لذلك، ولماذا قمت به، فلعلّك الوحيد الذي تستوعب ذلك، أنت الذي لعبت معنا في تلك الفترة.

لم أشعر بما يخِز ضميري. رغب تاماش في أن يموت، ولم يكن بمقدوري أن أمنعه، ولم أشأ أن أمنعه، لأني على يقين أنه الأفضل له. وحسناً فعلت عندما حقّقت رغبته، ولم أندم على ما فعلته، وربما لو لم أكن معه، وأعطيه السمّ، لما كان لديه القوة النفسية الكافية لاجتراعه على الفور، ولكان ماطل وكابد الكثير قبل إقدامه على الأمر -لكنه سيُقدِم عليه لا محالة- ولكان، بسبب جبنه، ذهب إلى الموت خجولاً يشعر بالعار. أما هكذا فقد أقدم على قتل نفسه بكلّ شجاعة، ومن دون تردُّد، لأنه لعب

دوراً، لعب دور أنني أقتله، قام بعرض المسرحية التي مثّلناها كثيراً في المنزل.

ثم استلقى بكلّ هدوء، وجلست أنا على طرف السرير. وحين وصل إلى خدر الموت، جذبني إليه وراح يقبّلني. ظلّ يقبّلني حتى سقطت يداه عني. لم تكن قبلاً أخوية، يا ميهاي. هذه حقيقة. عندئذٍ لم نعد أخوين، بل شخصين أحدهما يستأنف الحياة، والآخر يموت... وقتئذٍ، كان أمراً جائزاً، كما أعتقد.

صمتا طويلاً. ثم سألها ميهاي أخيراً:

- إيڤا! لماذا أوصيت لي ألا أبحث عنك؟ لم لا تريدين أن تقابليني؟

- أووه! ألا تشعر يا ميهاي، ألا تشعر باستحالة ذلك؟! حين نكون معاً، لن نكون اثنين، إلا وتاماش ثالثنا في كل لحظة. والآن رحل أرفين أيضاً... لا أقوى على لقائك يا ميهاي، لا أقوى!

نهضت واقفة. فقال ميهاي بصوت خفيض لكن بأقصى ما يستطيع من ضراوة: «ابقي لحظة أخرى!».

ثم سألها: «أصحيح أنك راحلة إلى الهند؟ ولوقتٍ طويل؟».

هزّت رأسها بالإيجاب. مسّد ميهاي يدها.

- حقاً سترحلين، ولن أراك أبداً؟

- حقاً؟ وأنت، ماذا ستفعل؟

- حلّ وحيد، ولا شيء سواه. أن أموت على طريقتي، مثل.. مثل تاماش.

صمتا.

سألته إيڤا: «هل تفكّر بجدية؟».

- بكلّ جدّية. لا معنى لبقائي في روما. ولا معنى أبداً لعودتي إلى الوطن، لا معنى لأيّ شيء.

سألته من دون حماسة: «كيف يمكنني أن أساعدك؟».

- لا. بل بطريقة واحدة فقط. أن تفعلي شيئاً من أجلي.

- قل ما هو؟

- لا أجرؤ على النطق به. صعب جداً.

- قل!

- إيڤا، كوني إلى جانبي حين أحتضر، كما كنت إلى جانب تاماش. إيڤا!

سرحت إيڤا في تأمّلها.

- أتقبلين؟ أتقبلين يا إيڤا؟ ولا رغبة أخرى لي منك، ما دام العالم عالماً.

- حسناً.

- أتعِدينني؟

- أعِدك.

- ٦ -

وصلت أرجي إلى باريس. تلفنت ليانوش سبتنكي، الذي جاءها مساءً، ليذهبا لتناول العشاء.

رأت أرجي أن يانوش مشغول البال، ولقد تعزّز ظنُّها حين قال لها:

- سنتعشّى اليوم مع الفارسيّ.

- لماذا؟ إنها الليلة الأولى!

- صحيح، لكن لا حيلة لي. تمسّك بموقفه، وتعرفين أنني مرغم على مسايرته.

وفي أثناء العشاء لزم يانوش الصمت، فيما دار الحديث بين أرجي والفارسيّ، الذي تحدّث عن بلده.

الحب هنالك صعب، وحرفة رومانسية. ما زال على الفتى العاشق هناك أن يتسلّق سور منزل والد المحبوبة، ويختبئ في الحديقة مقامراً بحياته، حتى تصل معبودته بصحبة مرافقتها، ويتبادلان سرّاً بعض الكلمات، وينتهي الأمر.

سألت أرجي:

- وهل هذا أمر حسن؟

- أجل. حسنٌ جدّاً. حسنٌ جداً. المسألة هكذا تحظى باحترامٍ أكبر من قبل الإنسان إذا ما كافح من أجلها، وعانى من الانتظار والحرقة. كثيراً ما ينتابني إحساس بأن الأوروبيين لا يعرفون ما الحب، لجهلهم تقنيّاته.

وقدحت عيناه، مفرطةً في إيماءاتها.

- سررتُ بعودتك، مدام! كنت أخشى أن تبقي في إيطاليا. كان من الخسارة لو بقيت هناك... كان من المؤسف...

وبحركة امتنانٍ وضعت أرجي يدها على يد الفارسيّ. انسحبت يده من تحت يدها، وبدا الأمر كأنه شتيمة.

جفلت أرجي وأرجعت يدها.

- يسعدني أن تقبلي مني هديّة متواضعة بمناسبة عودتك.

وأخرج علبةً ذهبيةً ناعمةَ الصياغة.

- علبة أفيون، لكنها تصلح لوضع السجائر أيضاً.

قالت أرجي مرتبكة: «لا أدري على أيّ أساسٍ أقبلها!».

- ولا على أيّ أساس. على أساس أنني رائق السريرة. على أساس أنني لست أوروبياً، وأنني جئت من بلد حيث هنالك يقبل الناس الهدايا بسهولة ورحابة صدر، وامتنان. اقبليها لأني «لوتفالي سوراتغر»، ومن يدري متى تصادفين في الحياة مثل هذا الطائر؟!

رمقت أرجي تاماش بنظرةٍ متسائلة. نالت العلبة إعجابها، وودَت لو تقبلها. أوماً يانوش بعينيه إيجاباً.

- أقبلها، وأشكرك جزيل الشكر! ما كنت لأقبلها من أحدٍ آخر. فمن يدري متى أصادف في الحياة مثل هذا الطائر!

سدَد الفارسيّ فاتورة العشاء بالكامل. ساءها الأمر، وكأنّ يانوش جاء بها من أجل الفارسيّ، وانسحب من الموضوع، لكنها واست نفسها بأن يانوش لا يملك النقود، فترك الآخر يسدّد فاتورتهما أيضاً. ولعلّه هو من تمسّك بالأمر جرياً وراء العادات الشرقية. على أي حال، في باريس أيضاً، شخصٌ واحد يسدّد الحساب.

وفي المساء سرعان ما خلد يانوش إلى النوم، فملكت أرجي وقتاً للتفكير.

بدأت المسألة تبلغ نهايتها مع يانوش، لا ريب في ذلك، ولا أسف عليه. كان ممتعاً من الخارج. لكنني كم خشيت أن يطعنني، ويسرق نقودي، لكن ذلك لم يحصل، وعبثاً خشيته، لكني شعرت معه بشيء من الخذلان. ماذا بعد الآن؟ لعلّه الفارسيّ؟ يبدو أنني أنال إعجابه.

استغرقت في التفكير.

ترى كيف يكون الفارسيّ بالمعاشرة عن كثب؟ أجل، لا بدّ أنه «نمر، نمر، لهب أصفر في غابة ليلتنا». كيف قدحت عيناه... لعلّه مخيف. أجل مخيف. عليّ أن أجرّبه مرة. فما يزال للحب كثيرٌ من المطارح المجهولة، والأسرار، والعظائم، والجِنان.

وبعد يومين دعاهما الفارسيّ في نزهةٍ بالسيارة إلى باريس بلاج. سبحوا في البحر، تناولوا العشاء، وعادوا في عتمة الليل.

كان الطريق طويلاً، وبدأ الفارسيّ الذي يقود السيارة يشعر أنه ضلّ الطريق، فسأل يانوش: «أرأينا هذه البحيرة في أثناء قدومنا؟».

حدّق يانوش في العتمة، وأجابه: «لعلّك رأيتها. أنا لم أرها».

توقّفوا وتفحّصوا الخريطة.

- يعلم الشيطان أين نحن الآن. لا أرى أي بحيرة هنا!

قال متوتراً: «قلت لك إنه لا ينبغي على السائق أن يشرب كل هذه الكمية!».

تابعوا طريقهم على غير هدى. لا وجود لإنسانٍ أو لعربةٍ في المنطقة.

قال يانوش: «هذه السيارة ليست على ما يرام، أتلاحظ كيف يتقطّع صوت المحرّك؟».

- أجل. لا مشكلة في ذلك.

مع تقدّمهم أصبح الصوت بارزاً أكثر، فسأل الفارسيّ يانوش:

- هل لديك خبرة في السيارات؟ لأني لا أفهم في الأمر شيئاً. ما زالت بنية السيارات من العجائب الشيطانية عندي.

- توقّف! سأرى ما المشكلة.

ترجّل يانوش. رفع غطاء السيارة، وبدأ يفحصها.

- انقطع شريط المروحة. من أين لنا الآن بشريط مروحة؟ كان عليك أن تفحص سيارتك بين فترة وأخرى!

وأطلق شتائمه المقذعة.

- يا للشيطان الأزرق! انقطع الشريط. لقد أتلفناه.

-أتلفتَه أنت!

- أتلفتُه. لا حركة لنا من هنا إلا بشريط جديد. لننزل من السيارة.

ترجّل الجميع، هطل المطر. ارتدت أرجي معطفها الشمعي.

كان الفارسيّ غاضباً، فاقد الصبر.

- يا للشيطان! ماذا نفعل الآن؟ وقفنا في منتصف الطريق العام. أظن أننا لم نبلغ بعد الطريق العام.

قال يانوش: «ألمح منزلاً في تلك الناحية.. لنجرّب حظّنا هناك!».

- في هذه الليلة المتأخرة؟ الجميع نيام في الريف الفرنسي في مثل هذا الوقت، والصحاة منهم لا يتكلّمون مع أجانب مشبوهين.

قالت أرجي مشيرة إلى المنزل: «لكن المنزل مُنار».

قال يانوش: «لنحاول!».

أوصدوا السيارة، ومضوا نحو المنزل المسوّر بجدار. لكن مدخله كان مفتوحاً. دخلوا.

كان منزلاً ذا مظهرٍ خارجي ميسور، بدا في الظلمة قصراً مصغراً، يعود لنبلاء فرنسيين.

قرعوا الجرس. أطلّت امرأة فلاحة من فتحة الباب الصغيرة، فأفادها يانوش عن حالتهم.

- سأنادي للسيّد حالاً.

وسرعان ما جاء إليهم فرنسيٌّ بزيٍّ ريفيّ من العصر الوسيط. أوضح يانوش أمرهم فيما كان الفرنسي يتمعّن هيئاتهم. أشرق وجهه، وسرعان ما بات في منتهى الودّ.

- الربّ أحضركم إلينا، سيداتي وسادتي! تفضّلوا بالدخول، وبعد ذلك نتحدّث في الأمر.

قادهم إلى غرفة قديمة تذكّر بقلعةٍ للصيد، حيث جلست امرأة قرب الطاولة، تنجز عملاً يدوياً. زوجته بالطبع. أطلعها الرجل عن حالتهم باختصار، وأجلس ضيوفه.

قالت المرأة: «سوء فألكم، فأل حسنٌ لنا. لا تتصوّرون كم هي مملّة هذه الأماسي الريفية، لكن المرء لا يتخلّى عن أرزاقه في هذا الفصل، أليس كذلك؟».

لم تشعر أرجي بالراحة، لم يكن قصراً حقيقياً بكلّ ما فيه، أو أنه كان مغالياً في حقيقته، مثل عرض مسرح طبيعي. هذان الزوجان إما أنهما يجلسان تحت المصباح على الدوام، صامتين من دون كلام، وينتظران، أو أنهما خلقا للتوّ في لحظة وصولهم

هم إلى هذا المكان. أشعرتها بشرة جلدها أن شيئاً هنا ليس على ما يرام.

وتبيّن أن أقرب قرية قد يعثرون فيها على ورشة إصلاح، تبعد ثلاثة كيلو مترات من هنا، وليس للزوجين المضيفين أحدٌ لإرساله، لأن العاملين اليوم نائمون في المزرعة.

بادرت المرأة: «أمضوا هنا هذه الليلة! توجد أسرّة للجميع».

لكن كلاً من يانوش، والفارسيّ، أصرّا على ضرورة وجودهم هذه الليلة في باريس.

«ينتظرون عودتي!»، قال الفارسيّ موحياً بابتسامة حاذقة أن امرأة تنتظره.

قال يانوش: «لم يبقَ إلا أن يقصد أحدنا القرية ماشياً. ثلاثة كيلومترات ليست مسافة طويلة. أنا سأمشي، لأني تسبّبت في قطع شريط المروحة».

قال الفارسيّ: «لا، بل أنا، لأنكما في ضيافتي، ولزامٌ عليّ تدبُّر أمركما».

بادر يانوش: «دعونا نلجأ إلى القرعة!».

حددت القرعة أن يانوش من سيذهب. قال: «سأعود قريباً!»، ومضى.

أحضر المضيف النبيذ المنزلي. جلسوا حول الطاولة، وشربوا، وتحدثوا بهدوء، وهم يسمعون نقرات المطر على النافذة.

سرحت أرجي، وتنامى شرودها. لم تعُد تدري ما هو موضوع حديث الزوجين. غير أنه حديث هدهدها برتابته، ولكن قد تكون نقرات المطر الرتيبة هي ما يهدهد أرجي. أو ربما كانت أرجي منفصلة تماماً عن الجميع وهي تجلس الآن على تخوم العالم في قصرٍ فرنسي لا تعرف حتى اسمه. ثم شعرت أن ما يهدهدها ليس كل ذلك، بل نظرات الفارسيّ التي تنساب عليها بين حين وآخر. نظرات مؤثرة، حارّة، حنونة مختلفة تماماً عما يشعّ من عيون الأوروبيين من نظرات زرقاء باردة. كان في نظراته شيء من الحرارة واليقين. نظرات مهدهدة. أجل، إن هذا الرجل يحبّ النساء، لكن ليس بتلك الطريقة فحسب. لا يحبهن لأنه رجل، بل لأنهن نساء لطيفات، وجديرات بالمحبة. وجدتها: يحبهن كما يحب صديقُ الكلابِ، الكلابَ. وهذا أكثر ما يمكن لامرأة أن تحصل عليه.

ثم فطنت أرجي، وهي سارحة في حلم اليقظة، إلى أنها تضع يدها بيد الفارسيّ تحت الطاولة، وتمسّدها.

لم يفضح الفارسيّ نفسه، ولو بحركة صغيرة. حدّث الزوجين بكلّ الودّ. ومع ذلك فقد شعرت أرجي أنها تحترق وتغلي كالبركان، وتنتظر اندلاع اللهب من الفارسيّ. لكنه كان يتريّث، ربما من دون أن يدور بباله أيّ مشروع يفعله في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل.

أيظنّ أنني امرأة فارسية صعبة المنال؟ يا إلهي، ينبغي أن أخرج وأتمشى... لكن المطر يهطل.

وفجأة قُرع الباب. عادت المرأة الريفية بولدٍ متبلّل، عرفه الزوجان. تبيّن من كلام المراهق أن يانوش عبر إلى القرية المجاورة، لكنه لم يعثر هنالك على شريط مروحة، وأنه فكر

بقضاء ليلته لدى الطبيب الشهم المقيم هناك. ويرجوهما أن يأتيا إليه إذا ما تدبّرا أمر السيارة.

تقبّلا النبأ بذهول. وقررا، ما دام الأمر هكذا، أن يخلدا إلى النوم، لأن الوقت بات متأخراً. قادتهما الزوجة إلى العلّيّة. وبعد أن استنتجت بلباقة أن أرجي والفارسيّ لا يرتبطان بعلاقة، خصّصت لكلٍّ منهما غرفة مستقلة، وودّعتهما. أرجي أيضاً ودّعت الفارسيّ، ودخلت إلى غرفتها التي أعدّتها المرأة الريفية، وتمنّت لها ليلة سعيدة.

وكأن كلّ شيء كان محضّراً من قبل. لم تشكّ أرجي في أن كلّ شيء كان محضّراً من قبل يانوش الذي اختلق هذه المسرحية الصغيرة التي تجري إكراماً لها: عطل السيارة، القصر الصغير في الطريق، حادثة يانوش والطبيب، وحان الآن فصل المسرحية الأخير، ونهايتها السعيدة.

جالت بعينيها في الغرفة. أحكمت إغلاق الباب، وتبسّمت حين لاحظت أن للغرفة باباً آخر لا قفل له. فتحت ذلك الباب بحذر، فواجهتها غرفة مظلمة تماماً، لكنها رأت على الجدار المقابل للغرفة المظلمة، باباً بدا في أسفله شقٌّ مضاء. تسلّلت بهدوء، فلاحظت أن أحداً يتمشّى في الغرفة المجاورة. عرفت أنه الفارسيّ. كان من الطبيعي ألا يقفل باب غرفته، ومن الطبيعي إذاً أن يتهادى إلى غرفتها، بما أن الجميع باتوا نياماً. فعادت إلى غرفتها.

لاحظت في المرآة احمرارها الشديد. لقد باعها يانوش للفارسيّ، الذي اشتراها كقطعة من اللحم، كتلك العلبة التي قدّمها لها (والتي قالت عنها صديقتها شاري إنها أبهظ ثمناً مما يتصوّره المرء في اللحظة الأولى). لا بدّ أن يانوش قد قبض الثمن نقداً.

ركبها غضب، وأحسّت بذلٍ شديد. كان لها أن تمنح الفارسيّ الحبّ... لكن أن يسلك معها وكأنها سلعة... أووه، ما أغبى الرجال! لقد أفسد بهذا كل شيء.

لمَ يحصل هذا؟ الجميع يبيعني. ميهاي باعني لزولتان، ووثّق خيانته برسالة، والآن يبيعني يانوش للفارسيّ، ومن يدري لأيّ يونانيّ، أو أرمنيّ سيبيعني الفارسيّ؟! وكل أولئك الرجال الباعة، لست ملكاً لهم أصلاً. قلّبت الأمور في رأسها: ما الخصلة التي تتمتع بها حتى يبيعها الرجال؟ أم أن الخطأ ليس خطأها بل خطأ الرجال الذين تعرّفت إليهم، ميهاي، ويانوش اللذان يحبّان إيڤا البائعة التي باعتهما، فلم يعودا يتصوّران الأمور إلا على أساس البيع والشراء؟

بضع دقائق ويجيئها الفارسيّ، وتُنجز الصفقة. حماقة! ينبغي فعل شيء. هل تنزل إلى صاحبة المنزل، وتختلق مشهداً، وتطلب الحماية؟ أمرٌ مضحك، لأن أصحاب المنزل قبضوا الثمن، وكلّهم من طرف الفارسيّ. من هم يا ترى؟ قاموا بدورهم على أكمل وجه. هل هم ممثلون، بما أن للفارسيّ الآن مشروعاً سينمائياً؟

ذرعت الغرفة حائرة. قد تكون مخطئة، ولا نيّة للفارسيّ الدخول إليها. وفطنت للتوّ أن عدم مجيء الفارسيّ إهانة لها كمجيئه. لكن مجيئه... ليس مهيناً ومذلاً بقدر عدم المجيء.

كان الفارسيّ على يقين أنه أعجب أرجي، وقد أوحت له أن يجيء. لن يأتيها كإحدى جواريه في الحرملك، بل كامرأة تحبه، ويحبها، بعد أن أزالت العوائق من طريقه. أما أن يبيعوها...؟! أجل، لقد باعوها. ولكن الحقيقة أن الرجال يدفعون المبالغ الطائلة من أجلها، وليس ذلك أمراً مذِلّاً، بل على العكس من

ذلك، إطراء ما بعده إطراء، فالمرء لا ينفق المال إلا في سبيل ما يجده قيّماً يستحق الإنفاق. وفجأة، راحت تتعرّى.

وقفت أمام المرآة، تشاهد، برضا، كتفَيها وذراعيها باعتبارهما جزءاً مما «ينفق لأجله الرجال المبالغ الطائلة». سلّتها الفكرة تماماً. هل يعادل جسدها المبالغ الطائلة؟ إن وجدوه يعادل...

حين كانت في غرفة الجلوس، كم رغبت في معانقة الفارسيّ. لم يكن توقاً خالصاً، وإنما كان مشوباً بالفضول. كان رغبةً في رجلٍ غريب، ولذا لم تفكر حينئذٍ أن رغبتها يمكن أن تتحقّق. أما الآن، وبعد وقتٍ قصير، فقد بدأت تشعر في كلّ أنحاء جسدها، بالاشتعال البركاني الذي خمّنته في الفارسيّ. ما أعجب هذا الاستعداد، والانتظار، وكم هما مخيفان!

اصطكّت أسنانها من الإثارة. ليلة عظيمة في حياتها. الغاية، الكمال الذي أفضت إليه الطرق جميعها. الآن خلّفت وراء ظهرها كلّ قيم المواطن المدني، وكلّ ما يمتّ بصلةٍ لبودابست، وها هي ذي في منطقة ما في أعماق فرنسا، وفي أحد القصور القديمة، تستسلم في ذات ليلة من الليالي، وتمنح نفسها لرجلٍ قد اشتراها، تمنح نفسها لمؤسسة غريبة، متخلّية تماماً عن كينونتها كامرأة نبيلة، وكأنها غانية شرقية في قصص الكتاب المقدس، أو حكايات ألف ليلة وليلة، من دون أن يفارقها للحظة أنها خانت زولتان مع ميهاي... وأن علاقتها بميهاي أدّت تلقائياً إلى هذه النتيجة.

وها هو ذا الرجل الذي قد يكون مناسباً. النمر الحقيقي. الغريب. رجل الحب. دقائق قليلة وستعرفه. اقشعرّت. الجوّ بارد؟ لا، إنه الخوف.

سارعت إلى ارتداء بلوزتها مجدداً. توقفت عند الباب المؤدي إلى الممشى، ضاغطة بيدها على قلبها بالحركة الصادقة ذاتها التي شاهدتها كثيراً في السينما.

تمظهر اللغز مرعباً في مخيّلتها، بلا هيئة، ولا رأس. اللغز الشرقي، لغز الرجال، لغز الحب، ومن يدري بأيّ حركاتٍ فتّاكة موجعة منذرة يقترب منها هذا الغريب، هذا الرجل الغريب على نحو مضاعف، من يدري ما إن كانت ستفنى كالنساء الفانيات قديماً بين أذرع الآلهة. من يدري أيّ فظاعات غامضة...؟!

وفجأة أُلقي عليها وشاح الأدب، وكونها امرأة نبيلة متعلّمة، وتقتيرها، وكلّ ما هربت من أمامه. لا، لا، لا تجرؤ... جعلها الجزع قوية، واسعة الحيلة، فاستطاعت خلال لحظات أن تنقل إلى أمام الباب المجرّد من القفل، كلّ أثاث الغرفة، حتى السرير الثقيل أمسكت به وجرّته باكية، تبلع دموعها إلى أمام الباب، ثم تهالكت عليه في النهاية.

وللتوّ، في الوقت المناسب، سُمعت خُطا الفارسيّ الخفيفة قادمة من الغرفة المجاورة. وقف أمام الباب. تنصّت، ثم حرّك الرتاج. لكن الباب المدعّم بأثاث الغرفة أبدى مقاومته.

قال بهدوء: «أليزابيث».

لم تُجب أرجي. حاول مجدّداً أن يفتح الباب، ويبدو أنه صار يدفعه بكتفيه، فتزحزح الأثاث قليلاً.

صرخت أرجي: «لا تأتِ إلى هنا!».

توقف الفارسيّ. ساد السكون لفترة قصيرة.

قال بصوتٍ أشدّ: «أليزابيث! افتحي الباب!».

لم تُجب أرجي.

غمغم الفارسيّ شيئاً، ودفع الباب بكامل قوّته.

صرخت أرجي: «لا تدخل!».

ترك الفارسيّ الباب.

«أليزابيث»، قال مرة أخرى، لكن بصوت خفيض كأنه قادم من بعيد، ثم بعد قليل من الوقت قال: «تصبحين على خير»، وعاد إلى غرفته.

استلقت أرجي مصطكّة وقد ارتدت ملابسها. بكت، وفتك بها التعب. كانت هذه لحظة التجلّي حين يفهم المرء حياته برمّتها.

لم تجمَل المسألة أمام نفسها. كانت تدرك أنها لم تسمح للفارسيّ بالدخول بسبب الظروف المذلّة التي أهانتها، وليس لأنها امرأة شريفة، بل لأنها جبانة. بات اللغز على مقربة منها، لكنها هربت من اللغز. كانت طوال حياتها امرأة من الطبقة الوسطى، وستبقى كذلك. آه، لو يأتي الفارسيّ الآن، لسمحت له بالدخول... لن يودي الأمر بها إلى الموت، ولن يحصل أيّ أذية. آه، ما أتفهها من رهبة طفولية! لو يأتي الفارسيّ الآن سيزول تعبها الرهيب، وكل شيء، كل شيء.

لكن الفارسيّ لم يعد. خلعت ملابسها، واستلقت على السرير، وغفت.

نامت مدة ساعة أو ساعتين. استيقظت. كان الفجر قد بزغ عند الساعة الثالثة والنصف. قفزت من سريرها، وغسلت وجهها ويديها، وارتدت ملابسها وخرجت إلى الممشى. لم تهدر وقتها بالتفكير، عرفت أن عليها الفرار من هنا. عرفت أنه لا يجوز للفارسيّ أن يراها بعد الآن. خجلت من نفسها، وسرّها أيضاً أن استطاعت أن «تنفد» بجلدها. كانت رائعة المزاج، وحين أفلحت بفتح باب المنزل الكبير الذي كان مرتجاً، تحلّت بشجاعة المراهق، وأحسّت بالنصر والنجاح.

ركضت سعيدة على الطريق العام، حتى بلغت قرية صغيرة لم تكن بعيدة. وتبيّن لها أن محطة القطار على مقربة منها، فأخذت قطار الفجر إلى باريس.

وصلت إلى المدينة في الصباح الباكر. وما إن صعدت إلى غرفتها في الفندق، حتى نامت بعمق، وربما بسعادة حتى وقت العصر. حين أفاقت شعرت أنها أفاقت حقاً من حلم طويل مرعب وجميل. استقلّت التاكسي وقصدت شاري، مع أنه كان بوسعها أن تركب الباص أو المترو. لكنها الآن، وقد أفاقت، فقد ولّى تقتيرها إلى خبر كان.

روت الحادثة لشاري، بتلك الشفافية الساخرة التي تميّز النساء حين يتحدّثن في الحب.

سألتها شاري برقّة مواسية: «وما الذي ستفعلينه الآن؟».

- وما سأفعل؟ ألم يخطر لك بعد؟ سأعود إلى زولتان. ولهذا أتيت إلى هنا.

- ستعودين إلى زولتان؟ ألهذا تخلّيت عنه؟ وتظنّين أن حياتك ستكون أفضل مما كانت؟ لا يمكن الزعم أنك تحبّينه كثيراً. لا أفهمك... لكنك محقّة تماماً. محقّة بالإطلاق. أنا أيضاً هذا ما كنت لأفعله لو كنت مكانك. ثم إنك لم تُخلَقي لكي تعيشي حياة الطلاب في باريس، وتبدّلي عشاقك جاعلة منهم مصدر رزقٍ لكِ.

- حقاً، لم أُخلَق لهذا... لقد أدركت الآن ما كان أساس الذعر الذي عانيته ليلة أمس. وفكّرت في ما سيقود هذا إليه. ربما بعد الفارسيّ، يأتي دور رجل فنزويليّ، ثم ياباني، ثم زنجيّ... وفكّرت، إذا ما بدأت بهذا فلن أستطيع التوقف، فما الذي سيوقفني؟ خشيت من نفسي، من قدرتي على ارتكاب أيّ شيء من دون رادع. لا بدّ إذاً من وجود رادع يصون المرأة. لهذا السبب وجدت أن زولتان هو الأفضل.

- ماذا يعني الأفضل؟ ممتاز. رجل ثريّ، طيّب، ويحبّك حتى العبادة، لا أفهم لماذا تخلّيت عنه. اكتبي له على الفور، ووضّبي متاعك، وسافري! كم أغبطك يا أرجي! وسأفتقدك.

- لا. لن أكتب له. أنت من ستكتبين.

- أيخيفك احتمال رفضه؟

- لا، يا عزيزتي، لا يخيفني هذا الأمر. لكنني لا أريد أن أكتب له، لأنه لا ينبغي أن يعرف أنني لجأت إليه هاربة. لا أريد أن يعرف أنه... الحل الوحيد. دعيه يشعر أنني أشفق عليه، فلا يعتريه الغرور.

- كم أنتِ محقّة!

- اكتبي له أنك شجّعتني للرجوع إليه، بعد أن لمست لديّ استعداداً للعودة، إلا أن كبريائي منعني من الاعتراف. وأنه من الأفضل أن يجيء إلى باريس، ويحاول التكلّم معي. وحينئذٍ ستتدبّرين الأمر. اكتبي الآن رسالة حاذقة حماسية، يمتلك من خلالها الشجاعة.

- عظيم. سأكتبها هنا والآن على الفور. أرجي! إذا صرت في بودابست وتزوّجت من زولتان مجدداً، أرسلي لي بعض الأحذية، فالأحذية هناك أرخص، وأفضل، وأمتن.

- ٧ -

«استمتع بشرب النبيذ اليوم، فغداً لن يتوفر». لقد نفد النبيذ، نفدت في الداخل تلك العصارة التي توقظ المرء كلّ صباح على وهم أن ثمّة ما يستحقّ الاستيقاظ. وبدرجة نفاد النبيذ نفسها، ارتفع منسوب البحر القاتم، العين البحرية التي ارتبطت أعماقها بالمحيط. الرغبة الأخرى، المناقضة للحياة، والأعظم من الحياة.

وما كان تاماش برعماً فيه، نما الآن مستحيلاً إلى واقع. لقد تنامت فيه هذه الفكرة: موته الخاصّ، مستمدّاً غذاءه من عصارة حياته. استغرق في تفكيره، وقلّب ما في خلده من أفكار، متشرّباً المرئيات الجذابة الجميلة حتى الامتلاء والكمال، وحان الوقت للدفع بها إلى العالم وترويجها بوصفها واقعاً.

كتب لإيڤا محدّداً الموعد: «ليلة السبت». ردّت إيڤا: «سأكون هناك».

كان هذا كلّ ما كتبته إيڤا. صدمه ردّها. ما أضحله من ردّ! ما أضحل روتين الموت! أمر رهيب.

شعر بالبرودة تسير في أنحاء جسده، برودة مرضية غريبة، كتلك الحالة حين يبدأ الخدر انتشاره التدريجي في أحد أعضاء الجسد نتيجة التخدير الموضعي، ويستحيل جسدنا إلى جسدٍ مخيف غريب عنا: مات فيه، شيئاً فشيئاً، ذلك الشيء الذي كان إيڤا. لقد خبر ميهاي جيداً خمود الحب، وإغفالاته، حين مَنْ نحبّها تغدو لا مباليةً تماماً، ومتى؟ عند نقطة الأوج، حين يبلغ الحب أقصى مداه. فيندهش المرء وهو ينظر مستغرباً إلى وجهها الجميل الغريب، أهذه يا ترى هي تلك المرأة؟ وهذه هي الحال الآن، إلا أنه شعر بأن خموده أشدّ بكثير من ذي قبل. انطفأت إيڤا. ولكن ما الذي سيحصل لحلاوة اللحظات الأخيرة المنسوبة لتاماش؟ شعر بسخرية غريبة في غير محلّها. ولاحظ أن الحديث العظيم بدأ بداية سيّئة.

كان هذا عند عصر يوم السبت. وجد نفسه في مواجهة السؤال الخطير لبرنامج الساعة القليلة القادمة. ما الذي يفعله المرء حين لا معنى لشيء؟ «ساعات منتحر الأخيرة». صدمته العبارة وقد طبّقها على نفسه أكثر مما صدمته عبارة «ثمل من الحب»، أو عبارة «لا يستطيع الحياة إلا معها». ميهاي مذعور من كوننا لا نقارب أعظم لحظات حياتنا، وحالاتها، إلا بعبارات تافهة، من شأنها أن تجعلنا في أتفه اللحظات والحالات، فننحدر حينئذٍ ونغدو كالآخرين. ميهاي الآن «سيستعدّ للموت»، كما يفعل أيّ أحدٍ آخر يدرك أن عليه أن يموت عمّا قريب.

أجل، لا شيء آخر يفعله، ليس له أن ينسحب ويخرج عن القوانين. حتى في اللحظات الأخيرة، مرغم على الامتثال. سيكتب رسالته الوداعية كما تقتضيه اللباقة. ليس من اللباقة في شيء أن يترك والده، وأمّه بلا وداع. سيكتب لهما رسالة.

كانت أولى اللحظات المؤلمة، حين خطر له هذا الأمر. كان حتى الآن لا يشعر إلا بالكدر والإرهاق، والجوَ الضبابي الذي تتخلّله الدقائق الأخيرة على شكل لمعاتٍ فوسفورية خضراء، إضافة إلى التفكير بتاماش. لكنه الآن، وقد تذكّر والديه، يحسّ بألمٍ شديد، ألمٍ شديد وجليّ.

انقشع الضباب، وبدأ يشفق على والديه، وأشفق على نفسه، بكلّ سخافةٍ وجدانية. خجل من نفسه، وأخرج قلمه الحبر ليخطّ تصريحاً بفعلته، بانضباطٍ عالٍ ولا مبالاة، لكن، بعبارات حارة، وسموّ، كما يتطلب روتين الموت.

وفيما كان جالساً والقلم بيده، بانتظار العبارات اللازمة، قُرع الباب. اهتزّ ميهاي بشدّة. لا أحد يأتي إلى الغرفة رقم سبعة. من يكون هذا القادم الآن في هذه اللحظة بالذات؟ اعترته الكثير من التخمينات والظنون. صاحبة البيت ليست هنا. لن يفتح الباب. لا معنى لذلك الآن، ولا شأن له مع أيٍّ كان. اشتدّ قرع الجرس، ففقد صبره. هزّ ميهاي كتفيه كمن يقول: «ما العمل أمام مثل هذا الإصرار العنيف؟»، وخرج. شعر باسترخاء بسيط.

المفاجأة الكبرى. رأى ڤانينا ومعها فتاة إيطالية أخرى. ملابس احتفالية، شال حريري أسود على رأس كلٍّ منهما. ولا بدّ أيضاً أنهما كانتا مغتسلتَين أكثر مما اعتادتا.

قال ميهاي: «أووه! من دواعي سروري»، وراح يتلعثم لعدم فهمه الحالة، وعدم معرفته بالإيطالية بما يكفي لإخفاء ارتباكه.

قالت ڤانينا: «تعال إذاً، سنيورا!».

- أنا؟ إلى أين؟

- إلى حفل التعميد!

- أيّ تعميد؟

- تعميد طفل ابنة عمي. ألم تصلك رسالتي؟

- لا. أنت كتبتها لي؟ كيف عرفت اسمي وعنواني؟

- من صديقك. كتبهما لي.

وأخرجت قصاصة مجعّدة. خط سبتنكي. «الملفوف المكوّر». هذا ما كتب عليها، إضافة إلى عنوان ميهاي.

- هل كتبت لهذا الاسم؟ - سأل ميهاي.

- أجل. اسم غريب. ألم تستلم الرسالة؟

- لا، قسماً بالله لا. لا أفهم، لماذا لم تصلني. لكن، تفضّلا بالدخول!

دخلت الفتاتان. جالت بعينيها في أنحاء الغرفة، وسألت:

- السنيور ليس في المنزل؟

- ليس في البيت سنيور آخر.

- حقاً. ما أحلى البقاء هنا... لكن علينا تعميد الطفل. هيّا، تعال بسرعة! بدأ الناس يتجمّعون، ولا يجوز أن نتأخر على الكاهن.

- لكن يا عزيزتي... أنا... أنا لم أستلم رسالتك، للأسف، ولم أتهيّأ لهذا اليوم.

- ممكن، لكن لا بأس. ليس لديك ما تفعله هنا... ليس للأجانب ما يفعلونه هنا. ضع قبعتك، وهيَا إلى الأمام!

- لكن أشغالي كثيرة... أشغال هامة.

وتجهَم. خطر له كل ما يخطر على بال، وامتثلت أمامه فظاعة الموقف. عند اللحظة التي يخطّ فيها رسالته الوداعية، تأتيان لإزعاجه، وتطلبان منه أن يرافقهما لتعميد طفل. فجأةً، وعلى حين غرّة، طبَتا عليه بمثل هذه الأمور المحببة والسخيفة: مثلما على الدوام، كانوا يطبَون عليه بأمور لطيفة وسخيفة حين كانت الحياة مرعبة، وسامية، وكما على الدوام طبَوا على رأسه بأمور مرعبة وسامية حين كانت الحياة محبَبة وسخيفة. الحياة ليست منتظمة، أو على الأقل، هي نوعٌ مختلط، مختلطٌ جداً.

نهضت ڤانينا، وتقدّمت نحوه، ووضعت يدها على كتفيه: «وما هو عملك المهم؟».

- عليَ... عليَ أن أكتب رسائل. رسائل مهمّة جداً.

حدّقت ڤانينا في وجهه، فأدار رأسه مرتبكاً.

قالت الفتاة: «الأفضل لك أن تأتي الآن.. أعددنا عشاء احتفالياً كبيراً بعد التعميد. تشرب قليلاً من النبيذ، وبعد ذلك تكتب الرسائل إن شئت».

رمقها بذهول. تذكّر موهبتها. تذكّر موهبتها في قراءة الكفّ. شعر أن الفتاة ترى أعماقه، وتعرف ما يجري معه. أحسّ بحياءِ كتلميذ مدرسة ارتكب ذنباً. لم يعد الآن يرى في انتحاره شيئاً

سامياً. ركع السيد العظيم خاضعاً أمام الحياة الاجتماعية اليومية. لا يجوز التأخّر عن الكاهن. دسّ نقوده في محفظته، واعتمر قبّعته، ومضوا.

حين أتاح للفتاتين أن تسبقاه على الدرج العاتم، وبقي وحده، خطرت له الحماقة التي يرتكبها بحضوره هذه المعمودية لدى أشخاص إيطاليين مجهولين يقطنون أطراف المدينة، مثل هذا لا يحدث إلا معه. رغب في الرجوع إلى الغرفة، وإحكام الباب وراءه. لكن الفتاة كأنها أحسّت بالحالة، فأمسكته من ذراعه، وخرجت به إلى الشارع. جرّته معها نحو تراستيفر، كجثّة عجل. شعر ميهاي بالروعة التي عاشها في فترة المراهقة، وكان يمثّل فيها دور الضحيّة.

جلس المعنيّون في حانة صغيرة. كانوا ما يقارب الخمسة عشر، إلى عشرين شخصاً. تحدّثوا كثيراً، وحدّثوه، ولكنه لم يفهم شيئاً من لهجتهم المحلية. ثم إنه لم ينتبه أصلاً لما يقولون. لم يهتزّ إلا حين حضرت الأم الشابّة، وطفلها بين ذراعيها. ذعر ميهاي من دمامة الأم الهزيلة، ومن شكل الرضيع الأشبه بحبّة ليمون. لم يكن يحب الأطفال، رضّعاً كانوا أم في مرحلة عمرية متقدّمة. أحسّ بالغربة، وخافهم. وظلّ يخالجه شعوره غير المريح تجاه الأمهات. لكن مع هذه الأم وهذا الرضيع بشكل خاص كان الأمر فظيعاً. في حنان الأم القبيحة وضعف الطفل القبيح، شعر بنوع من المحاكاة الساخرة الشيطانية للعذراء مع الطفل. سخرية خبيثة لأعظم رموز الإنسان الأوروبي. لقد كان شيئاً «متأخراً»، وكأن الأم الأخيرة ولدت الطفل الأخير، من دون أن يدري المجتمعون هنا أنهم آخر البشر، وخبثٌ يلفظه التاريخ، الإيماءة الأخيرة، المفعمة بالسخرية من الذات، للرب-الزمن المحتضر.

ومنذ تلك اللحظة، عاش كل شيء تحت منظور الحزن البشع لليوم الأخير والليلة الأخيرة. وبينما كانوا يزحفون في شوارع تراستيفر الضيقة، ويهتفون لمعارفهم الصاخبين في أثناء تدفقهم إلى الكنيسة الصغيرة، وكانت كل تحركاتهم رشيقة وصغيرة بشكل غريب، رأى بوضوح أكثر: «هؤلاء جرذان. هؤلاء جرذان يعيشون بين الأطلال، ولهذا هم بهذا الحماس، والدمامة، والتكاثر».

وفي الوقت نفسه، كان يؤدي بجهلٍ تام مهمّته عرّاباً للطفل، وكانت ڤانينا إلى جانبه لتوجّهه مقدّمة العون والمساندة، وحين تمّ الأمر أعطى الأمّ مئتي ليرة، ثم قام، بجهدٍ جهيد، بتقبيل ابنه بالمعمودية، المدعو ميشيل.

«أيها القديس ميخائيل رئيس الملائكة، دافع عنا في المعركة وكن عوننا ضد شرور الشيطان وفِخاخه، نصلي باتضاع لكي يقهره الله. وأنت يا قائد جند السماء، ادفع إلى الجحيم، بقوة الله، الشيطان وسائر الأرواح الشريرة التي تجوب العالم لإهلاك النفوس. آمين».

استغرق حفل التعميد وقتاً طويلاً، وبعد الانتهاء عادوا جميعاً إلى الحانة الصغيرة. كانت مائدة العشاء ممدودة في الفناء. كان ميهاي جائعاً. عرف أنه أنجز واجباته كافّةً، وعليه الآن أن يرجع إلى البيت لكتابة الرسائل. لكن فضولاً «مطبخياً» قوياً ألزمه البقاء لمعرفة مكوّنات العشاء الاحتفالي، وأطعمته الشعبية. تُرى هل الآخرون أيضاً يشعرون بالجوع، ويملؤهم الفضول للباستا عند هذه النقطة من حياتهم؟ سأل نفسه.

كان عشاءً طيباً. حاز على إعجابه طبق الباستا الخضراء غير الاعتيادي، اللذيذ. وفي حين تفاخر الأهل باللحوم، لندرة تناولها

من قبلهم في حي تراستيفر، ابتعد عنها ميهاي وركّز على الجبن من شتى الأنواع المجهولة لديه. شرب كثيراً من النبيذ، لأن جارته ڤانينا جادت عليه وسكبت له بسخاء. ثم إنه ما دام لا يفهم كلمة مما يقوله الحضور، فقد أراد أن يشاركهم مزاجهم المرح على هذا النحو.

لكن النبيذ لم يحسّن مزاجه، بل نقله إلى حالة أكثر سوءاً، وجعله أكثر غرقاً في حيرته. لقد حلّ المساء، وستأتيه إيڤا عما قريب. عليه أن يصحو ويمضي إلى البيت. لا عائق أمامه الآن إلا هذه الفتاة الإيطالية التي لا تسمح له بالذهاب. غير أن كل شيء بات بعيداً: إيڤا، ومقصدها، ورغبته، كلّها باتت بعيدة الآن. صار عائماً كجزيرة عائمة على مياه التيبر. شعر ميهاي أنه شخصٌ مبنيّ للمجهول، وسلبيّ كشجرة التوت في الفناء، التي بات يهدّل أغصانه مثلها في هذه الليلة الأخيرة. ليست ليلته الأخيرة بقدر ما هي الليلة الأخيرة للإنسانية.

وبحلول الظلام، كانت النجوم الإيطالية معلّقة فوق الفناء. نهض ميهاي، فشعر أنه في منتهى الثمالة. لم يدرِ كيف حدث هذا، لأنه لا يتذكّر أنه شرب كثيراً -قد يكون شرب كثيراً لكنه لم يفطن- لم يشعر بذلك الجانب من المزاج الذي يسبق الثمالة في العادة. كان ثملاً تماماً طوال الوقت، ولحظةً بلحظة.

خطا بعض الخطوات في الفناء، ثم ترنّح، وسقط أرضاً. كان الأمر ممتعاً. لامس الأرض، وكان سعيداً. فكّر: أووه، ما أروعها! هذه حالتي النهائية، لا يمكن أن أهوي مزيداً.

أنهضه الإيطاليون، وأدخلوه المنزل وسط أحاديثهم الصاخبة، واعتذاراته، لأنه حقاً لا يريد أن يشكّل عبئاً على أحد، ورجاهم أن يتابعوا احتفالهم المتميز.

ثم تمدَد على سرير، وغفا على الفور. وحين أفاق كانت الظلمة دامسة. أحسَ بصداع، وبأنه قد استعاد توازنه، لكنه كان قلقاً وقلبه يخفق بشدة.

لماذا ثمل إلى هذا الحدّ؟ لا بدّ أن وضعه النفسي قبل الجلوس للشرب، قد أسهم في الحدّ من مقاومته. لم يمتلك مقاومة تُذكَر، فاستسلم لإرادة الفتاة الإيطالية التي فعلت به كما تشاء. أتراها كانت راغبة في إيصاله إلى هذه الدرجة من الثمالة؟ بات بمنتهى القلق. خطرت له تلك الليلة، حين تسكّع طوال الليل في شوارع روما، إلى أن صار أمام هذا المنزل الصغير، حيث ساورته شتى الظنون والتخيّلات عما يجري وراء هذه الجدران الصامتة من قضايا جنائية غامضة. إنه ذلك المنزل الذي ارتكبت فيه الجرائم. وها هو ذا الآن في قلب المنزل. الجدران صمّاء على نحوٍ مرعب، ويستلقي هنا في الظلمة كما أرادت.

ظلّ مستلقياً لفترة قصيرة أخرى بقلقٍ يتفاقم. حاول أن ينهض. لكن حركاته كانت شاقّة، وفار الدم في رأسه. الأفضل له أن يبقى مستلقياً. أصغى. اعتادت عيناه الظلمة، كما اعتادت أذناه الإصغاء. تناهى إلى سمعه ألف ضجة وضجّة، من الضجيج الإيطالي العجيب القريب. كل ما يحيط بالمنزل كان صاحياً، وتسلّل من أسفل الباب ضوءٌ خفيف.

إن كان هؤلاء يخطّطون لشيء، فقد كان من الحماقة إحضار النقود معه. أين وضعها؟ ينام بكامل ملابسه، وينبغي أن تكون النقود في جزدانه. ربت على الجزدان، فلم يكن في مكانه، ولا في أيٍّ من جيوبه. من المؤكد أنهم قد سرقوا النقود، مئتا ليرة. لا بأس! أتراهم ينوون شيئاً آخر؟ أيدَعونه يذهب ليخبر عنهم؟ مجانين إن فعلوا ذلك. لا، هؤلاء ينوون أن يقتلوه.

عندئذٍ فُتح الباب، ودخلت ڤانينا، وبيدها ما يشبه الشمعة. ألقت نظرة متجسّسة نحو السرير، وحين وجدت ميهاي صاحياً، كأنما استغربت الأمر، واقتربت من السرير. قالت شيئاً لم يفهمه ميهاي، لكن بنبرةٍ غير محبّبة.

ثم وضعت الشمعة وجلست على طرف السرير. مسحت على شعر ميهاي ووجهه، تشجّعه على النوم باطمئنان.

«طبعاً تريدني أن أنام، وعندئذٍ... لا لن أنام».

ثم خطر له مذعوراً أن هذه الفتاة تتمتّع بقوة موحية ستجعله ينام حتماً، إن شاءت ذلك. وبالفعل ما إن مسحت الفتاة على جفنيه حتى أغمض عينيه، وغشيه النعاس.

حين بدأ النوم، تناهى إلى سمعه أحاديث تجري في الغرفة المجاورة. غمغمة رجولية فجّة، وبين حينٍ وآخر، حديث سريع لرجلٍ آخر، تخلّلته همسات الفتاة. من المؤكد أنهم يخططون الآن لقتله. ربما تدافع الفتاة عنه، وربما على العكس من ذلك، عليه أن ينهض على الفور. كم من المرات حلم بأن خطراً محدقاً يقترب منه، ويعجز هو عن الاستيقاظ، مهما بذل من جهد. والآن، ها هو ذا حلمه يغدو حقيقة. ثم حلم بأن شيئاً يلمع أمام عينيه، فاستيقظ وهو يئنّ.

كانت الغرفة مضيئة، والشمعة تحترق على الطاولة. جلس ونظر حوله مذعوراً، لكنه لم يرَ أحداً في الغرفة. كانت ضجّة الأحاديث ما تزال تطرق سمعه من الغرفة المجاورة، لكن على نحو أخفّ. ولم يستطع أن يحدّد الأشخاص الذين يتكلّمون.

استحوذ عليه الخوف من الموت، فارتعدت أوصاله وصار جسده يرتعش. أحسّ أنهم يتقدّمون منه بالسكاكين. شعب الجرذان. حاول ثنيَ يديه، لكن شيئاً ما أعاقه. لم يقوَ على القفز من السرير. لم يهدّئ من روعه قليلاً إلا الشمعة التي تحترق وتلقي بالظلال على الجدار، كما كان يحصل في غرفة نومه وهو طفل صغير.

ذكّرته الشمعة بيدَيْ ڤانينا الناعمتين وهما تحملانها، وراح يرمقهما من دون أن تدري، حين جاءت تكشف عليه قبل قليل.

لمَ خوفي هذا؟ -جفل فجأة- الآن سيتحقّق ما أراده أن يتحقّق، ما خطّط له. سيموت.. لكنه يريد أن يموت، وستكون إلى جانبه، ربما تكون شريكة في قتله، فتاة جميلة تحمل سرّاً فريداً، وكأنها شيطان الموت في القبور الأتروسكانية.

تاق الآن للموت. تاق له بأسنان مصطكّة، وبذراعين خدرتين بفعل الذعر، لكنه تاق لأن يحدث.

فلينفتح الباب، ولتدخل إليه الفتاة، وتقترب من سريره، وتقبّله، وتعانقه في أثناء قيام السكين القاتلة بعملها! فلتدخل وتعانقه... هيّا، فلينفتح الباب!

لكن الباب لم ينفتح. صاحت ديكة الفجر في الخارج، وعمّ الصمت التام في الغرفة المجاورة، وخبت الشمعة، وغرق ميهاي في نومٍ عميق.

ثم طلع الصباح كعادته. استيقظ في غرفةٍ مضاءة، في غرفة مضاءة، ودودة. استيقظ على دخول ڤانينا تسأله ما إن كان نام جيداً.

كان صباحاً صيفياً إيطالياً لطيفاً كالعادة. سيشتدّ الحرّ عمّا قريب، لكنّ الجوّ ما يزال مريحاً حتى الآن، وإن كان شيء من طعم الثمالة ما يزال فائحاً، ولا شيء آخر.

كلّمته الفتاة عن حالة سكره الشديد الليلة الفائتة، وإنه مع ذلك ظلّ متحلّياً باللطافة، وترك أثراً طيباً في نفوس الحضور جميعاً، وإنهم أبقوه نائماً هنا من شدّة حرصهم عليه، واحتمال عدم تمكّنه من الذهاب إلى البيت.

ذكّرته عبارة الذهاب إلى البيت، بإيڤا التي لا بدّ أنها قصدته مساء أمس، لتكون إلى جانبه عندما... ماذا تراها تقول عنه؟ هرب؟ هرب من أمام نفسه؟

فطن عندئذٍ أن إيڤا لم تخطر له طوال الليلة المليئة بالخوف والكوابيس. وقف الآن مع ذاته. وقفة مع الذات هي الأعظم خلال مجرى حياته. أمر غريب! تموت من أجل امرأة لا تخطر على بالك طوال ليلة بكاملها، ويا لها من ليلة!

رتّب هندامه بقدر المستطاع، وودّع من تبقّى من الجالسين في العتمة الذين بادلوه تحياتهم الطيبة كصديقٍ عزيز قديم.
وأظهرت أشعة الشمس المتسربة عبر النافذة الصغيرة أنهم ليسوا جرذاناً، بل عمالاً طيّبين من الطبقة البروليتارية الإيطالية.

سرح متأملاً: هؤلاء هم من أرادوا قتلي؟ ليس صحيحاً على الإطلاق. لكن الغريب أنهم اكتفوا بسرقة جزداني، وبدلاً من أن يقتلوني، أحبّوني كثيراً. ما أغرب هؤلاء الإيطاليين!

وبحركة تلقائية منه ربَت بيده على ملابسه، فوجد الجزدان في مكانه هناك فوق موقع القلب حيث اعتاد أن يضعه إنسان القرون الوسطى الأوروبية. توقف ذاهلاً، وأخرج الجزدان. مئتا ليرة وبعض النقود والقطع المعدنية الأخرى.

لعلهم أعادوا الجزدان خلال نومه. لكن لا معنى لكلّ هذا. ومن المحتمل أنهم لم يقدموا على سرقته، وبقي الجزدان في موضعه طوال الوقت. شعر بالارتياح. ليست أول مرة في حياته يرى فيها الأبيض أسود، ويشطح فيها عن الواقع الخارجي بالانطباعات والظنون.

رافقته ڤانينا إلى أمام الباب وخرجت معه قليلاً.

- تعال لزيارتنا في أي وقت، لترى الطفل. هناك واجبات للعرّاب لا يجوز عليه إهمالها. تعال في وقت آخر، تعال في كثيرٍ من الأحيان، تعال دائماً!

أعطى ميهاي للفتاة مئتي ليرة، ومنحها قبلة خاطفة على فمها، ومضى.

- ٨ -

صعد إلى غرفته.

أرتاح قليلاً، وأفكر في ما أريد أن أعمله، وفيما إن كنت أريد ذلك الذي أريده، وبعد ذلك أكتب لإيڤا، لأن حالتي معها فيها شيء من المواربة، وإن صارحتها بما حصل لي ليلة أمس فقد لا تصدّقني. ما أحمقها من حالة!

خلع ملابسه تلقائياً، وبدأ يغتسل. أليس الاغتسال عبثياً؟ وهل من جدوى لاغتسال المرء في مثل هذه الحالة؟ تردّد قليلاً، لكنه اغتسل وأعدَ الشاي لنفسه، وتناول كتاباً، واستلقى على السرير، وغفا.

استيقظ على قرع الجرس. خرج مسرعاً، وقد شعر أنه على خير ما يرام، وبكامل نشاطه. كانت السماء تمطر، ولم يكن الحرّ شديداً كالأيام الماضية.

فتح الباب. كان والده.

- مرحباً يا بنيّ. وصلت الآن بقطار الجنوب. يسرّني أنني وجدتك في البيت. أنا جائع. أتمنّى أن ترافقني للغداء.

أذهل ميهاي حضورُ والده المفاجئ. لكن ما تملّكه من مشاعر تعدّى ذهوله بحضور والده، كما تعدّى ارتباكه وحياءه حين راح الأب يطوف بعينيه في أرجاء الغرفة، ساعياً بأقصى ما لديه من جهد ألّا تشي ملامحه بالاشمئزاز الذي ولّدته هذه البيئة المخجلة.

هيمن عليه إحساسٌ قابض كان ينتابه كلّما طالت رحلته في الخارج، وعاد إلى البلد: تقدُّم أبيه في السن. انتابه الذعر. لم يبدُ والده كبيراً في العمر، كحاله حين رآه الآن. لأنه حين رآه أخر مرة، كان ما يزال صاحب الإيماءة الآمرة، الواثق بنفسه كما عرفه طوال حياته. لعلّه حين كان على تماسٌ معه مدّة طويلة في البلد لم يلاحظ ما كان يطرأ على وجهه من تبدّلات كانت تحصل ببطء، فلا يلاحظها لرؤيته المتواصلة لأبيه دونما انقطاع. بدت التبدّلات حادّة الآن، بعد انقضاء أشهر عديدة على غيابه عنه. لقد سطا الزمن على وجهه، وغزا هيئته شيء من

الشيخوخة، ولا ريب، لكنها ليست طاعنة كلّ ذاك القدر: فَقَدَ فمه مرونته القديمة، وتعبت عيناه، وتجوّف محجراهما. (صحيح أن سفره الليلي كان طويلاً، وبالدرجة الثالثة حرصاً على التقتير، من يدري؟)، وشعره أكثر بياضاً، وحديثه غير المتماسك شابه شيءٌ من التقطّع الغريب المؤرق للوهلة الأولى. أمر لا يمكن وصفه بدقة، لكن حقيقة مُرّةً لا يمكن تجاهلها: شاخ والده. وبالمقارنة مع هذا الأمر، بات كلّ شيء تافهاً: إيقا ومشاريع الموت، وإيطاليا كلّها.

المهم الآن ألّا أنفجر بالبكاء. الآن لا. سيحتقرني أبي، وقد يكتشف أنني أبكي لأجله.

استجمع نفسه، وخلع على وجهه أشد التعابير خلواً من المعنى، تلك التعابير التي اعتاد أن يستقبل بها كل ما له علاقة بأسرته.

- لطفٌ منك يا أبي أنك أتيت. لا بدّ أن لديك أسبابك القاهرة لتقطع هذه المسافة الطويلة، وفي الصيف...

- طبعاً يا بنيّ.. أسباب قاهرة.. ولكن لا شيء يدعو للقلق. لم تسألني، لكن أمك وإخوتك بخير. وكما أرى أنت أيضاً على ما يرام، ولا قلق بشأنك. دعنا إذاً نذهب للغداء. خذني إلى حيث لا يطبخون الطعام بالزيت.

قال الأب خلال الغداء: «أرجي وزولتان باتاكي زاراني أول البارحة».

- ماذا؟ أرجي في بودابست. وهما معاً.

- أجل، سافر باتاكي إلى باريس، وتوافقا، وعاد أرجي إلى البلد.

- لكن لماذا؟ وكيف ذلك؟

- لا أدري يا بُنيّ. لك أن تتصوّر أنني لم أُبدِ فضولاً ولم أستفسر. اقتصر حديثنا على شؤون العمل. تعرف أنك... كيف أعبّر لك... سلوكك غريب، وإن لم يفاجئني، إلا أنه وضعني في موقف حرج مع أرجي. موقف ماليّ حرج. من الصعب هذه الأيام تحويل المستلزمات إلى نقود جارية... أظن أن أخاك كتب لك عن الموضوع.

- أجل أعلم. لن تصدّق كم أقلقني هذا الأمر. قالت أرجي إن زولتان... لكن، تفضّل تابع حديثك!

- ليست هناك أي مشكلة، والحمد لله. جاءا إليّ لنناقش الشروط التي أسدّد فيها أموال أرجي. ولكن يمكنني القول بأنهما كانا جدّ متفهمين، وفاجأني ذلك. اتفقنا على التفاصيل التي لم تكن ضاغطة، وآمل أننا سنتمكن من تحقيقها بلا مشاقّ، لا سيما وأن أخاك بيتر قد استطاع الحصول على زبونٍ جديد ممتاز.

- لكن قل لي، باتاكي نفسه، سلك هذا السلوك الحسن؟ لا أفهم.

- سلك سلوكاً نبيلاً. القول بيني وبينك، ربما من فرط سعادته بعودة أرجي له. ولا ريب في أنه حقق نوايا أرجي. إنها في الحقيقة امرأة ممتازة. كفى إشكالات يا ميهاي! لكن لا عليك، فقد عزمت على ألّا أفاتحك بشيء، ولا أعاتبك، ولا أوجّه لك الملامات. كنتَ صبياً متفرّداً على الدوام، وأنت تعرف ما فعلت.

- ألم يشتمني زولتان؟ ألم يقل إن...

- لم يقل شيئاً. ولم يأتِ على ذكرك بكلمة، وهذا طبيعي في ظروف كهذه. لكن أرجي ذكرتك.

- أرجي؟

- أجل. قالت إنها قابلتك في روما، ولم تذكر أي تفصيلات، وأنا لم أسألها بالطبع. لكنها وشت لي أنك تعاني من أزمة خانقة، وتظن أن عائلتك قد انقلبت ضدّك. لا، لا تقل شيئاً! التزمنا الرزانة معاً، وسنبقى كذلك. لست مهتمّاً بتفاصيل ما حدث. لكن أرجي أشارت عليّ بأن أقصدك إلى روما، إن أمكنني ذلك، وأحاول إقناعك بالعودة إلى بودابست، والحقيقة أنها استخدمت عبارة أن «أعود بك إلى بودابست».

أن يعود به؟ أجل، أرجي تعرف ما تقول، وهي تعرف ميهاي حقّ المعرفة. كانت أكيدة من أن بوسع أبيه أن يعود به إلى البلد، كتلميذٍ تسرّب من المدرسة. كانت تعلم أن طبيعة ميهاي الانقياد والطاعة، وسوف ينقاد ويطيع، كتلميذٍ يلتحق بالمدرسة، وقد وضع في ذهنه احتمال هروبه مجدّداً إذا ما سنحت الفرصة.

أرجي حكيمة. لا يمكنه أن يفعل شيئاً سوى العودة إلى الوطن. وقد يكون هناك حلٌّ آخر... لكن تلك الظروف المحيطة، التي أراد الهروب منها حتى الموت، قد انتفت على ما يبدو. رضي زولتان، وأسرته بانتظاره بفارغ الصبر، ولا أحد يطارده.

تابع أبوه: «وباختصار، أنا هنا الآن، وأتمنى أن تنهي هنا كلّ أمورك، وتأتي إلى البلد، واليوم في قطار الليل. تعلم أن وقتي ضيّق».

قال ميهاي مرتعشاً: «رجاءً، جاء الأمر مفاجئاً! فكّرت صباح اليوم في كل شيء، إلا في العودة إلى بودابست».

- أصدّقك، لكن ما المانع في عودتك؟

- لا شيء. لكن دعني أتنفّس قليلاً. لن يؤذيك أن تستلقي عندي بعض الوقت، وتأخذ قيلولة، أرتّب خلالها أفكاري.

- رجاءً، كما تشاء.

ترك ميهاي والده يرتاح في السرير، وجلس هو في الكرسي الضخم بقصد التفكير القاسي. تكوّن التفكير من استرجاعه شريطاً من أحاسيس معيّنة، وقلّبها في نفسه متمعّناً في شدّة تأثيرها. بهذه الطريقة اعتاد أن يحدّد ماذا يريد، أو ماذا يتمنّاه إن كان له أن يتمنّى. أيرغب حقاً في الموت؟ أما زال يتوق للموت تيمّناً بتاماش؟ استرجع تلك الرغبة في نفسه، محاولاً تلمّس ما فيها من حلاوة. ولكن ها هو ذا لم يحسّ بأي حلاوة، بل على العكس من ذلك، فقد جعله توقه هذا يحسّ بالتعب والتخمة، كإحساس المرء بعد المضاجعة.

أدرك الآن سبب شعوره بهذه التخمة. باتت رغبته مشبعة. ليلة أمس، حين كان في البيت الإيطالي، وفي ما ساوره من خوف، وما رآه من أحلام، قد حقّق الرغبة التي طاردته منذ سن المراهقة. وهي إن لم تتحقّق في الواقع الخارجي، لكنها اكتملت في واقع الروح. وبهذا تكون الرغبة قد حظيت بإشباعٍ لمدّة طويلة إن لم يكن بشكل نهائي. وتحرّر منها مثلما تحرّر من طيف تاماش.

وإيفا...؟

وجد رسالةً ملقاة على الطاولة، وُضعت هناك حين كان في الغداء. وصلت منذ مساء أمس، لكن صاحبة البيت نسيت أن تدخلها له. نهض وقرأ رسالة إيڤا الوداعية.

«ميهاي. وأنت تقرأ هذه الرسالة، أكون في طريقي إلى بومباي. لن آتي إليك. أنت لن تموت. أنت لست تاماش. موت تاماش لا يليق إلا بتاماش. فليبحث كلّ منا عن موته الخاص. رافقك الله. إيڤا».

عند المساء استقلّا القطار. جلسا وتحدّثا في شؤون الأعمال. وحكى له والده عما حلّ بالشركة خلال فترة غيابه، وما هي المشاريع القادمة، والمهمة الجديدة التي يريد أن يوكلها له.

أنصت ميهاي له. يذهب إلى الوطن. سيحاول مجدّداً ما فشل في تحقيقه خلال خمسة عشر عاماً: التأقلم. عساه يفلح الآن. هذا قدره. الاستسلام. الحقائق أقوى منه. لا مهرب له. هم الأقوى دوماً. الآباء، الـ«زولتان»ـات، المؤسسات، البشر.

غطّ أبوه في نومه. أطلّ ميهاي من خلال النافذة، محاولاً أن يتابع في نور القمر خطوط الجبال التوسكانية. ينبغي البقاء على قيد الحياة. هو أيضاً سيحيا كالجرذان بين الخراب. لكنها حياة مع ذلك. وما دام الإنسان يحيا، فلا بدّ أن يحدث دوماً شيءٌ ما.

(********) Quirites اسم مبكر لمواطني روما القديمة. (المترجم).

(********) تستخدم جملة «عبور روبيكون» اليوم استعارةً لتعني اجتياز نقطة اللاعودة. (م).

(*********) فورنت: العملة المجرية. (المترجم).

أنتل سرب (١٩٠١ – ١٩٤٥)

كاتبٌ هنغاري ومؤرّخ أدبي. ولد في بودابست عام 1901. في العشرين من عمره نشر أشعاره الشهيرة، في مجلة «غرب» أشهر الدوريات الهنغارية آنذاك، ثم كتب المقالات النقدية ونشرها في مجلة «شروق»، وانضمّ بعدئذٍ إلى هيئة تحرير مجلة «مينيرفا» الأدبية. عمل في عام 1925 مخرجاً مسرحياً في «مسرح المدينة»، ثم أُرسل في منحة لمدة عامين للدراسة في لندن، انشغل بعدها بالأدب الإنكليزي ونظرية الرواية. وفي عام 1933 صار رئيساً لرابطة علم الأدب الهنغاري. أطلق عليه النارَ «شبّيحةُ» حزب «نبلاش»، فتوفي إثر ذلك عام 1945.

من أهم أعماله: «المسافر ونور القمر»، «أسطورة بندراغون»، «أوليڤر السابع»، «قلادة الملكة»، «تاريخ الأدب العالمي»، وغيرها.

نافع معلا:

شاعر ومترجم سوري، من مواليد اللاذقية 1953. درس الهندسة في جامعة بودابست للهندسة (1972-1978)، وفي تلك الفترة اطّلع بشغف على الثقافة الهنغارية من فنون وآداب.

بدأ ترجمة الأدب الهنغاري منذ عام 1980، وفي رصيده كثيرٌ من الكتب المترجمة، من بينها: «مراسلات جورج لوكاتش»، رواية «كوفاديس» للكاتب «هنريك شنكوفيتش» الحاصل على جائزة نوبل في الآداب عام 1905، رواية «الجبانة» للكاتب «شاركدي إمرة»، رواية «مقبرة الصدأ» للكاتب «أندريه فيش».